

خط الشام

تأليف
محمد كرد علي
رئيس المجمع العلمي العربي

الجزء الرابع

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1433هـ-2012
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

محمد كرد على ، محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد على ، 1876-1953
خطط الشام / تأليف محمد كرد على
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، 2012
400 ص ، 24 سم
تكمك : 4-576-341-977-978
أ- الشام
- الشام تاريخ
أ- العنوان

نيوى: 915.65

التاريخ المدني

العلم والأدب ما يراد بالعلم والأدب

نريد بالعلم علم الدين والدنيا، فالعالم بالحديث عالم، والعالم بالطب عالم، والعالم بالكلام عالم، والعالم بالهندسة عالم. والكمياء علم، والبيطرة علم، والتاريخ علم والجدل علم، وشرف هذه العلوم بشرف مقاصدها، وأشرفها في نظر الإلهيين ما هذب النفس وأعدّها للحياة الخالدة. وعلوم الدنيا هي الوسيلة إلى تلك السعادة كما قال حجة الإسلام الغزالي: إن الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسية الخلق وضبطهم، لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا، ولعمري إنه متعلق أيضًا بالدين، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا.

كان البشر قبل ظهور الأديان المشهورة يستخدمون علوم الدنيا للدنيا، وكانت بسائط على حالة ابتدائية بالطبع، ويعكفون من جهة أخرى على تماثيلهم وأربابهم ومعابدهم يحدون صنعها، ويمجدونها ويتغنون بمدحها، فلما جاءت الأديان المعروفة تغير الشكل بصورة أخرى، وبقيت العناية بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع والدول. أما الأدب فالذي كانت العرب تعرفه هو ما يحسن الأخلاق ويدعو إلى المكارم. واصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أدبيًا وعلوم

العربية أدبًا. والمراد بالإسلام كما قال النووي من حين انتشر وشاع في الناس وذلك قبل الهجرة النبوية بنحو ست سنين.

للأهوية والأهواء تأثير في العلم، والعلوم ربيبة الأرض المعتدلة أو الباردة أكثر من الحارة والبيئة؛ لأن أهل هذه قصيرة آمالهم في الحياة، محدودة مطالبهم، فاترة همهم، مثلوم حدهم، متداعية صحتهم. ومن صرف وكده أيضًا إلى الأهواء المذهبية ضعف سلطان العلم فيه، لتوزع قواه، وانصراف رغبته عن الفانية إلى الباقية، واشتغال ذهنه بأمور لا يتسع غيرها في الأغلب.

وكلما توغلت أمة في مضمار المدينة نظرت إلى علوم الدين وعلوم الدنيا نظرة واحدة، وشرفت ما تشدد حاجتها إليه منها، وأقبلت بكليتها على المشتغلين بها. فقد رأينا جامعات أوروبا في القرون الوسطى تنشأ لغرض الدين على الأكثر، فلما عظمت مطالب البشر، وأخذت المدينة تسير سيرها، أصبحت العلوم الدينية في جامعاتهم تقرأ كما يقرأ التاريخ والأدب والطبيعة، لا فضل لديني لاهوتي على طبيعي رياضي، إلا بالأثر الناتج عن درسه وبحثه، هذا إن لم يرجحوا في عرفهم العالم الثاني. وبينما نجد تماثيل العلماء بالمئات في شوارع الغربيين وساحاتهم ومتاحفهم ودور العلم والصناعات عندهم، لا نشهد من علماء الدين إلا نفرًا قليلًا أقيمت لهم التماثيل داخل البيع والكنائس فقط.

كان الاقتصار على العلم الديني في الصدر الأول للإسلام، ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة، ورأى علماء الأمة أنها نافعة لقوام الدين والدنيا، وبذلك أقنعوا العامة ومن فوق درجتهم، فأقبل الناس عليها، وكانت العناية أولًا بعلوم القرآن والسنة، ثم أقبل الناس على الفقه لأن حالة الزمن اقتضت الإقبال عليه لتعدد الحصومات بين الناس واتساع المملكة

الإسلامية وما حدث فيها من المشاكل والغُضَل، ثم أقبلوا على علم الكلام، لما رأوا الحاجة الماسة إليه خصوصًا، وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها أنصارًا وعشاقًا، ثم مالوا إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذاهب الشافعي وأبي حنيفة، ثم كثرت العلوم بين العرب في المدن وضعفت وضعف سندها في القرن العاشر للهجرة، إلى أن أخذت تتطور تطورًا جديدًا أواخر القرن الثالث عشر وأوائل هذا القرن على ما سيجيء.

وأهم العوامل في اضمحلال العلم في ديار الإسلام زهد الملوك والأمراء فيها واشتغال الناس بالفتن والغوائل. ومذ أخذ العلماء يتعلمون علوم الدين للجاه والمال، ضعفت علوم الدين والدنيا معًا. وأصبح السلطان للممخرقين والمعطلين والمتهوسين بمسائل الكشف والولاية من علماء الرسم، وليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد: الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق، وتهذيب الأخلاق، على أن من تعلم علمًا للاحتراف لم يأت عالمًا وإنما يجيء شبيهًا بالعلماء. ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر، ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد، فأقاموا للعلم مآتمًا، وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم ويعلمهم، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل، فيكون ذلك سببًا لارتفاعه، ومن هنا هُجرت علوم الحكمة وإن كانت شريفة لذاتها.

إنَّ الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جدًا، ولكنهم يكونون على الأكثر ممن نسبيهم أو أكثرهم بأهل النبوغ والعبقرية، يتفانون في مقصدهم ويأتون بالجديد بيدعون ويرزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر وعنوانًا للتصدر، وهم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الأرض، وتبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقابًا ودهورًا، ومن

هذا الفريق أنجبت الشام قديماً وحديثاً جماعة افتخرت بهم، وعُدوا بأعمالهم بالقياس إلى حال هذا القطر وإلى مجموع علماء الأمة كتله صالحة أثرت تأثيراً محموداً في العلم والمدنية، وقد عرفنا تراجم أكثر رجال العهد العربي لقربه منا، ولا طراد التدوين في العرب في أغلب العصور على طريقة حسنة في الجملة، فوقفنا بها على منازعهم وأعمالهم. وغابت عنا تراجم كثير من المهندسين والنقاشين والمصورين والموسيقين؛ لأن القوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من أهل الصناعات فقط لا من أهل العلم؛ كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعة من الصناعات. وقد اصطلاح المتأخرون على أن المراد بالعلم إذا أطلق يقصد منه العلم الديني. ومن الغريب أن بعض المتأخرين

ممن دونوا تراجم أهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب والممخرقين ولم يذكروا مثلاً تراجم أهل تلك الأيام من المقدرين والبنائين وغيرهم ممن خلدوا بأعمالهم مدنية أعصارهم.

لم يتسلسل العلم قروناً طويلة في الشام تبعاً لتغير الدول وانصراف الهمم «والعلم مذ كان محتاج إلى العلم» ذلك لأن الشام كان في جميع أدواره ممراً للفتاحين يطمع فيه جيرانه، بل البعيدون عنه لتوسطه بين بر آسيا وإفريقية وأوربا. والقدر الذي عرفناه من رسوخ العلم في ديارنا كاف ولا شك في إنشاء مدينة صالحة خصوصاً إذا دعمها ما كان ينهال عليها من علوم أهل العراق والجزيرة ومصر والأندلس وفارس وغيرها. وكأن الشرق مُني بالتساهل والإهمال، وعدم التسلسل في الفكر والاطراد في العمل، فكان مظهر الحياة الفردية في الأعم الأغلب من حالاته، وعلى العكس في الغرب فإنه كان ولا يزال مثال الحياة الاجتماعية والتعصب للفكر والاستماتة فيه، والتسلسل في الأفكار.

ولقد رأينا الغرب في قرونه الوسطى قبيل عهد النهضة يشد في إرهاب الأفكار الحرة، وديوان التفتيش الديني يحرق الأنفس البشرية بالعشرات للقضاء على الفلسفة والتجدد، بيد أن الغرب كان إذا هلك فيه رجل بطريق الإلحاد والخروج عن مألوف القوم، يقوم غيره من أخلافه في الحال يتناول ما بدأ به سلفه، ناسيًا أن الهلاك يحل به إذا اشتهر أمره. ورأينا في هذا الشرق القريب أناسًا ينزعون إلى التجديد والإبداع كان نصيبهم من الحياة ضرب أعناقهم، أو إدخال الرعب على قلوبهم حتى قضوا أعمارهم في خمول وتقية، وكان نصيب الأمة العربية أن يقل فيها جدًّا ظهور من يخلفهم في دعوتهم، وقد يأتي العصر والعصران ولا يظهر فيهما نابغة يذكر وعالم مبدع، وجاء زمن وهو ليس ببعيد، وقد أصبح الناس ينكرون البديهيات في العلم، ويحرمون ما حلل الله من ضروبه النافعة، فغارت ينابيعه من أرضنا وفاضت في الغرب وزادت مع الأيام فيضًا، وقويت تقية العلماء ودخل في غمارهم الجاهلون فسقطت هبة العلم. وكان من نتائج عمل العربيين تلك الحضارة الحديثة المدهشة ومن تفاشلنا وتجاهلنا هذا الانحطاط المحسوس وإضاعة مدنية الأجداد.

العلم ابن الحرية، والأدب ربيب التسامح، وقد شاهدنا أجدادنا في هذه الديار المثال الصالح في هذا الباب على اختلاف العصور والمذاهب، وكان العرب في أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القبيل. فإن كانت أنطاكية وبيروت قبل الإسلام عاصمتي الحكمة والأدب والشرائع، فقد امتازت بعدهما حلب والمعرة وطرابلس ودمشق وحمص بهذه الخصائص. والعلم بضاعة ثمينة لا تروج الرواج المطلوب إلا في ظل السلام وصلاح السلطان.

هذا شأن العلم، أما الأدب وهو منظوم الكلام ومنثوره والخطب والرسائل فيتصرف أيضًا على هذا المثال، وبه أدركنا بعض الحالة

الاجتماعية والروحية الى كانت عليها تلك الأعصر، ورأينا فيه تبدلاً محسوساً في القرون التالية، فكانت الآداب في الشام في القرن الأول غيرها في القرن الثاني والثالث، وقد استحكمت أسباب الحضارة وعم الترف، ونقلت علوم الأوائل وراجت سوق الشعر في الرابع والخامس في الشمال، وما لبثت في أواخر هذا القرن أن عراها الكساد قليلاً، ثم هبت إلى الحياة بعض الشيء في السادس والسابع تبعاً للحالة السياسية التي كان عليها القطر زمن الحروب الصليبية، ولم ينشأ في الشام خلال القرنين الثامن والتاسع شاعر يجوز عده في مصاف المفلقين على مثال شعراء القرن الثالث والرابع، أما في القرون الأربعة التالية فضعفت حالة الشعر أكثر من ذلك بما لا يقدر، وأصبح نظمًا لا شعراً فقد من أكثر ما نقل من الشعر الروح وبقي جسمًا له من الشعر قوافيه وأوزانه، يطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم وتتأثر أنفاس الابن بأنفاس أبيه وجده.

إن حكمنا على المنظوم يسوغ أن نورد في المنشور، كان الإنشاء في القرنين الأولين للإسلام يسير مع الطبع غالباً ونبغ في الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذي وضع أساس الكتابة المرسلة، ورأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب في الإدارة أو السياسة أو القضاء أو في أمر مهم من أمور الدولة في سطرين أو ثلاثة ليس فيه شيء من الكلفة بته بل هو آية الفصاحة والبلاغة، وهكذا معظم آل بيته من بني أمية وبني مروان، ومن نشأ في دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وزباد بن أبيه وعتبة بن أبي سفيان وشهدنا التكلف بادياً في كتابة القرون التالية التي انتقلت فيها صناعة الكتابة إلى بغداد أو القاهرة وضعف أمرها في الشام. وكان الشام يتبع العراق تارة ومصر تارة أخرى، حتى إذا كان القرن السادس، ونبغ في الدولة الصلاحية القاضي الفاضل بطريقته المستملحة في الكتابة المسجعة على الأغلب، وحذا حذوه العماد الكاتب، ثم ضياء الدين ابن الأثير

صاحب المثل السائر وغيرهما من كتاب الدولة أخذت تضيق حلقة الكتابة وهي احتذاء مثال الموجودين من القدماء لحصرها في قيود الجناس والبديع والأسجاع فجمدت القرائح وقل المبرزون فيها المجيدون لصناعتها، فما بالك بالإنشاء الذي هو ابتكار المعاني والإبداع في القوالب. وإذا استطعنا أن نعد عشرة كتاب في القرن الواحد لا نقوى على عدّ منشئ واحد فيه. وحكمنا هذا مبني على ما قرأناه فيما خلفه السلف في هذه الديار من الكتب والآثار المبعثرة في بطون الدفاتر، وربما كان في المفقود الذي لم يصلنا من هذا النوع ما يؤهلنا لو ظفرنا به، أن نصدر حكمًا أصح من هذا على فنون الإنشاء والكتابة والشعر والنظم، والإنشاء من الكتابة كالشعر من النظم.

ولو لم ينبغ في المؤلفين أمثال القفطي وياقوت وابن أبي أصيبعة وابن العديم ثم الصفدي وابن فضل الله والمقرئ والشهاب الحلبي وأمثالهم في القرنين السابع والثامن لقلنا: إن الانحطاط في الكتابة بدأ في الشام منذ القرن السادس، بيد أنها أصبحت في الحقيقة سجعًا كسجع الكهان بظهور ابن عرب شاه الدمشقي وابن حجة الحموي وأمثالهما في القرن التاسع، أما في القرن العاشر وما بعده فإن الكتابة كالشعر كانت إلى التكلف والسجع غالبًا، ومن أفلت من المؤلفين من قيود التكلف، ونجا من الترصيع والتسجيع، جاء كلامه مقبولاً في الجملة وقليل ما هم.

بقيت الكتابة والشعر ترسفان في قيودهما القديمة إلى أوائل القرن الرابع عشر أيام نشأ للأمة في مصر بضعة شعراء ومنشئين أدخلوا الآداب في طور جديد ونزعوا عنها ثيابها البالية، وألبسوها حلة قشبية، فقام من المنشئين أمثال محمد عبده وإبراهيم المويلحي ثم المنفلوطي وطه حسين والعقاد وأضرابهم. ومن الشعراء محمود سامي وإسماعيل صبري ثم حافظ إبراهيم وأحمد شوقي وتلك الخلبة، وانتشرت كتاباتهم وقصائدهم

في العالم العربي ومنها اقتبس شعراء الشام وكتابه وبطريقتهم اقتدوا وغيروا أسلوبهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون. وما أسلوبهم إلا الجمع بين متانة القدماء ورقة المحدثين، وأصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الأدب العربي؛ أي منذ زهاء خمسة عشر قرنًا. وكان للصحف والمجلات ولانتشار الآداب الإنكليزية والفرنسية والتركية وغيرها تأثير كبير في هذا الانقلاب الأدبي في ديارنا، والمبرزون فيه مازالوا قلائل جدًا، ويرجى أن لا يمضى عقدان أو ثلاثة من السنين حتى تكون الشام أخت مصر في هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية، والنظر إلى وفرة السكان والغنى، وتوفر أسباب التعليم العربي القطري المصري.

العلم والأدب عند أقدم شعوب الشام

صمت تاريخ العلم في هذه الديار عن الرجال الذين اشتهروا مثلاً على عهد الحثيين ومن كان قبلهم من القبائل التي نزلت الشام، وخلفت فيها آثاراً في العمران لا تقوم بغير العلم، ولم ينقل إلا أسماء قليلة اشتغل أربابها بالعلم الديني والدنيوي على عهد بعض الدول الخالفة، ولا سيما الكلدان والعبران والرومان واليونان، ولولا بعض عاديات أثرت عن الأمم التي تأصل حكمها في بعض أرجاء القطر، وأخبار نقلها التواريخ الصحيحة لقلنا: إن أكثرهم كانوا أمماً بدوية على الفطرة. وأهم ما أثر عن الفينيقيين مما ساعد العلم بالنسبة لعصورهم اختراعهم حروف الكتابة، بل تحسين أصولها وجعلها مطابقة للأصوات، ونقلهم لها إلى الأمم التي أبحروا واتجروا معها، وعنهم أخذتها أمم الحضارة الحديثة النازلة على شواطئ البحر المتوسط وما إليها. وهذا الاختراع أهم ما عرف في القديم كما كانت الطباعة في القرون الحديثة أهم اختراعاتها في نظر العلم. قال بورتري: لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف

هجائية، وليس هم أول من استعملوا الكتابة لأننا علمنا من الآثار أنها كانت عند المصريين والكلدانيين قبل عهدهم، غير أن كتابتهم لم تكن بحروف وفق الأصوات البشرية الأصلية كالحروف الهجائية التي استنبطها الفينيقيون واعتبروا بها كل الاعتبار لأنهم أتقنوا الكتابة ونشروها بين أكثر الأمم المتمدنة لاتساع تجارتهم، فإن الحروف الهجائية في لغات أوروبا وغربي آسيا وشمال إفريقيا مشتقة من حروفهم.

وأخبار العلم قبل الإسلام في الشام ضئيلة ومنها يستدل بعض الاستدلال على مكانة العقل فيه وسلامة أذواق بنيهِ، وكان النور يسطع بين أهل هذا القطر على حالة متقطعة لا مطردة، ويخرج العلماء والفلاسفة فرادى، انتقلت إلينا أسماء بعضهم ممن كانوا يعملون برأسهم أو يعملون مجتمعين مع أقرانهم في ظل الحكومات مثل يوسفوس المؤرخ اليهودي سنة ١٠٠م وله عدة تواريخ وقد صار واليًا على الجليل، وكتب بالسريانية ثم ترجمت كتاباته باليونانية، ومنهم يوستوس الطبراني اليهودي المؤرخ وفيلون اليهودي الجبلي وفيلودورم الابيكوري من جَدَر وتيودور الخطيب من عسقلان وأقليدس المهندس التجار الفيلسوف الرياضي الذي نبغ في صور، كما نبغ فيها فرفور يوس الفيلسوف، وكان بعد زمن جالينوس، ونبغ في العلم بولودر المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية وبنى جسرًا على نهر الطونة (الدانوب) وجاء في رَفْنِيَة أرسطيفس الرفني وفلسفته هي الفلسفة الأولى قبل أن تتحقق الفلسفة، وثاوذوسيوس الفلكي كان في القرن الأول قبل المسيح في مدينة طرابلس، وممن نشأ في اللاذقية نيقولاوس صاحب جوامع الفلسفة وتوفلس صاحب الحجج في قدم العالم.

واشتهر في هذه القرون الأولى هرميوس البيروني تلميذ فيلون المؤرخ الفينيقي في فنون الأدب، وطوروس البيروتي في الحكمة، ولوبركوس

البيروتية في اللغويات والفلسفيات، ومناسياس البيروني في الخطابة، واشتهر في الآداب مرقس كالوريوس برويس البيروتي، وفي الجغرافيا مارينوس الصوري، وكان معاصراً لبطليموس القلوذي في القرن الثاني للمسيح. وكانت أنطاكية على عهد خلفاء الإسكندر أوسلوقس نيقاتور ومن جاء بعده مباءة أدب وحكمة، ونبع فيها من الشعراء ورجال الدين والآداب والخطابة على عهد انتشار النصرانية رجال عظام مثل القديس يوحنا فم الذهب اليوناني، والقديس لوقا، والشاعر أرسطياس. وكما كانت أنطاكية دار حكمة وعلم، كانت بيروت تدعى مرضعة الحكمة على عهد الرومان، وكانت فيها مدرسة الفقه التي أسسها على الغالب بعض أباطرة الرومان من الشاميين - وقد نشأ من حمص وبُصرى أباطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية وحكموها - وكانت اللغة اللاتينية لسان العلم في تلك المدرسة، ويدرس فيها الفقه والآداب واللغة يقصدها الطلاب من جميع أنحاء المملكة حتى من روم القسطنطينية ومن أبناء العرب، وقد تخرج بأساتذتها أناس تأفقت سهرتهم في الأدب والشريعة، وكان قضاة الرومان من خريجها مدة أربعة قرون، وكان اثنان من تلامذتها من جملة أعضاء المجمع الذي ألفه الإمبراطور يوستينيانوس لتدوين الفقه وقيل: ثلاثة وهم اودكسيوس واناطولوس ودوروتاوس، ومن أساتذتها إميل بابنيان من بيروت، وكان من أشهر فقهاء الرومان، عد من جملة الفقهاء الخمسة الذين تنزل أقوالهم منزلة شريعة، وإذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله، ومههم اولبيان وهو من المشهورين من فقهاء الرومانيين ذهب بعضهم إلى أن مولده في بيروت وغيرهم إلى أنه في صور، ومنهم يوليوس بولس الحمصي وهو مشهور في الفقهاء الرومان، ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف أفلاطوني، ومنهم لوسيان السميساطي كان نقاشاً فقيهاً فيلسوفاً بليغاً، ومنهم اسباسيوس الجبيلي الخطيب المؤرخ، ولنجينوس صاحب زينب ملكة تدمر الذي جلبته كما جلبت بولس دي ساموزات

أسقف أنطاكية لينشر العلم في أرجاء مملكتها. وممن كان في تدمر وفي أرجاء الشام على ذاك العهد كيكلراتيس الصوري وعالم المؤرخين بوسانياس الدمشقي ونيكوماخوس المؤرخ. وممن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر وكانت تعرف التدمرية والمصرية واليونانية واللاتينية والعربية على الأرجح وأسماء أولادها عربية- كاسيوس ويونيسيوس وأوريغانس فيلسوف قيسارية. ومن علماء بيروت الأقدمين هومبوس له تأليف عديدة وسيلير الفيلسوف ومناسيا ألف كتابًا في البيان والفيلسوف الأفلاطوني طورس والطبيب اسطرابون وساويرس بطريك اليعاقبة، وهذا كان في القرن الخامس للميلاد. وكثر في القرن الثالث للميلاد الكتاب وأرباب القرائح وأهل العلم والحصافة والحكمة، وممن نشأ من الأدباء والفلاسفة لوسين وجامبلتوس وبلوتين. قال سنيوبوس: حفظت في مدارس الروم في دمشق والإسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب فجمع علماء الإمبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم وأكملوها ونشروها.

مواطن العلم في القطر قديماً

كان العلم يدرس في تلك الأحقاب في أربع مدارس وهي القسطنطينية والإسكندرية ورومية وبيروت، وقد أنشأ الرومان مدرسة في قيسارية، وأخرى في آثينا، وكان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمة ذات شأن، ولكن دون مكانة مدرسة جارتها بيروت. وقد ألغى يوستينانوس مدارس قيسارية وآثينا والإسكندرية، وأبقى مدارس رومية والقسطنطينية وبيروت ولقب بيروت بأم العلوم وظئر الشرائع. وأعفى ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين في مدرسة بيروت من الرسوم تنشيطاً لهم. وقد خرجت مدرسة بيروت قبل الإسلام بالزلازل التي

تواترت على الثغر في القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ٥٦٠ م الذي ألهم بيروت ومساكنها معاهدها.

وكان في غزة مدرسة قديمة تفاخر بمشاهير علماء البيان فيها وكان فصحاءها على العهد اليوناني المرجع الأول في الفصاحة والبلاغة، وكان في قيسارية في القرن الثالث للمسيح مدرسة علمية يعلم فيها أوريجين أحد رجال الكنيسة وتخرج منها الأسقف أوزيب أبو التاريخ الكنسي، وقيل: إنه كان في أريحا مدرسة أسسها إيليا.

قال استرابون الجغرافي اليوناني من أهل القرن الأول قبل الميلاد: لم يبق في صور وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة؛ بل كان فيهما كثير من أصحاب علم الهيئة والعلوم الرياضية والخطباء والفلاسفة، ومدارس تقتبس فيها كل العلوم البشرية، وقد أنشأت صيدا في أيامنا كثيرًا من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا وديودوت أبوه، ونشأ في صور انتيباتر وقبله أبولون، وكان في أيامنا فيلسوف اسمه بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه.

وكانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية لغة العلم في هذه الأحقاب، ولم يكن السريان السكان الأصليون دون الرومانيين واليونانيين في تخريج الرجال، ولا سيما في عهد النصرانية فقد هبت في المائة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية السريانية بحلب وجوارها من رققتها، فسار في طليعة أهلها كيرتونا الشاعر الكبير، نشأ في حلب أو في صقعها ودرس الآداب السريانية في مدرسة الرها، وهي إحدى المدارس العالمية في العالم السرياني، ونشأ منهم سمعان العمودي وبالاي والقديس إسحاق الأنطاكي، ومن فحول شعراء السريان، اخسنايا المنبجي أحد غلاة المنوفسية (الطبيعة الواحدة) ويوحنا بن افتون القنسريني شيد ديرًا على

ساحل الفرات عرف بدير قنسرين، وكان جامعة للآداب والمعارف الآرامية عصرًا طويلاً مات سنة ٥٣٨ وتوما الحرقلي نشأ في دير ترعيل قرب حلب وتلقى العلم في قنسرين، وقد ترجم الأناجيل وغيرها من الأسفار المقدسة من اليونانية إلى السريانية.

ومن المدارس التي أنشأها السريان في غير أرض الشام، ولكنها خرجت للشاميين رجالاً أيضاً، وسرى من علومها على هذا القطر نسمات مباركات، مدرسة حران، وقد أخذت الشام ولا سيما شماليها منذ القرن الخامس تغص بالمدارس والأديار حيث تُدرس الآداب السريانية، ويتنافسون مع المدارس العالية الأخرى في ديار السريان، وكانت حران بمثابة آئينة العالم الآرامي، كما انبعثت من مدرسة نصيبين في ديار مضر في القرن الرابع شعلة الآداب الكلدانية الآرامية. وفي تاريخ كلدو وأثور أن مدرسة نصيبين كانت أول مدرسة في الشرق، أزهرت في القرن الخامس والسادس والسابع وبلغت عزها ومجدها، واشتهرت مدرسة نصيبين أكثر من مدرسة اورهاي اشتهار مدرسة المدائن وغيرها، وكان صيتها في فارس والروم وإيطاليا وإفريقية، وهى أول كلية لاهوتية بل أول جامعة درس فيها علم الإلهيات، وظهر منها علماء كفاة كتبوا في الفنون ولا سيما في الإلهيات. واشتهر اليعاقبة كالنساطرة في العلم والتأليف. والنسطوريون أكثر عدداً، واليعاقبة أكثر مادة. وكان يرشح من علوم هؤلاء الآشوريين على الشام شئ كثير للاشتراك في اللغة والدين إذ ذاك.

هذا بعض ما انتهى إلينا من أخبار العلم ونوابغه في الشام من الفينيقيين والسريانيين والرومانيين والبيزنطيين وما زالت بعض آثارهم وأخبارهم شاهدة بفضلهم، وأنهم ليسوا دون من خلفهم في أمور كثيرة، مما اهتدى إليه العقل البشري، فإن حرمانا كتبهم لأن الكتابة كانت على حالة ابتدائية فلم نحرم كتابات لهم مزبورة على بعض الأحجار، دونوا

فيها أعمالهم الحرية ومآثرهم العلمية، لا جرم أن من ينشئ هذه المصانع وينزل فيها لا بد أن يكون على جانب من الغنى، وهذا لا يزكو إلا بالعلم المختلف الضروب وفي ظل حضارة بديعة.

ما حمل العرب من العلم إلى الشام

تاريخ العلم في العرب من أغرب ما سُمع في تاريخ البشر، كانوا أول ظهورهم نصف متمدنين يكثر فيهم الأميون ويقل من يكتب فيهم حتى في أهل الطبقة الأولى، ويعد فيهم من الممتازين من يحسن الكتابة، خرجوا فجأة من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم، ومن ضيق البداوة إلى متسع المدينة. ولما جاء الإسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر والخطب، لا يعرفون غير الفصاحة والبلاغة، وهما في نظرهم جماع كل العلوم، ينقلون أنسابهم وأخبارهم في الصدور، وعلومهم في الطب والنجوم عبارة عن تجارب شخصية أو تقليدية، ولم يكن التدوين بعهد عندهم، وكانت حدثت هذه الكتابة بالخط العربي قبل الإسلام بقليل نقلها إلى الحجاز حرب بن أمية، وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة. أخذت الكتابة من واضعها مرازم بن مرة. وأول من علم بمكة الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم الكتاب بالمدينة، وكان ممن أسر ببدر ولا مال له، فقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ويخلي سبيله، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت.

ولما فتحت الشام وكانت أشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين في الجنوب والوسط والتنوخيين في الشمال من عمال الروم، ومن كان ينزلها من القبائل والبطون العربية في أرجاء تدمر والفرات وغزة وسينا، كان الشعر مما يفاخرون به، وإذا نشأ فيهم شاعر رفعوا من شأنه

واعتمدوا على قريحته في الشدائد. وكان جبلة بن الأيهم من ملوك الغسانيين شاعرًا مجيدًا يعجب بالشعر ويجيز عليه وهو ممدوح حسان بن ثابت ومن أهل بيته فصحاء لا يستهان بهم.

جاء الشام في الجاهلية كثير من شعراء جزيرة العرب وكأنهم كانوا ينزلون على أهل جيلهم وقبيلهم، ومنهم امرؤ القيس وقد ذكر في شعره بعض أرجاء الشام. وكذلك حسان بن ثابت ذكر أرض العساسة ومنازلهم. وأقام المتلمس المتوفى سنة ٥٨٠ م في حوران عند الغساسة إلى وفاته.

جمع القرآن ونشره في الشام

جمع القرآن على عهد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) على ما روى ابن سعد أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وسعد بن عبيد وأبو زيد ثابت. وكان مجمع بن جارية قد جمع القرآن إلا سورتين أو ثلاثًا. وكان ابن مسعود قد أخذ بضعة وتسعين سورة وتعلم بقية القرآن من مجمع. قال: وكان بقي على مجمع بن جارية سورة أو سورتان حين قبض النبي، وفي رواية أن من جُمع القرآن - عدا من ذكروا - علي بن أبي طالب وعبيد بن معاوية.

وقال محمد بن كعب القرظي: جمع القرآن في زمن النبي صلى الله وسلم خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وأبو أيوب وأبو الدرداء، فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد بن أبي سفيان: إن أهل الشام قد كثروا وبلوا وملأوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم. فدعا عمر أولئك الخمسة فقال لهم: إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعينوني

رحمكم الله بثلاثة منكم، إن أجبتهم فاستهموا، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا، فقالوا: ما كنا لتساهم. هذا شيخ كبير لأبي أيوب، وأما هذا فسقيم لأبي بن كعب. فخرج مُعَاذ وعبادة وأبو الدرداء.

فقال عمر: ابدأوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة منهم من يَلْقَن، فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق والآخر إلى فلسطين. وقدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين. وأما معاذ فمات عام طاعون عَمَواس، وأما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات.

وهذه أول بعثة علمية حجازية أتت الشام لتعلم أهلها وتثقفهم. ويرجع الفضل الأول في اقتراح إنفاذها لأحد أبناء أبي سفيان النجباء كما كان أبو سفيان وأبو حرب نقلا الخط العربي إلى الحجاز، والشام مدينة لأمية في أمور كثيرة لاشتراكها في خدمة الحضارة اشتراكًا عمليًا.

قال زيد بن ثابت: أرسلت إلى أبي بكر فأتيته فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال لي: إن القتل قد استحرَّ بالقراء يوم اليمامة وإنني أخشى أن يستحر القتل في القراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن، فأرى أن يجمع القرآن بحال فقلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدري ورأيت ذلك الذي رآه عمر. قال زيد بن ثابت: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك. قد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن واجمعه. قال زيد: فوالله لنقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي من الذي أمرني به من جمع القرآن، أجمع من

الرقاع والللخاف^(١) والعسب^(٢) وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد لها مع أحد غيره. فكانت الصحف عند أبي بكر حياته توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصه ابنة عمر -رواه صاحب الفهرست.

وأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ثلاثين بنسخ المصحف الذي كتب في زمن سلفه أبي بكر وتفريقه في الأمصار، وكان بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق فإنهم قالوا: قرأنا أصح من قرآن أهل الشام؛ لأننا قرأنا على أبي موسى الأشعري، وأهل الشام يقولون: قرأنا أصح لأننا قرأنا على المقداد بن الأسود، وكذلك غيرهم من الأمصار، فأجمع رأية ورأي الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وكان مودعاً عند حفصه زوج النبي، ويحرق ما سواه من المصاحف التي بأيدي الناس، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلا منها إلى مصر من الأمصار. وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. وقال عثمان: إن اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم.

فتح العرب الشام ولم يحملوا إليه غير دين يبعد عن الشرك وعبادة الأصنام، وغير بلاغة الشعر والخطب المغروسة في طباعهم، وفطر سليمة جبلت عليها نفوسهم، فاقبستوا في الحال مدينة من نزلوا عليهم وتمثلوها وهضموها في أقصر مدة، وأتوا بعدها بأمور جديدة، على ما قاموا بمثل

(١) اللخاف ككتاب حجارة بيض رقاق.

(٢) العسب بضمين جمع العسيب؛ وهي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها.

ذلك في بغداد ومصر وفارس والأندلس وغيرها. ولقد أظهروا وهم في أوج عزهم من التسامح مع السكان ما دهش له المخالفون واستغربه الموافقون، ولا غرو إذا فتحوا صدورهم لتعلم العلوم بعد أن ثبت أن الرسول عليه السلام. أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود؛ أي يتعلم لغة غير لغة العرب.

العلم والأدب في القرن الأول

من شعراء الأمويين جرير والفرزدق وكانت للأخطل الشاعر صحبة يزيد بن معاوية مدحه وهجا الأنصار، وما فيهم بيت إلا ويقول الشعر ولم يمسه أحد بسوء، وكان خلفاء الشام يقربونه على حين كان أهل نحلته يتبرمون بسلطة لسانه، حتى إن الأسقف حبسه مرة في الكنيسة بدمشق لشمته أعراض الناس، واستراساله في هجوم، هذا والملوك تهابه، والخلفاء تكرمه، وذكره في الناس عظيم. ومنهم مسكين الدارمي والراعي والرازع العجلي والأحوص وعدي بن الرقاع القضاعي وعلقمة بن عبدة وجناح بن روح والربيع بن مطر التميمي وحكيم بن عباس بن الأعور الكلبي والحسين بن عبيد الكلابي وأنيف العذري وأسباط بن واصل الشيباني صديق الخليفة يزيد بن الوليد وجواس ابن القعطل الكلبي وعثمان بن الوليد القرشي. وكان معاوية ومن خلفه من خلفاء بني أمية وبني مروان يفضلون عليهم، ومن شعرائهم نابغة بني شيان كان يفد على المروانيين فيجزلون عطاءه، وكان الأمويون يرسلون لأبي العباس الأعمى أحد شعرائهم بعطائه إلى مكة، وغالوا في الحرص على إكرام الشعراء ما خلا عمر بن عبد العزيز فإنه كان يقصي الشعراء عن حصرتهم لارتكابهم المطاعن والتشبيب في أشعارهم؛ ولكنه كان رضي الله عنه يفضل على العلماء فقد كتب إلى والي حمص: «انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقهِ وجسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة

دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيت كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله والسلام». وظلت القبائل في الإسلام إذا نشأ منها شاعر تغبط وتفاخر، وإذا عدمته ذلت؛ لأنها تعده لسانها الناطق ومدون مفاخرها.

وقد أعطى النعمان بن بشير عامل حمص أعشى هَمْدان شاعر اليمن عشرين ألف دينار من مال اليمانية، اقتطعها برضاهم من عطائهم ديناراً، وكان من خلفاء الأمويين مثل يزيد الأول والوليد الثاني من يقول الشعر الجيد، وكان عبدالملك من أكثر الناس علماً وأبرعهم أدباً.

وقد نشأ في القرن الأول من الفقهاء والمحدثين جملة صالحة في الشام منهم عبدالرحمن بن عَنَم بن سعد الأشعري الصحابي، بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام يفقه الناس فتفقه عليه عامة التابعين بالشام (٧٨)، ومنهم فضالة بن عبيد الصحابي ولي قضاء دمشق لمعاوية وأمره غزو الروم في البحر (٥٣)، وأبو الدرداء الخزرجي الزاهد الحكيم المقري ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان مات سنة (٣٢) وأول من أحدث رواية القرآن بدمشق هشام بن إسماعيل وبفلسطين الوليد بن عبد الرحمن. ومن علماء الشام أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري وأوس بن أوس الصحابي الشاعر سكن بيت المقدس والرملة سنة (٣٢)، ومن أخباريهم عبيد بن شَرِيَّة الجُرهمي وفد على معاوية بن أبي سفيان وأملى أشياء في أخبار الملوك أخذ عنه علاقة بن كُزُؤم الكلابي أيام يزيد بن معاوية، وكان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها وهو أحد من أخذت عنه المآثر، وربما جاز أن يعدَّ أول من دوَّن التاريخ في الشام.

ومن علماء الشاميين أبو إدريس الخولاني فقيه الشام وقاضيه، وعمرو البكالي المحدث الفقيه، وبشير بن الوليد الأموي كان يقال له عالم بني

مروان، وإبراهيم بن كثير بن المرتجلي الرملي، وكان عبادة بن الصامت والي بيت المقدس لعمر بن الخطاب قرأ عليه أبو سلام الحبشي واسمه محظور ويقال: الباهلي الدمشقي وشهر بن حوشب الأشعري المحدث (١٠٠)، وبلال بن أبي الدرداء الأنصاري قاضي دمشق (٩٣)، وأبو مسلم الخولاني شيخ الفيحاء وزاهدا من سادات التابعين، وروح بن زنباع يكنى بأبي زرعة، ويقال: بأبي رنباع الجذامي الفلسطيني كان له اختصاص بعبد الملك بن مروان، ورجاء بن أبي سلمة الفلسطيني المحدث، ومالك بن دينار أحد أعلام أقام في القدس (٢٣)، وجبير بن نفير الحضرمي عالم أهل الشام (٧٩) وغيلان بن مروان الدمشقي من كبار المعتزلة، وكان الحسن يقول إذا رأى غيلان في الموسم: «أترون هذا هو حجة الله على أهل الشام ولكن الفتى مقتول». وكان أوحده دهره في العلم والزهد قتله هشام بن عبد الملك وقتل معه صاحبه صالحاً؛ لأنه كان ينال من بني أمية، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي مهاجر مولى بني مخزوم من أهل دمشق كان يؤدب أولاد عبد الملك بن مروان.

ونشأ من الكتاب في هذا القرن عبد الله بن أوس الغساني سيد أهل الشام وأسود بن قيس الحميري من كتاب بني أمية بدمشق، وفي الفلسفة ساويرا سابوخت أسقف قنشرين اليعقوبي كان على السفينيين في الشام ممثل الحركة الأدبية، وقد جادل الموارنة بحضرة الخليفة معاوية سنة (٦٥٩م) وألف رسائل ومقالات عديدة في الحساب والفلك والاصطراب والفلسفة واللاهوت، ويعقوب الرهاوي وغيرهم، ونشأ في القرن السابع للميلاد؛ أي في القرن الأول للهجرة كاليبيكيوس البعلبكي وهو مهندس كيماوي قيل: إنه مخترع النار اليونانية المركبة من النفط والكبريت والقطران وغيرهما، وكان أبو قرعة أول كاتب نصراني ديني كتب بالعربية. ومن مشاهير النصارى في القرون الأولى القديس يوحنا

الدمشقي (٧٨٠م) كان علماً في عصره وألف كتباً كثيرة في اللاهوت ومنهم قزما المنشى وقزما البار وندراوس الأقرطشي والبطريك صفرونيوس.

عناية خالد بن يزيد بالنقل وأوائل التدوين

كانت الكتب التي ترجمت لأبي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي حكيم آل مروان وعالم قریش، أول نقل أو تعريب كان في الإسلام في عاصمة الشام. وخالد بن يزيد هذا زهد في الخلافة وعشق العلم، وإذا أنشأ جده معاوية ملكاً في الشام دام ألف شهر، فإنه أنشأ بعلمه مملكة باقية بقاء الدهر، فقد «أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي» والصنعة صنعة الكيمياء. فترجمت له كتب فيها كما ترجمت له كتب في الطب والنجوم. وممن نقل له اصطفن القديم، نقل كتب الكيمياء، وكان خالد بصيراً بالطب أخذه عن يحيى النحوي وأخذ الكيمياء عن مريانس الرومي وأتقن هذين العلمين وألف فيهما وله رسائل وكتب في غير هذه الأغراض، دالة على معرفته وبراعته، وله شعر كثير ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسبقه. وكان من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام وقيل عنه: قد علم علم العرب والعجم، وكان خطيباً وشاعراً، فهو أول من أعطى الترجمة والفلاسفة، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات.

وفي الفهرست: ويقال والله أعلم: إنه صح له عمل الصناعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير رأيت منه نحو خمسمائة ورقة،

ورأيت من كتبه كتاب الحرات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير. كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة.

جاء في التاريخ العام: لما جاءت العرب وجدت المدينة اليونانية راسخة في جميع الأقطار التي داهمتها أولاً مثل الشام ومصر والعراق فاقتربت من المملكة البيزنطية وبدا لها من وراء مدينتها النبوغ اليوناني، كما تجلى لها من الفرس المدينيات القديمة من الهند والصين على نحو ما وجدت في بلاد كنعان ومصر تذكارات من الأمم القديمة التي لا تزال عليها مسحة الأجيال العريقة في القدم ومصانعها وأعمالها.

ولما بلغت الدولة العربية غاية عزها، ثم تمزقت وتقسمت أصبح دينها واحداً ولسانها واحداً وقوانينها المعمول بها واحدة، وذلك من نهر السند إلى أعمدة هر كول وتمت الوحدة بين أولئك الشعوب المختلفة ديارهم، وأخذوا يقتبس بعضهم عن بعض من تبادل التجارة وسياحة الأفراد وتنقل الجيوش والأمم وانتشار المعتقدات والأخلاق والأفكار يتصادمون ويتمازجون ويتحدون ويتداخلون وكل شعب ينقل إلى الآخر عاداته وتاريخه وملكاته الطبيعية.

فالمدينة التي عمل فيها هذا العدد الكثير من المؤازرين المختلفين ليست إذا عربية صرفة؛ بل هي بحسب النماذج التي تشبعت بروحها والمحيط الذي كبرت فيه: يونانية وفارسية وشامية ومصرية وإسبانية وهندية، ولكن إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف إلا أن يقول بأن قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم فلم يكونوا واسطة فقط لنقل هذه المدينة ينقلون إلى الشعوب الجاهلة في إفريقيا وإسبانيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وعلومه واختراعاته؛ بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من

كل مكان، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التي ضُبِّت فتمازجت تمازجاً متجانساً أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم. وبفضلهم تيسر للحضارة الإسلامية في القرون الوسطة التي عاوت فيها أيد أخرى أن تكون ذات وحدة موصوفة، فالتقليد فيها محسوس ولكنه تقليد غير أعمى، وسلطة الأساتذة الأقدمين لا تحول دون الأبحاث العلمية والاختراعات الحديثة كما أن مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحول دون انتشار التفنن ولطافة الإبداع في الاختراع. وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق إحدى مراكزها ومنبعث أنوارها اهـ.

وبعد فإن خالد بن يزيد أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الإسلام، وفي دمشق على الأرجح أنشئت أول دار للكتب في العالم العربي، ودمشق أول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمة فأولى أبو هاشم بعلمه هذه الأمة وهذه العاصمة شرفاً لا يبلى على الأيام. وإن الشام ليفخر بأن قامت فيه أول دولة عربية ممدنة، وتمت فيه كثير من مشخصات الأمة العربية، ومن أولها التدوين والترجمة، فالشام أول سوق نفقت فيها بضاعة العلم والأدب فباعتها من غيرها وهذا يعد من مفاخرها الثالثة. وخالد بن يزيد أول من غني بعلوم الفلسفة ولم يتفرد بذلك المنصور العباسي خلافاً لما قاله كاتب جلبي من أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية. قال الأصفهاني: كان خالد بن يزيد ينزل حلب وتوفي سنة (٨٨٥هـ).

وبذا رأينا أن التدوين حدث في القرن الأول في العلوم الدنيوية، ويرى تالينو أنه ربما كان أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية كتاب أحكام النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم، وكان مطمح نظر المدونين ضبط مقاصد القرآن والحديث ومعانيهما، ثم دونوا فيما هو كالوسيلة إليهما.

وحدث التدوين في عصر الصحابة الكرام على ما في «توجيه النظر» فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألف كتاباً في علم الفرائض، وذكر البخاري أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي. وذكر صاحب الفهرست أنه رأى في مدينة الحديثة على الفرات خزانة للكتب فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين، وأمانات وعهود بخط أمير المؤمنين علي وبخط غيره من كتاب النبي، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي، ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم.

وذكر المؤرخون أن أول كتاب نقل إلى العربية كتاب أهرن بن أعين في الطب وجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه للناس وبثه في أيديهم. وعمر بن عبد العزيز هو الذي قال: كنت أصحب من الناس سراتهم، واطلب من العلم شريفه، فلما وليت أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفاسف العلم، فتعلموا من العلم جيده وورديته وسفاسفه.

علماء القرن الثاني والأدب والبقلة والمنشئون فيه

مضى القرن الأول وجاء الثاني فكثرت القراء والمحدثون والشعراء والنقلة والمترسلون والكتاب بكثرة الفتوحات وفرط العناية بالعلم والأدب، وقد نبغ في هذا القرن كثير من أهل العلم منهم رجاء بن حيوة الفلسطيني الكندي الأردني الفقيه العالم الذي كان يجالس عمر بن عبد العزيز (١٠١)، ومكحول مولى بني هذيل فقيه الدمشقيين وأحد أوعية العلم والآثار (١١٣)، وعبد الله بن عامر اليحصبي القارئ المحدث أحد

القراء السبعة من التابعين من أهل دمشق (١١٨)، وسليمان بن موسى الأشدق الفقيه وكان أعلم أهل الشام بعد مكحول (١١٩)، وربيعة بن يزيد شيخ دمشق بعد مكحول (١٢٣)، سليمان بن حبيب المحاربي قاضي دمشق أربعين سنة (١٢٦)، ويحيى بن يحيى بن قيس الغساني كان ثقة إماماً عالمًا بالفتوى والقضاء وسيد أهل دمشق (١٣٥)، ويزيد بن يزيد بن جابر الأزدي إمام فقيه (١٣٤)، والعلاء بن الحارث الحضرمي الفقيه (١٣٦)، ويحيى بن الحارث الدماري المقرئ الدمشقي وعليه دارت قراءة الشاميين (١٤٥)، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر المحدث (١٥٤)، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي البيروتي (١٥٧) كان إمام أهل الشام وعالمهم قيل: إنه أجاب في سبعين ألف مسألة، وصار يُعمل بمذهبه في الشام نحو مائتي سنة وآخر من عمل بمذهبه أحمد بن سليمان بن حذلم قاضي الشام وعمل أهل الأندلس بمذهبه أربعين سنة، ثم تناقص بمذهب الإمام مالك. وكان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام وأمره فيهم أعز من أمر السلطان. وكان مع علمه بارعاً في الكتابة والترسل.

ومن علماء الشام يونس بن ميسرة بن خلبس وثور بن يزيد الكلاعي الحمصي، وكان ثقة في الحديث (١٥٣)، والوليد بن مسلم الدمشقي صاحب الأوزاعي وكانوا يقولون: علم الشام عند إسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم، فأما الوليد فمضى على سنته ميموناً عند أهل العلم متقناً صحيح العلم (١٩٥ أو ١٩٤)، ومن المحدثين الفقهاء في دمشق المطعم بن المقدم الصنعاني وأبو مزند الغنوي وإبراهيم بن جدار العذري ومبشرين إسماعيل الحلبي مولى كلب كان ثقة مأموناً (٢٠٠)، ويحيى بن عمرو السَّيباني من أهل الرملة (وسيبان بفتح السين المهملة بطن من حمير) (١٤٨)، وصعصعة بن سلام الدمشقي المحدث كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس، وصدقة بن عبد الله السمين من كبار محدثي

دمشق (١٦٦)، والهقل بن زياد مفتي الوليد بن مسلم وله تصانيف تبلغ السبعين (١٩٥)، وعبد الله بن أبي زكريا الخزاعي الفقيه كان عمر بن عبد العزيز يكرمه ويجلسه معه على السرير (١١٧)، ونمير بن أوس الأشعري المحدث (١٢١)، وربيعة بن يزيد القصيري من أئمة التابعين (١٢٢)، وإبراهيم بن أبي عبلة من علماء التابعين (١٥٢)، وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان المحدث (١٦٥)، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي الفقيه العالم (١٦٧)، ومحمد بن الوليد الزبيدي كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث (١٤٨)، ويحيى بن حمزة كان كثير الحديث وكان قاضيًا بدمشق (١٨٣)، وبقيّة بن الوليد الحمصي المحدث (١٩٧)، وأسد بن وداعة الطائي الحمصي المحدث (١٣٧).

وحرص المسلمون في الصدر الأول بعد علم الدين على علم الطب، وكان من الأطباء في القرنين الأول والثاني زمرة صالحة مختلفة مذاهبهم منهم الحكم بن أبي الحكم الدمشقي الطبيب وكان أبوه أبو الحكم طبيبًا في صدر الإسلام، وكان أبو الحكم يستطبه معاوية ويعتمد عليه اعتماده على ابن أثال من الأطباء المتميزين بدمشق. ومنهم عيسى بن حكم الدمشقي المشهور بمسيح صاحب الكنائس الكبير، وتياذوق كان في أول دولة بني مروان ومشهورًا عندهم بالطب، ومنهم عبد الملك بن أيجر الكناني كان طبيبًا عالمًا ماهرًا يقيم في أول أمره في الإسكندرية؛ لأنه كان المتولي للتدريس بها بعد الإسكندرانيين، ولما ملك المسلمون الإسكندرية أسلم ابن أيجر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب.

وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب إمام الإنشاء العربي وواضع أساسه وكان عالمًا في كل فن من فنون الأدب (١٣٢) وهو الذي فك قيود الإنشاء وضبط أصوله وكان ختته سالم، ويكنى أبا العلاء أحد الفصحاء

والبلاء. وقد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر نُقل له وأصلح هو، وله رسائل ومجموع نحو مائة ورقة. ومن الكتاب قنان بن متى وابنه قيس وحفيده الحصين ومنهم أسامة بن زيد أبو عيسى الكاتب التنوخي ويقال الكلبي. ومن المشهورين بالبلاغة والخطابة عبد الملك بن صالح الهاشمي نسب إلى منبج، وخالد بن عبد الله القسري الخطيب المفوه (١٢٦)، وأبو السامي وعبد الله بن خدّاش وأبو مسلم الشامي.

ومن الناقلين -أي المترجمين- جبلة بن سالم، وكان ناقلًا من العربي إلى الفارسي، ونقل بعضهم شيئًا من تواريخ الأمم عن الفارسية. ولم يلبث النقل أن صار إلى بغداد بانتقال الخلافة إليها، فانتقل بذلك المترجمون الذين أنبغتهم الشام مثل قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف الطبيب المهندس المترجم المصنف، وكان يحسن العربية والسريانية واليونانية، جيد النقل فصيح اللسان، ومثل أبي عثمان الدمشقي وعبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي المعروف بابن الناعمة، وزروبا بن ماجوه الناعمي الحمصي وكلاهما من النقلة، وهلال بن أبي هلال الحمصي صحيح النقل ولفظه مبتذل وحنين بن إسحاق البغدادي المولد نشأ في الشام وتعلم فيه.

وللشاميين منذ القديم ميل إلى النقل عن الأمم الأخرى، هكذا فعلوا في كل قرن فقد كان الناقلون منهم في القرنين الأول والثاني، وكذلك في القرون التالية إلى يومنا هذا، وهم أقدر الأمم على تعلم اللغات الغربية والتفصح فيها.

وكان أكثر النقل عن السريانية، وهذه نقلت عن العبرانية، وهذه نقلت عن اليونانية، ولذلك تعب فلاسفة المسلمين في حل رموز الفلسفة اليونانية لأنها نقل عن نقل، وذكر أحد المعاصرين من الإفرنج أن كتب

أرسطو كانت تنقل ليفهمها أهل القرون الوسطى من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية ومنها إلى العبرية، ومن هذه إلى اللاتينية وكان التراجمة بادئ بدء لا يدركون فهم المعاني من كتب العرب وينقلونها إلى اللاتينية حرفاً بحرف. وقال ناليو: إن أكثر نقلة القرن الثاني كانوا ضعافاً في العلوم يترجمون بالحرف دون فهم الموضوع وكثيراً ما ترددوا في تعريف المصطلحات العلمية المجهولة عند العرب في ذلك العصر، ومن المعلوم أن طريقة التعريب لم تتقن إلا في القرن الثالث.

العلم والأدب في القرن الثالث

لم يكن للقرن الثالث ما كان للقرن الذي سلفه من النهضة، وتجلي آثار النبوغ والتجدد؛ بل كان كالتئمة لبعض ما سمت له الههم في القرنين الماضيين، وعلى صورة ربما كانت أضعف، زاد التدوين فيه أكثر من ذي قبل، وأخذت بغداد حظها من العلماء الذين قصدوها من القاصية وبقيت الشام بمعزل، راحت العلوم الفلسفية في بغداد أواخر القرن الثاني والثالث وسرى منها شعاع إلى الشام ثم عراها ما ختقها. وممن أفضل على الشام الخليفة المأمون فإنه أنشأ فيها مرصداً فلكتياً عمله له يحيى بن أبي منصور وهو أحد أصحاب الأرصاد المشهورين في أيامه، وكان ذلك في سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة بعد المائتين. وقام في الشام محمد بن عائذ صاحب المغازي والفتوح وغير ذلك من المصنفات (٢٣٣)، وعبد الله بن ذكوان القارئ الحافظ (٢٤٢)، وهشام بن عمار خطيب دمشق وقارئها وفقهها ومحدثها (٢٤٥)، وأحمد بن أبي الحواري من كبار المحدثين والصوفية (٢٤٦)، ومحمود بن سميع صاحب الطبقات وأحد الأثبات الثقات (٢٥٩)، وأبو زرعة الدمشقي النصري عبد الرحمن بن عمرو المحدث صنف كتباً (٢٨١)، وأبو مسهر عبد الأعلى الغساني شيخ دمشق وعالمها كان راوية سعيد بن عبد العزيز التنوخي وغيره من

الشاميين (٢١٨)، وصفوان بن صالح المؤذن المحدث (٢٣٩)، والقاسم بن عثمان الجوعي شيخ دمشق وزاهدها (٢٤٨)، والحافظ زكريا بن يحيى السَّجْزِي المعروف بخياط السنة (٢٨٧)، وعبد الغفار بن عثمان والوليد بن مَزِيد العذري البيروني كان من أهل العلم والرواية، وكان الأوزاعي يقول: فيما عرفت ما حمل عني أصح من كتب الوليد بن مزيد (٢٠٣) وولده أبو الفضل العباس بن الوليد البيروتي كان من أهل العلم والرواية (٢٧٠)، والإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي أحد الأئمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين ومائة وتوفي بمصر سنة (٢٠٤) وهو أول من صنف في أصول الفقه. ومن أعيان العلماء محمد بن عوف الطائي الحمصي (٢٦٩) ذكر عند عبد الله بن أحمد بن حنبل في سنة ٢٧٣ فقال: ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثل محمد بن عوف. وعبد الله بن إسماعيل بن زيد بن صخر البيروتي ومحمد بن عبد الله بن عبد السلام بن أيوب البيروتي وآدم بن أبي إياس العسقلاني من مشايخ البخاري (٢٢١)، وهشام بن الغاز بن ربيعة الجُرْشي الصيداوي (٢٥٦)، وأبو بكر محمد بن بركة القنسريني الحافظ ببرداءس سكن حلب ثم قدم دمشق وحدث بها عن أبي جعفر أحمد بن محمد بن رجاء المصيصي ويوسف بن سعد بن مسلم وهلال بن أبي العلاء الرقي.

ولقب حافظ كان يطلق على من يحفظ ألفاً من الأحاديث بأسانيداً، وكانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد رواية، ويطلقون اسم المحدث على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم المتن والإسناد جميعاً، والفقهاء على من يعرف المتن ولا يعرف الإسناد. وكان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى والمحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب

السنة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية. هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكر وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين.

وممن كان في الشام الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة كان من أهل حرستا من غوطة دمشق. وعثمان بن خُرَزَادِ الأنطاكي المحدث، وأبو الحسن محمد الغساني الصيداوي المعروف بابن جميع الحافظ المحدث، وأبو عبد الله محمد بن علي الصوري الحافظ، وأحمد بن الخليل الحلبي المحدث وأحمد بن المسيب الحلبي المحدث وعبد الله بن إسحاق الصُّفْرَى المحدث ومومل الرملي وأبو توبة الربيع بن نافع ويزيد بن خالد الرملي روى عن الليث بن سعد والمفضل ابن فضالة، وروى عنه أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني وأبو زرعة الرازي وموسى بن سهل الرملي (٢٦٢)، وعبد الله بن محمد بن نصر بن طويط، ويقال: طويث أبو الفضل البزاز الرملي الحافظ. سمع في دمشق هشام بن عمار ودُحَيْمًا وهشام بن خالد بن أحمد بن ذكوان، ووارث بن الفضل العسقلاني، ونوح بن أبي حبيب القومسي.

ومن الشعراء هذا القرن البطين الشاعر الحمصي وعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن من شعراء بني العباس وأصله من سَلَمِيَّة وإدريس بن يزيد النابلسي الأديب الشاعر، وأدهم بن محرز، والعتابي وأبو تمام. واشتهر في هذا القرن بالهندسة أبو بكر البناء المهندس الذي بنى لابن طولون ميناء عكا.

الأدب في القرن الرابع ومضته على عهد سيف الدولة وأبي العلاء المعري

قلّ في القرن الثالث في الشام الشعراء والأدباء، ولم ينبغ فيه إلا رجال في الحديث، والمغازي والفقه، فطلع القرن الرابع وقد ظهر فيه الأدب العربي في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله، ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير، اللهم إلا إذا كان على عهد الأمويين، ولم تبلغنا جميع أخبار شعراء سيف الدولة بن حمدان في حلب، وقد قصده نوابغ الشعراء والأدباء، قال الصفدي: وكانوا يسمون عصر سيف الدولة الطراز المذهب؛ لأن الفضلاء الذين كانوا عنده والشعراء الذين من حوله لم يأت بعدهم مثلهم.

ذكر الثعالبي من شعراء الشام المحدثين العتابي ومنصور النمري والأشجع السلمي ومحمد بن زرعة الدمشقي وربيعة الرقي قال: على أن في الطائيين (أبي تمام والبحثري) اللذين انتهت إليهما الرياسة في هذه الصناعة كفاية وهما هما.

ومن مولدي أهل الشام المعوج الرقي والمريمي والعباس المصيبي وأبو الفتح كشاجم والصنوبري وأبو المعتصم الأنطاكي، وهؤلاء رياض الشعر وحنائق الظرف. ويقال: إنه لم يجتمع بباب أحد الملوك بعد الخلفاء، ما اجتمع بباب سيف الدولة م شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليهما ما ينفق لديها، وكان أدبنا شاعرًا أورد صاحب اليتيمة من شعرائه ومن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم في سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الأيام.

وكان في هذا القرن أكثر الجهابذة والصياغين والصيارفة والدباغين بالشام من اليهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى وانحطت مدن الشام في العلم انحطاطاً كثيراً ومنها حمص. ذكر السيوطي أنه نزلها خلق من الصحابة وانتشر بها الحديث زمن التابعين وإلى أيام خريز بن عثمان وشعيب بن أبي حمزة ثم إسماعيل بن عياش وبقية وأبي المغيرة وأبي اليمان ثم أصحابهم ثم تناقص ذلك في المائة الرابعة وتلاشى ثم عدم بالكلية.

كان أبو فراس الحمداني الذي قال فيه صاحب بُدَيّ الشعر بملك وختم بملك؛ يعنى امرأ القيس وأبا فراس -ابن عم سيف الدولة وأعطاه على بيت واحد ضيعة بمنبج تغل ألف دينار. ولطالما أعطاه وأعطى الشعراء في بابه ولا سيما أبو الطيب المتنبّي عشرات الألوف من الدنانير دع الإقطاعات والضياع، وكان أبو بكر وأبو عثمان الخالدين من خواص شعراء سيف الدولة وكانا على خزانة كتبه كما كان عليها أيضاً السلامي والبيغاء والوأواء. وربما قلّ في الملوك من مُدَح بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى إن كلاً من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن على بن محمد السميساطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت. وكان أبو محمد الفياض كاتباً لسيف الدولة ونديمه معروفاً ببعد المدى في مضمار الأدب وحلبة الكتابة؛ أخذ بطرفي النظم والنثر، وكان سيف الدولة لا يؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحداً؛ لحسن عبارته، وقوة بيانه، ونفاذه في استغراق الأغراض، وتحصيل المراد.

ومن خواص شعراء سيف الدولة أبو العباس أحمد بن محمد النامي وكان عنده تلو المتنبّي في المنزلة والرتبة، ومنهم أبو الفرج عبد الواحد البيغاء من أهل نصيبين ومن شعرائه أو ما قربوا من عصره الخليلج الشامي

والوأواء الدمشقي وأبو طالب الرقي وأبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف بأبي الرقعمق، وأبو القاسم الحسن الواساني الدمشقي، وأحمد بن محمد الطائي الدمشقي، وابن أبي الجوع وابن رشدين وكشاجم (وأقام كشاجم في الرملة كثيرًا فسمي الرملي ٣٦٠) والصنوبري وأبو الفتح البكتمري وأبو الفرج العجلي وأبو حصين الرقي وأبو الفرج سلامة بن بحر. ومن علماء الأدب واللغة ابن خالويه وابن جني. ومن الشعراء أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها. وكان جعفر بن ورقاء الشيباني (٣٥٢) من بيت إمرة وتقدم وآداب، وكان المقتدر يعجبه مجرى بني حمدان وتقلد عدة ولايات، وكان شاعرًا كاتبًا جيد البديهة والروية، ومن الشعراء منصور وأحمد ابنا كَيْغَلْغ وأبو علي أحمد بن نصر بن الحسين البازيار وأبو زهير المهلهل نصر بن حمدان والمغمم المصري، واسمه أبو الحسن محمد الشعباني وأبو عبد الله محمد بن الحسين وأبو نصر بن نباتة التميمي والشيظمي وأبو العباس الصُّفْرَى وأبو العباس الناشئ وأبو نصر البنص، وأبو القاسم الرقي المنجم الفلكي وعبد العزيز بن نباتة السعدي كان شاعرًا مجيدًا وله في سيف الدولة غرر القصائد (٤٠٥)، ومن شعراء القرن الرابع الحسين بن عبد الله بن أبي حصينة المعري (٣٢٧)، وممن اجتمع بسيف الدولة وجالسه مدة ثم جاء معه إلى دمشق فتوفي فيها المعلم الثاني حكيم الإسلام أبو نصر محمد الفارابي صاحب التآليف الممتعة في الحكمة (٣٣٩).

وأهم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري التنوخي حكيم العرب وأديبهم، وقد كانت المعرفة في أيامه كعبة القصاد، من طلاب الآداب، جذبهم إليها أبو العلاء، فجعل بلده دار حكمة وأدب، كما جعل سيف الدولة في القرن الذي قبله مدينة حلب مجمع الأدباء

والشعراء بإحسانه ومشاركته. أحسن نابغة الشام أبو العلاء المعري إلى الآداب العربية أي إحسان، وهو من بيت أدب وفضيلة، كان أبوه عبد الله بن سليمان لغويًا شاعرًا، وأخوه الأكبر محمد بن عبد الله وأخوه الثاني عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين، وكان الشعر والآداب متسلسلاً فيهم من بطون كما تسلسل في بيتهم القضاء مدة مائتي سنة. ومن شيوخ أبي العلاء أبو بكر محمد بن مسعود النحوي، ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوي الحلبي، ومن تلامذته أبو غالب همام بن الفضل بن المهذب صاحب التاريخ المشهور، وأبو يعلى عبد الباقي بن أبي الحصين، وأبو محمد عبد الله الخفاجي، ورشاً بن نظيف بن ما شاء الله المقري، وهذا كان أول من أنشأ في دمشق داراً للقرآن في حدود سنة (٤٤٤)، والخطيب التبريزي، والحسن بن علي بن همام والأمير أبو الفتح بن أبي حصينة وعشرات غيرهم من أهل المعرفة وكفر طاب وحلب ودمشق وحمص وحماة وطرابلس والرقّة وهكار والمصيصة وبغداد وتبريز والأندلس إلى غيرهم من التنوخيين أهل بيته، وكان أكثر هؤلاء يقول الشعر الجيد حتى أصبح ذلك من اختصاصهم. وممن صحب أبا العلاء المعري وأخذ عنه كثيرًا علي بن القاضي التنوخي كان من أهل بيت كلهم فضلاء أدباء ظرفاء. ومما يستدل به على انتشار الآداب في هذا العصر وتغالي الناس في الشعر والآداب ما قيل من أن سبعين شاعرًا رثوا المعري على قبره يوم مات، فما بالك بسائر شعراء الشام على ذاك العهد.

وقام في هذا القرن من العلماء إبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكي مقرئ أهل الشام (٣٣٨)، ومن المحدثين عمر بن علي العتكي الأنطاكي الخطيب الحافظ صاحب كتاب المقبول، وعبد الوهاب الكلابي المحدث (٣٩٦)، ومحمد ابن عبيد الله يعرف بابن أبي الفضل أبو الحسن الكلاعي الحمصي المحدث (٣٠٩)، وأبو الدحداح أحمد بن محمد بن إسماعيلي

التميمي محدث دمشق كان يسكن في ريف باب الفناديس في طرف العقبة (٣٢٨). قال القاسمي وإليه تنسب مقبره الدحداح ، وعمر بن حسن الخرقى الحنبلي الدمشقي صاحب التصانيف العديدة، وأحمد بن شرام الغساني أحد النحاة المشهورين بالشام (٣٨٧)، ومحمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي الجغرافي الرحالة صاحب كتاب أحسن التقاسيم المطبوع، وأبو مسهر البيروتي المعروف بمكحول الحافظ الثقة الثبت المشهور (٣٢١)، وأبو طاهر بن ذكوان البلعكي المؤدب (٣٥٩)، والمنجم الصابي البلعكي وأبو القاسم علي بن أحمد الأنطاكي كان رياضياً مهندساً وله تصانيف جليلة، وكان مشاركاً في علوم الأوائل (٣٧٦)، وإبراهيم الأزدي العجلي الأنطاكي الفقيه المقرئ (٣٣٨)، ومحمد بن جعفر صاحب التصانيف المشهورة كاعتلال القلوب وغيره توفي في يافا (٣٢٧)، ومحمد التميمي المقدسي والحافظ أحمد بن عمير مولى بني هاشم شيخ الشام في وقته رحل وصنف وذاكر وحدث (٣٢٠)، وأبو الحسين كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاوي وعيسى الرقي المنجم الطبيب، وكلاهما من أطباء سيف الدولة. وكان عيسى ينقل من السريانية إلى العربية ويأخذ أربعة أرزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين. وعبد الله بن عطية المقرئ الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن واللغة (٣٨٣)، وعبد الرحيم بن نباتة الفارقي صاحب الخطيب المشهورة كان خطيب حلب وبها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة (٣٧٤)، وقام في حلب أربعة من الشعراء المعدودين؛ وهم أبو الحسن المستهام الحلبي وأبو محمد الماهر الحلبي وابن الفتح الموازني الحلبي وأبو الفرج بن أبي حصين القاضي الحلبي. ومن الشعراء الشاميين أبو الجود الرسعي واسمه محمد بن أحمد وأبو مسكين البردعي شاعر محدث يتنقل في البلدان وكان مجوداً،

والخليع الرقي واسمه محمد بن أبي الغمر القرشي. ومن المهندسين الرياضيين المجتبي الأنطاكي (٣٧٦) وديونيسيوس بطريك اليعاقبة له تاريخ. وقيس الماروني له كتاب حسن في التاريخ.

الآداب في القرن الخامس

امتاز القرن الخامس بأن نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عُتوا بالفلك والعلم الطبيعي والرياضي والطب، كما امتاز بأن نبغ فيه في الأقطار العربية الأخرى من الفلاسفة أمثال ابن رشد وابن سينا والبيروني والغزالي والرازي ممن هم فخر العرب على تعاقب الحقب. وقد انتقلت من كتبهم وأفكارهم أشياء كثيرة إلى الشام. ويصح أن يقال: إن العلم اقتراب من العلوم المادية في هذا الدور، ذهبت عن الناس الدهشة بالفصاحة والشعر ونقل الأحاديث والعناية بالدين، وتم تدوين أقوال أرباب المذاهب والشعراء فانصرفت العناية إلى علوم الدنيا. وممن نشأ في هذه الديار أبو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والتقسيمات والهندسة وعلم الهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب وله عدة تأليف (٥٠٠)، ومحمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم والهندسة والهيئة وعلم المساحة والميقات والفلك (٥٠٠)، ورضوان الخراساني الرياضي، ومحمد بن عبد الواحد المهندس صنف كتابًا في ركاية الزوال بدمشق ومعرفة طلوع الفجر بالمنازل القمر (٤٠٩)، وجورجس بن يوحنا البيرودي العالم بالطب وله عدة رسائل ومقالات. ومن المؤرخين حمزة بن أسد أبو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي العميد صنف تاريخًا للحوادث بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى حين وفاته، وقد طبع باسم ذيل تاريخ دمشق. ومبارك ابن شرارة أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبي النصراني كان له جرائد مشهورة بحلب عند أهلها يحفظونها لأجل الخراج المستقر على الضياع إذا اختلف النواب في شيء

من هذا النوع رجعوا إليها وله تاريخ حلب توفي في حدود سنة (٤٩٠) في صور. ومن الحفاظ محمد بن علي الصوري الحافظ قالوا: كان يذكر بمائتي ألف حديث. قال غيث: سمعت جماعة يقولون: ما رأينا أحفظ منه (٤٤١)، والحافظ محمد بن جميع الغساني الصيداني ويقال له: الصيداي (٤٠٢)، وعبد الواحد الشيرازي المقدسي الأنصاري شيخ الشام في وقته نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل أقام بدمشق وله تصانيف (٤٨٦)، وسلامة بن إسماعيل ابن جماعة المقدسي الضرير كان كثير الحفظ ألف تأليف (٤٨٠)، والحسن ابن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني صاحب الخطب البديعية مشهور بنثره (٤٨٢).

ومن الكتاب والخطباء صاعد بن شمامة المسيحي الحلبي الكاتب، وأبو اليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني كان صاحب الديوان بحلب، وتادرس بن الحسن النصراني؛ كان وزير صالح بن مرداس، وعبد الله بن أسعد فقيه حمص يعرف بابن الدهان، وعبد العزيز بن أحمد الكناني الدمشقي الصوفي المحدث (٤٦٦)، نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي عالم الشام له عدة تصانيف درس العلم ببيت المقدس مدة ثم أتى صور ثم جاء دمشق (٤٩٠)، علي بن داود الداراني الخطيب (٤٠٢) وهو الذي طلع إلى داريا كبراء دمشق لما مات خطيب جامعهم وطلبوه ليكون خطيب جامعهم فوثب أهل داريا بالسلاح وقالوا: لا نعطيكم خطيبنا فقال رئيسهم: أما ترضون يا أهل داريا أن تسمع الناس في البلاد أن أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام. ومن مشاهيره الحسين بن علي بن شواش الكناني المقرئ (٤٩٧) والحسين بن علي بن إبراهيم الأهوازي شيخ القراء بدمشق (٤٤٦)، والخطيب أبو نصر بن طلاب مسند دمشق (٤٧٠)، وأبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي الواعظ العالم (٤٥٦). ومن الشعراء عبد المحسن الصوري الشاعر (٤١٨)، وأبو الفتيان

بن حيوس الحلبي الشاعر، ومحمد بن سنان الحلبي الشاعر، وأبو مشكور الحلبي الشاعر، وأحمد بن فضالة الدمشقي شاعر، وعلي بن منصور الحلبي الملقب دوخلة يعرف بابن القارح من شيوخ الأدب راوية للأخبار كتب لأبي العلاء المعري رسالته المشهورة، فأجابه عنها برسالة الغفران، وكلا الرسالتين مطبوع.

ومما يذكر في هذا القرن أن القاضي جلال الملك بن عمار جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة، وذلك في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة لتكون مركزاً من مراكز التشيع، فنشرت العلوم والآداب وأصبحت طرابلس مباءة علم ودرس ومباراة في التعلم وجهاز هذه الجامعة الدينية بمائة ألف مجلد، وربما كانت على عهده قبل استيلاء الصليبيين عليها أول بلدة علمية في الشام على ما رأى فان برشم.

العلم والأدب في القرن السادس

دخل القرن السادس وعلى كثرة ما كان فيه من الفتن نشأ للأمة علماء خدموا العلم في فنون مختلفة، وكانت بالشعر أقل من عصر سيف الدولة وعصر أبي العلاء المعري، وإن كان نور الدين وصلاح الدين وأسرتهما ممن يجيزون عليه ويعجبون ويترنمون بسماعه، وكان من أهل بيت صلاح الدين الشعراء المفلقون، ومما غني به نور الدين محمود بن زنكي أنه كان يجلب العلماء من القاصية ويسكنهم بالشام مثل قطب الدين النيسابوري وشرف الدين بن أبي عصرون، يبنى لهم المدارس ويغدق عليهم وعلى مريديهم أنواع الإحسان ويدر عليهم الرواتب. وقد أحصى فقهاء مدارس دمشق في عهد صلاح الدين فكانوا ستمائة فقيه، كان يعطيهم من صدقاته. ومن كتاب للقاضي الفاضل لصلاح الدين: ومما يجب أن يعلم المولى أن

أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار.

وأزهرت في هذا القرن مدرسة اليعاقبة في طرابلس، ومنها نشأ أبو الفرج ابن العبري صاحب التاريخ المطبوع. وتعلم كثير من المحاربين والقواد والأمراء من الصليبيين اللغة العربية في الشام. في تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها: أما بشأن اللغة (أي في عهد الصليبيين) فقد حدث ما يحدث في مثل هذه الأحوال على صورة مطردة؛ وهو أن لغة الأكثر تمدناً أثر أهلها في غيرهم. وكان أكثر الأمم تمدناً بلا مرء الشرقيون ولا سيما العرب واليونان. وقد تعلم قليل جداً من العرب والترك والفرس لغة الإفرنج ما عدا بعض الترجمة الرسميين.

وعلى العكس تعلم كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقيب وصولهم إلى فلسطين. إلى أن قال: ولا ريب أن مجاورة التمدن الإسلامي قد ساعدت على زيادة النفوذ الذي كان العلم العربي والفنون العربية تؤثرها فينا منذ زمن طويل. ومعلوم ما تدين به لهذا التأثير كل من الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء حتى فن الطبخ فقد أخذنا عن العرب أشياء كثيرة من مثل طريقة الأرقام وشروح أرسطو حتى حمام الزاجل والشعار Armoiries وأدوات الموسيقى والأزياء والثياب والزهور والبقول.

وبعد فإذ حدث أحياناً أن الأشياء التي نقلت لم تكن تسمى إلا بأسماء المدينة الشرقية التي أخذت منها مثل ثوم عسقلان وثياب دمشق، فإن غيرها قد احتفظت بأسمائها العربية مع بعض التحريف وهي كثيرة ويتألف منها في الفرنسية مجموع كبير في الجملة اهـ.

ونبغ في هذا القرن أبو المجد محمد بن أبي الحكم، وكان طبيباً مهندساً فلكياً (٥٧٠)، وأبو زكريا يحيى البياسي من أطباء صلاح الدين وعمل لابن النقاش وهو علي بن عيسى بن هبة الله أستاذه في الطب آلات كثيرة تتعلق بالهندسة وكان يعرف النجارة، وابن النقاش هذا كان أوحده زمانه في صناعة الطب وله مجلس عام للمشتغلين عليه، وكان يعالج أيضاً كتابة الإنشاء (٥٧٤)، وأبو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالحكيم وهو عالم بالحكمة والطب والأدب والهندسة (٥٤٩)^(١)، وعمر بن علي بن البذوخ الدمشقي عالم بالطب شاعر له تأليف (٥٧٦) وابن الصلاح عالم بالحكمة متميز بالطب مليح التصنيف (٥٤٠)، وموفق الدين بن المطران عالم بالطب والفلسفة متعين في الفنون الأدبية له عدة مصنفات (٥٨٧)، وقد نعى على أهل زمانه فتورهم وزهدهم في العلوم وقلة مضائهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بتفاهم الخطب في هذا الشأن.

وأبو الفضل عبد الكريم الحارثي الدمشقي وهو مهندس طبيب نجار نحات هندس أكثر أبواب المستشفى النوري الكبير، اشتغل بالأدب وعلم النجوم والحديث له عدة مصنفات (٥٩٩) وهو الذي أصلح الساعات التي لجامع دمشق، وعلى بن عبد الباقي بن أبي جرادة العقيلي الأنطاكي الحلبي عالم بالأدب واللغة والحساب والنجوم والفلسفة مات سنة نيف وأربعين وخمسمائة، زين الدين علي بن غانم الأنصاري الدمشقي المعروف بابن منجه الحلبي كان من أغنياء أهل العلم وله رأي صائب، وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص، ومحمد بن طاهر المقدسي ذو الرحلة الواسعة والتصانيف والتعاليق (٥٠٧)، والحافظ أبو القاسم علي

(١) قال العماد في الخريدة: إن أبا الحكم كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون جملاً المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم.

بن عساكر محدث الشام ومؤرخها ومن أعيان فقهاؤها صاحب تاريخ دمشق المشهور (٥٧١)، وكتابه من أعظم المفاهر في التاريخ معدن أدب وركاز علم، وحمزة بن أسد أبو يعلي التميمي الدمشقي العميد بن القلانسي الكاتب صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق المطبوع، تولى رئاسة دمشق وجمع بين كتابة الإنشاء وكتابة الحساب توفي في عشر التسعين وأربعمائة، وتوفيق بن محمد المهندس المنجم الأديب الدمشقي وله تصانيف (٥١٦)، وأبو البيان محمد بن محفوظ القرشي له عدة تصانيف (٥٠١)، ومخلص الدين أبو البركات عبد القاهر بن أبي جرادة الحلبي كان أميناً على خزائن نور الدين، وكان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، وعبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل الكاتب العالم صاحب الرسائل والتصانيف الجيدة، ومحيي الدين بن الزكي الفقيه الخطيب (٥٩٨)، وعماد الدين الأصفهاني العالم الكاتب الشاعر صاحب التصانيف ومنها الفتح القدسي المطبوع (٥٩٧)، ومحمد الشهرزوري الدمشقي الفقيه الأديب الشاعر الكاتب (٥٧٢)، وعبد الله بن أبي عصرون الفقيه له عدة مصنفات (٥٨٥)، وعلي بن جعفر البلخي الدمشقي من أئمة الحنفية (٥٤٨)، وسليم بن أيوب أحد أوعية العلم صنف الكثير في التفسير والحديث والفقه والعربية نشر العلم في صور (٥٤٧)، والحافظ محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني المقدسي كان جوالاً في الآفاق يجمع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف وله تصانيف كثيرة (٥٦٧)، وبهاء الدين بن شداد قاضي العسكر في زمن صلاح الدين يوسف الفقيه الكاتب المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع في سيرة صلاح الدين نشأ في حلب وعظم في أيامه شأن الفقهاء لعظم قدره وارتفاع منزلته، ومجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهيل الحلبي والد بني جهيل الفقهاء الدمشقيين كان إماماً في الفقه والحساب والفرائض، ومحمد بن خضر

المعري شاعر، وتقي الدين عبد الغني الجماعيلي له عدة مصنفات في الرجال (٦٠٠)، والحسين الأسدي مسند دمشق (٥٥١)، وقطب الدين النيسابوري العالم الفقيه (٥٧٨)، والحسن بن هبة الله بن صصري التغلبي المحدث (٥٨٦)، وتاج الدين الخراساني الفقيه الصوفي (٥٨٤)، وتقية بنت غيث الأرمنازي السوري الشاعرة الأدبية ولها شعر سائر (٥٧٩)، وعلي بن الموازني مسند دمشق (٥١٤)، وأبو طاهر بركات الخشوعي المحدث امتاز بالسماع (٥٩٨)، وموسى البلاغشاني الفقيه (٥٠٦)، وعلي بن إبراهيم الحسيني الخطيب (٥٠٨)، وهبة الله بن أحمد الأكفاني الأمين المحدث (٥٢٤)، وعلي بن مسلم السلمي الدمشقي الفقيه (٥٣٢)، ونصر الله بن محمد المصيصي الدمشقي العالم (٥٤٢).

ومن الشعراء والأدباء أحمد بن الخياط الدمشقي الشاعر الكاتب الأديب (٥١٧)، وأحمد بن منير الطرابلسي الشاعر الهجاء الوصاف المشهور (٥٤٨)، وطراد بن علي المعروف بالبديع كاتب شاعر (٥٢٤)، وأبو الوحش الشاعر وعبد القاهر بن عبد الله الوأواء الشاعر الأديب (٥٥١) طبع ديوانه، وعرقلة الدمشقي النديم الخليع الشاعر ومحمد بن حرب النحوي الأديب (٥٨٠)، والحسين ابن رواحة الأنصاري الحموي الفقيه الأديب الشاعر (٥٨٥)، ومسلم بن خضر ابن قسم الحموي الشاعر، والحسن بن أبي الحسن صافي النحوي المعروف بملك النحاة له مصنفات في الفقه والأصلين والنحو وله ديوان شعر (٥٦٨)، وحسان بن نمير العقيلي الدمشقي الشاعر (٥٦٧)، وعلوي بن عبد الله بن عبيد الشاعر الحلبي المعروف بالباز الأشهب الأديب المتفنن (٥٩٦)، وأسامة بن منقذ صاحب كتابي الاعتبار ولباب الآداب، وكلاهما مطبوع شاعر كاتب، وزرعة بن موسى أبو العلاء الطبراني النصراني كاتب الأمراء بني منقذ كان معاصراً لعبد الله بن محمد بن سنان شاعر.

وقد جاء حلب الشهاب السهروردي في عهد ملكها الظاهر غازي وهو فيلسوف قتله صلاح الدين بدسائس الفقهاء قتل بقتله الحكمة، وهي صناعة الصنائع حتى إن سيف الدين الأمدى الفيلسوف النظار الكبير في القرن التالي لم يجرؤ أن يقرئ أحدًا شيئًا من العلوم الحكمة، وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا تقرأ إلا أشياء قليلة منها وقل النابغون والمشتغلون بها، ولم نقف على حياة فيلسوف نشأ للشام من بين جميع من قام فيها من الأعلام، ولم ينشأ من الأفراد أمثال قطب الدين النيسابوري والشهاب السهروردي وسيف الدين الأمدى، ولقد أبان رنان كيف أن الفكر الديني لسوء حظ الإسلام تغلب بعد جدال طويل فخنق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التي جعلت المدنية العربية بتأثيرات الفارسية واليونانية والنسطورية واليهودية ردحًا من الدهر، وارثة المدنية اليونانية، قال: وأوربا مدينة لمدنية العرب ببقايا العلم الذي قطفت ثماره في القرون الوسطى.

العلم والأدب في القرن السابع

لما خرب التتر بغداد سنة (٦٥٦) انتقلت الحركة الأدبية بحكم الطبيعة إلى الشام ومصر ولم تكن انقطعت منها كل الانقطاع من قبل، فهاجر كثير من العلماء من عاصمة العراق إلى دمشق والقاهرة. وفي هذا القرن تعينت المسالك العلمية وكثر الإخصائيون وتنوعت العلوم وتوفر المشتغلون بها وأنبع الشام طبقة عالية عُدت تأليفهم من الأمهات في خزانة كتب الأمة العربية، ومرجعًا ثقة للأخلاف اقتبسوها من أعمال الأسلاف، فمن المؤرخين عمر بن أبي جرادة الحلبي العقيلي المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب (٦٦٠) وهو كمال الدين عمر بن الصاحب السعيد قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن الصاحب السعيد قاضي قضاة جمال الدين أبي غانم هبة الله بن قاضي القضاة مجد الدين أبي عبد

الله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين أبي الفضل هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة، بيت تسلسل فيه العلم خمسة بطون كانوا أجداد كمال الدين عمر أكرم به من بيت فضيلة وعلم. ومن مفاخر هذا القرن بحلب علي بن يوسف القفطي المعروف بالقاضي الأكرم أحد الكتاب المشهورين المبرزين في النظم والنثر، وله تأليف أكثرها في التاريخ والأدب (٦٤٦) وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، ومن كتبه المطبوعة مختصر تاريخ الحكماء، وياقوت الرومي الحموي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء والمشارك وغيرها من الكتب الممتعة المنقحة المطبوعة (٦٢٦)، وفي حماة إبراهيم بن أبي الدم صاحب التاريخ الكبير المظفري في الملة الإسلامية (٦٤٢) وقام فيها عبد الرحيم البارزي قاضي حماة وابن قاضيها وأبو قاضيها. وفي حماة أيضاً علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (٦٤٢) والقاضي جمال الدين بن واصل (٦٩٧) كان إماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والأصول والهيئة ألف تاريخاً في أخبار بني أيوب وله عدة مصنفات منها الإنبرورية في المنطق صنعها للإنبرور ملك الإفرنج صاحب صقلية وانبولية وأنكبدة لما توجه إليه رسولاً في أيام الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩). ونبغ من المهندسين إبراهيم بن غنائم المهندس باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق، واسمه لا يزال منقوشاً على يسار الداخل إليها في زاوية المدخل، وهو الذي هندس القصر الأبلق الذي قامت التكية السليمانية في القرن العاشر على أنقاضه، ونبغ في حماة الملك المنصور محمد بن الملك المظفر بن أيوب خلف عدة مصنفات منها المضممار في التاريخ وطبقات الشعراء، وكان في خدمته قريب مائتي متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك. وجاء الناصر داود ابن

الملك المعظم وكان شاعرًا أديبًا وفي أيامه راجت الفلسفة وأمن المشتغلون بها على أرواحهم، وجاء الأئمة بهرام شاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان شاعرًا رقيقًا وله ديوان (٦٢٨)، ونبغ في دمشق أحمد بن خلكان قاضي قضاتها الفقيه المؤرخ المدقق وصاحب وفيات الأعيان المنقح المطبوع (٦٨١)، وأحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب مؤلف طبقات الأطباء المطبوع (٦٦٨)، وعبد الرحمن أبو شامة له عدة تصانيف في التاريخ وغيره (٦٦٥) ومنها تاريخ الروضتين وذيله والأول مطبوع، ويوسف بن قزاوغي سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان في التاريخ، المطبوع منه الجزء الثامن وهو الأخير، أقام زمانًا في دمشق (٦٥٤)، وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب والشعر وله عدة كتب منها عشرة دواوين من منظوم الكلام ومطلقة في مدح صلاح الدين لم يصلنا منها إلا المديجات. ومن النوابغ في دمشق عز الدين الإربلي الفيلسوف الضريع كان بارعًا في الفنون الأدبية رأسًا في علوم الأوائل يقرئ المسلمين وأهل الكتاب والفلاسفة (٦٦٠)، وعاش في دمشق أيضًا حكيمان عظيمان من حكماء الإسلام وماتا فيها هما سيف الدين علي الثعلبي الأمدي سيد العلماء وأزكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكيمة والمذاهب الشرعية والمبادئ المنطقية أقام سنين كثيرة في حماة مستترًا ممن كانوا تحاملوا عليه ونسبوه إلى الانحلال. وقد صنف في أصول الفقه وأصول الدين والمعقولات عدة مصنفات طبع له كتاب الإحكام ومات في دمشق سنة (٦٣١)، والثاني الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الأندلس الدمشقي صاحب المذهب المشهور في التصوف وله عدة مصنفات في الأخلاق وكلام القول منها الفتوحات المكية وفصوص الحكم المطبوعان (٦٣٨)، ونبغ في دمشق شمس الدين الخوي العالم في الحكمة والشرع والطب وغيره وله تأليف (٦٣٧)، ورفيع الدين الجيلي عالم بالعلوم

الحكومية وأصول الدين والفقه والعلم الطبيعي والطب، وله تأليف (٦٤١)، وإسماعيل بن عبد الكريم المعروف بابن العلم كان شيخ الحنفية في وقته وشرف الدين بن الرحبي الطبيب الشاعر الأديب له تأليف (٦٦٧)، وأخوه جمال الدين بن الرحبي الطبيب العالم ورشيد الدين الصوري طبيب متفنن في علوم كثيرة وله عدة تصانيف في الطب، ومهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري طبيب متميز في العلوم الحكومية وأديب له من الكتب شرح التوراة (٦٢٤)، والصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال عالم بالطب له فيه مصنف لم يوضع مثله (٦٤٣)، ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي ويعرف بالدخوار عالم بالطب، وهو صاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخوارية بدمشق، ونجم الدين يحيى بن اللبودي عالم في الحكمة والهندسة والعدد صاحب المدرسة الطبية المنسوبة إليه في دمشق وصاحب دار الهندسة أيضًا، ألف وله ثلاث عشرة سنة في الرد على عبد اللطيف البغدادي وله عدة مصنفات (٦٢١)، وعلاء الدين علي بن أبي الحزم بن النفيس الدمشقي صاحب التصانيف الكثيرة كانت تصانيفه يملئها من حفظه وكان مشارًا إليه في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق. وشمس الدين بن المؤيد العُرضي الدمشقي من الحكماء الذين كانوا بدمشق ودعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد، وكان العُرضي وابنه محمد من علماء الفلك، وتولى مؤيد الدين الأرصاد في مرصد مراغة وقد وضع محمد كرة لا تزال محفوظة في متحف درسدن في ألمانيا، وعثمان بن الصلاح المضروب به المثل في كل فن (٦٤٣)، وعلي بن محمود الإشكري المنجم له يد طولى في علم الفلك وحل التقاويم شاعر خطاط (٦٨٠)، وبدر الدين ابن قاضي بعلبك عالم بالطب وعلوم الأدب له تصانيف طبية (٦٥٠)، ونجم الدين ابن المنفاخ ويعرف بابن العالمية، وكانت أمه عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهمين اللوز طبيب عالم بالحكمة والمنطق والأدب له مؤلفات (٦٥٢)، عز الدين ابن

السويدي الدمشقي عالم بالطب والأدب شاعر مجيد. يعقوب السامري عالم بالطب وعلوم الحكمة له عدة مصنفات (٦٨١)، وعلي بن خليفة بن أبي أصيبعة عالم بالطب والعربية وله كتب في الطب وغيره (٦١٦)، وعبد العزيز بن رفيع الدين كان متميزاً في الحكمة والطبيعى والطب وأصول الدين والفقه والخسرو شاهي من أصحاب التصانيف الجليلة في المنطق والحكمة، ومن تلاميذ فخر الدين الرازي وعفيف الدين التلمساني الدمشقي أديب له في كل علم مصنف (٦٩٠)، وعبد الرحمن بن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ أبي القاسم صاحب تاريخ دمشق كان فقيه وقته (٦٢٠)، وأحمد ابن وهبة الله بن عساكر مسند دمشق (٦٩٩)، وكريمة بنت عبد الوهاب بن علي مسند الشام أم الفضل القرشية الزبيرية وتعرف ببنت الحقبوق (٦٤١)، وفاطمة بنت أحمد بن السلطان صلاح الدين المحدث (٦٧٨)، وفاطمة بنت عساكر محدثة (٦٨٣)، وست العرب بنت يحيى بن قايماز أم الخير الدمشقية الكندية المحدث، وست الكتبة بنت الطراح المحدث وزينب بنت علي بن أحمد بن فضل الصالحية محدثة، وعائشة ابنة عيسى بن الشيخ الموفق المقدسي المحدث (٦٩٧)، وعلي بن داود القحفازي شيخ أهل دمشق وخصوصاً في العربية، وعبد الوهاب ابن سحنون طبيب وله شعر وأدب وفقه (٦٩٤)، وزيد بن الحسين الكندي علامة في فنون الآداب مفضن عُرف بعلو السماع (٦١٣)، وعلم الدين السخاوي المقرئ النحوي الأديب الفقيه له تصانيف (٦٥٧)، وإبراهيم بن أحمد بن فارس التميمي شيخ القراء بدمشق (٦٧٦)، والقاسم بن أحمد المرسى اللورقي شيخ القراء والمتكلمين (٦٦١)، وعبد الكريم بن الحرستاني خطيب الشام (٦٦٢)، وعبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي شيخ الإسلام له تصانيف (٦٦٠)، والحافظ شمس الدين محمد بن جعوان الحافظ النحوي (٦٨٢)، ورشيد الدين الربيعي مفسر لغوي كاتب (٦٨٧)، ومحمد بن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب

والفرائض (٦٩٣)، وجاء من المحدثين موسى بن عبد القادر الجيلي مسند دمشق (٦١٨)، والحافظ تقي الدين إسماعيل بن عبد الله الأنطاقي المحدث (٦١٩)، ومكرم بن محمد بن أبي الصقر القرشي المسند الفقيه (٦٣٥)، وإسماعيل بن أبي اليسر التنوخي مسند الشام (٦٧٦)، وعبد العظيم وهو عبد الرحمن المعروف بالمسجف (٦٣٥)، والقاسم بن أبي بكر الإربلي المقرئ المحدث (٦٨٠)، ومحمد بن علي ابن الصابوني المحدث (٦٨٠).

وجاء من العلماء في الشام عبد الله الجماعيلي الإمام في الخلاف والفرائض والأصول والفقه والنحو والحساب والنجوم والمنازل (٦٢٠)، ويعقوب بن صقلانت المقدسي قرأ الحكمة على الفيلسوف الأنطاكي وعرف بها (٦٢٦)، ونجم الدين النخجواني كانت له عارضة قوية في علوم الأوائل ونفيس الدولة بن طليب الدمشقي وولده صفى الدين النصراني الملكي ومحمد بن القيسراني الدمشقي عالم بالأدب والهيئة (٦٣٠)، وأبو الفضل بن يامين الحلبي عالم بالرياضيات وعلم حل الزيج وتسيير الموالي (٦٠٤)، وأحمد بن هبة الله المعروف بابن الجبراني الحلبي النحوي اللغوي وعبد الله اليونيني المحدث، ونجم الدين القمراوي عالم بالحكمة والشرعية، وشرف الدين المتاني عالم بالحكمة والشرعية وهما اللذان ذهبا إلى الموصل مختفين ليلقيا الفيلسوف الأكبر كمال الدين بن يونس وحلا لغزه في الحكمة، وكان عجز العلماء عن حله، فسألهما عن موطنهما فقالا: الشام فقال: من أي موضع منه؟ قال: من حوران فقال: لا أشك أن أحدكما النجم القمراوي والآخر الشرف المتاني. وفي هذا دليل على شهرتهما في العلوم الحكمية والدينية. وقمر مزرعة يقال لها: قميرة اليوم ومتان قرية صغيرة وهما من قرى صرخد في جبل حوران.

وكانت بعض المدن عامرة بالعلماء مثل قنسرين التي خربت في القرن الرابع وكفر طاب التي خربت في أواخر الخامس. قال ابن العديم: كانت كفر طاب مشحونة بأهل العلم وكان بها من يقرأ الأدب ويشتغل به. وهاتان المدينتان أصبحتا الآن قريتين حقيرتين، وكان في قرى غوطة دمشق علماء وفقهاء ويختلف إليها علماء دمشق يدرسون فيها فمن جملة تأليف الحافظ ابن عساكر كتب في روايات أهل داريا وكفر سوسة وصنعاء دمشق والربرة والنيرب ومن حدث بهما وأهل الحميريين وقيبة وفذايا وبيت أرانس وبيت قوفا والبلاط وبيت سوا ودومة ومسرابة وحرستا وكفر بطنا ودقانية وحجيرة وعين ثرماء وجديا وطرميس وبيت لهيا وبرزة. ومن هذه القرى ما دثر الآن، وذكر المحدثين من أهل مَين وأهل بعلبك مما دلّ على العناية بالحديث في القرن السادس.

ومحمد بن مياس الغُرمانى الشاعر الأديب وموسى القمراوى الفقيه الأديب المناظر (٦٢٥)، ومسعود بن أبي الفضل النقاش الحلبي الشاعر والتاج الصرخدي محمود بن عدي التميمي الشاعر المحسن (٦٧٤)، والرشيد البصروي سعيد بن علي أحد أئمة المذهب الحنفي النحوي الشاعر (٦٨٤)، وعلي بن بلبان الكركي (٦٨٤)، والفخر البعلبكي عبد الرحمن الحنبلي الفقيه المحدث (٦٨٧)، وعبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة قال الصفدي: لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح وبرع في الفقه وحدث كثيرا (٦٦٢)، ونبغ في حماة ابن بركات له تأليف في التاريخ، وأبو بكر بن الخيثمي الحموي كان إماما في الأدب ومحمد بن المظفر بن أبي بكران الحموي عالم الأئمة الفقيه المحدث، وعبد العزيز بن حجة الحموي الشاعر الأديب، وأبو المحاسن محمد بن نصر بن غُنين الدمشقي الشاعر (٦٣٢)، ومحمد بن أبي الفضل الدُولعي الفقيه الخطيب الدمشقي (٦٣٥)،

ومحمد شمس الدين الأنصاري الكاتب بدمشق (٦٥٠)، ومحمد بن العفيف التلمساني الشاعر (٦٨٨)، ومحمد بن سوار ابن إسرائيل شاعر (٦٧٧)، ومحمد بن عبد المنعم التنوخي شاعر (٦٦٩)، وابن الساعاتي الشاعر الدمشقي صاحب الديوان المطبوع (٦٠٤)، وفتيان الشاغوري الدمشقي الشاعر المبدع (٦١٥)، وتقي الدين اليلداني المحدث (٦٥٥)، وعلي بن عمر المشد شاعر (٦٥٦)، وأبو المحاسن الشاعر الحلبي (٦٣٥)، ومحمد بن أبي اليسر التنوخي الدمشقي الكاتب الشاعر (٦٦٩)، وعبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري البصري الدمشقي إمام فقيه ناظم نثر له تصانيف جيدة (٦٩٠)، وحمد ابن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣)، وعبد العزيز السلمي الفقيه المجتهد له تصانيف (٦٦٠)، وعبد الرحمن بن نجم الحنبلي الواعظ الفقيه (٦٣٤)، ومحمد بن عبد الواحد السعدي المحدث الأصولي الفقيه له عدة تصانيف (٦٤٣)، والحافظ خالد بن يوسف النابلسي (٦٦٣)، وأبو السخاء فتیان الحلبي النحوي، ويحيى بن حميدة الحلبي المعروف بابن أبي طي صاحب التاريخ وطبقات العلماء (٦٣٠)، ويحيى بن محمود الثقفي الحلبي محدث، وأحمد بن محمد الطرسوسي الحلبي محدث ويعيش بن علي الحلبي النحوي المعروف بابن الصائغ شرح المفصل للزمخشري المطبوع وشرح تصريف الملوك لابن جني المطبوع منه المتن (٦٤٣). وكانت حلب لما دخلها ابن خلكان في هذا العصر في سنة (٦٢٦) للاشتغال العلم أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين. ومما انفرد به هذا القرن على صورة لم يسبق لها مثال إنشاء ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة في دمشق، فكان في هذه العاصمة أعظم جامعة إسلامية عربية حوت العلوم الدينية والدنيوية فلم تكن دون القاهرة بأزهرها الذي بني في القرن الرابع ولا بغداد بمدرستها النظامية.

الإمام ابن تيمية والإصلاح الديني والأدب والعلم في القرن الثامن

اختص القرن الثامن بقيام أعظم مصلح فيه وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده، أراد إرجاع الدين إلى نضرته الأولى، وتعريته من القشور التي ألصقتها به الجهلة المتنمسون، فأذوه وعذبوه، وسجنوه ونفوه، ونعني به شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية نابغة النوايغ في الشرع وصاحب التأليف العديدة الممتعة المطبوعة، وإمام المعقول والمنقول، وسيد العلماء ورأس الفقهاء (٧٢٨)، وإن دمشق لتفاخر وحق لها الفخر بأنها تجلت فيها روح ابن تيمية، ودفنت أعظمه في تربتها، ولكن عصره يخجل كل الخجل من أعمال من ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد، ولا سيما المشايخ بنو السبكي الذين آذوه فأكثروا من أذاه؛ طمعاً في نيل الحظوة من العامة والملوك واستعانوا بنفوذهم السياسي في حكومة مصر والشام فاعتقلوه زماناً في القاهرة والإسكندرية ودمشق، والأمة وعقلاء علمائها تقدسه حتى لقي ربه. وقد أشبه ابن تيمية في دعوته في الإسلام «لوثيروس» صاحب المذهب الإنجيلي في النصرانية؛ بيد أن مصلح النصرانية نجح في دعوته، ومصلح الإسلام أخفق وبالأأسف.

قال السيوطي: إن دمشق كثر بها العلم في زمن معاوية ثم في زمن عبد الملك وأولاده وما زال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون في زمن التابعين وتابعيهم، ثم إلى أيام أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري وهشام ودحيم وسليمان بن بنت شرحبيل ثم أصحابهم وعصرهم. وهي دار قرآن وحديث وفقه، وتناقص بها العلم في المائة الرابعة والخامسة وكثر بعد ذلك ولا سيما في دولة نور الدين وأيام محدثها ابن عساكر والمقادة النازلين بسفحها ثم كثر بعد ذلك بابن تيمية والمزي وأصحابهما.

ونبغ أفراد في هذا العصر ولاسيما في الفلك والتاريخ والجغرافيا والحديث، ومنهم بدمشق البرزالي محدث الشام وصاحب التاريخ والمعجم الكبير (٧٤٠)، والحافظ جمال الدين المزي صاحب التصانيف (٧٤٢)، والحافظ محمد بن قايماز الذهبي عالم الشريعة والأدب والتاريخ وله عشرات من المصنفات أكثرها في التاريخ والرجال منها تاريخ الإسلام والمشتبه وميزان الاعتدال وطبقات الحفاظ، وهذه الثلاثة الأخيرة مطبوعة (٧٤٨)، والحافظ عماد الدين بن كثير المفسر المؤرخ الفقيه صاحب التأليف ومنها تاريخه المطول المطبوع (٧٤٤)، ومحمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي الإمام الحجة المجدد من أكبر أنصار شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٥١)، طبعت بعض كتبه في السنة ومن أهمها إعلام الموقعين. وأحمد بن فضل الله العمري الدمشقي إمام أهل الأدب والتاريخ والجغرافية والأسطرلاب وحل التقاويم وصور الكواكب وله عدة مصنفات منها مسالك الأبصار والتعريف بالمصطلح الشريف وهما مطبوعان، ومسالك الأبصار معلمة أدبية تاريخية كبرى (٧٤٩)، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الأديب المؤرخ صاحب الكتب المهمة من المطبوع منها الوافي بالوفيات (أجزاء)، ونكت العميان وشرح قصيدة ابن زيدون والأرب من غيث الأدب وتشنيف السمع والغيث المنسجم ونسب الجراكسة ولوعة الشاكي وجنان الجناس إلى غير ذلك (٧٦٤)، والملك المؤيد إسماعيل أبو الفداء وكان عالماً فقيهاً مؤرخاً جغرافياً فلكياً منها تاريخه وكتابه تقويم البلدان وهما مطبوعان (٧٣٢)، وكان يفضل على العلماء كثيراً أوى إليه أثر الدين الأبهري فرتب له ما يكفيه ورتب لجمال الدين ابن نباتة في دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به. وبعمل الملك المؤيد أبي الفداء وعمل أسرته من قبل ومن بعد أصبحت حماة مدينة علم وأدب وخرجت رجالاً يفتخر بهم في تاريخ العلم وكانت أشبه بالقرى في القرون الأولى للفتح الإسلامي،

ومثل هؤلاء الملوك على صغر ممالكهم كانوا مادة العلم والأدب في تلك العصور، وكثيراً ما كان ملوكنا هؤلاء يحتالون لنشر العلم بطرق غريبة حتى إن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة. ومن قرأ المفصل تعلم النحو والأدب معاً، وفي أواخر دولة المعظم عيسى هذا وفي دولة أبيه داود اشتهر بدمشق الاشتغال بعلوم الأوائل وكثر ذلك فأحمد في الدولة الأشرفية. ولعل ما نال أصحاب ابن حزم الظاهري من الضرب الذي أوعز به ملك مصر إلى فقهاء الشام في القرن الثامن كان من جملة ما ارتآه الجامدون من الأسباب للنيل من المجددين.

وجاء في هذا العصر أبو بكر محمد الأنصاري المعروف بشيخ الربوة الدمشقي كان يعرف الرمل والأوقاف ونحو ذلك من العلوم، وهو صاحب نخبة الدهر في القوزموغرافيا والجغرافيا المطبوع والسياسة في علم الفراسة (٧٢٧)، وأبو بكر بن عبد الله بن أيك صاحب صرخد له تأليف كثيرة، ومحمد الأكمل بن مفلح الدمشقي الفقيه المؤرخ (٧٦٤)، ومحمد بن شاكر الكتبي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع وعيون التواريخ (٧٦٤)، وعمر بن الوردي المعروف بابن أبي الفوارس صاحب التاريخ وديوان الشعر والمقامات المطبوعة كان فقيهاً أديباً (٧٤٩)، وعلي بن إبراهيم علاء الدين بن الشاطر الفلكي الدمشقي (٧٧٧)، ويعرف أيضاً بالمطعم الفلكي، كان أوحده زمانه يعرف تطعيم العاج وعالماً بالهيئة والحساب والهندسة وكانت له ثروة ومباشرات ودار من أحسن الدور وضعا وأغربها، وله الزيج المشهور والأوضاع الغربية التي منها البسيط الموضوع في منارة العروس بجامع دمشق يقال: إن دمشق زينت عند وضعه، وفي تاريخ الصالحية أن ابن الشاطر هو صاحب الأسطرلاب

والبسيط وكان له نظر على التوقيت بالجامع وألف الزيج والكرة وله الرسالة عليها، ويعرف علم الخيط في المزولة وتركيبها.

ومن المهندسين محمد بن إبراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي والمعلم علي بن محمد التقي المهندس كان معاصرًا لابن فضل الله وحدثه بأحاديث عن الجامع الأموي وشهاب الدين أحمد الحموي النقاش كتب الختمة الشريفة من أولها إلى آخرها على خوصة مفصلة الأجزاء والسور. ومن المحدثين الحافظ علي بن محمد اليونيني البعلي (٧٠١) قال الزبيدي: وله ولأبيه ترجمة حسنة وإخوته البدر الحسن والقطب موسى وأمة الرحيم حدثوا، ومن ولده الصدر عبد القادر وعم أبيه الزين عبد الغني وهم بيت علم وحديث، وعمر بن إبراهيم العجمي الحلبي فقيه فرضي حاسب له مصنفات (٧٧٧)، وحسن بن عمر بن حبيب الحلبي له عدة تأليف منها درة الأسلاك في دولة الأتراك وأكثر كتبه مسجعة (٧٧٩)، وعلي بن مظفر الوداعي المقرئ المحدث الكاتب وقف التذكرة الكندية في خمسين مجلدًا وضعها في المدرسة السميساطية وهي بخطه في فنون مختلفة (٧١٦)، وقاضي القضاة بدمشق عبد الله المقدسي (٧٣١)، والجلال القزويني إمام البيان صاحب المصنفات والمثل السائر في الخطابة (٧٣٩)، وعلي ابن سليم بن ربيعة الأذرعي فقيه أديب نظم التنبيه في الفقه في ستة عشر ألف بيت وشعره كثير (٧٣٢)، وعبد الله بن مروان الفارقي الخطيب الفقيه (٧٠٣)، وأحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاري الخطيب النحوي المحدث (٧٠٥)، ومحمد بن أبي بكر الأرموي القرافي صاحب التأليف (٧١٤)، وصلاح الدين خليل ابن كيكليدي الدمشقي ثم المقدسي أخذ عن مشايخ الدنيا له عدة مصنفات محررة (٧٦١)، وشيخ قراء دمشق أحمد بن محمد بن أبي الحزم سبط السلوس (٧٣١)، وأحمد بن البرهان له مصنفات

(٧٣٨)، ومحمد بن عبد الهادي البحر الزاخر في العلم (٧٤٤)، وشيخ القراء ذو الفنون إبراهيم بن عمر الجعبري بالخليل (٧٣٢) وتصانيفه كثيرة. ومحمد بن جماعة الكناني الحموي له معرفة بفنون وله عدة مصنفات (٧٣٣)، ومحمد بن علي المؤذن المعروف بابن أبي العشائر (٧٨٩) له عدة مصنفات منها تاريخ قنشرين، وعبد الرحمن الفقيه المواقيتي سبط الأبهري وكان له يد طولى في الرياضي والوفق والعلميات ومشاركة في فنون (٧٣٣)، وهبة الله البارزي الجهني الحموي المؤلف العالم المشهور (٧٣٨)، وعثمان بن محمد البارزي الحموي شرح الحاوي في الفقه (٧٣٠)، وإسماعيل بن محمد بن جمال الدين بن الفقاع الحموي (٧١٥) العالم بالقراءات العربية درس في عدة مدارس بحماة وشهاب الدين السبكي الفقيه له تأليف (٧٧١)، والكمال ابن الزملكاني الفقيه الأصولي العالم بالعربية صاحب الرسائل (٧٢٧)، والأمير العالم الشاعر أبو بكر محمد بن صلاح الدين بن صاحب الكرك (٧٣٠)، وسليمان بن أبي العز الأذرعي الفقيه (٧٠٧)، والقاسم بن محمد الإشبيلي المحدث المؤرخ (٧٣٩)، ومحمد بن سليمان الصرخدي المصنف الجامع بين أشات العلوم (٧٩٢)، وقاضي القضاة يوسف المحجي (٧٣٨)، وابن أخيه محمود بن محمد ابن جبلة الخطيب ومحمد بن إسماعيل الكفر بطنأوي من فقهاء المدارس، وقاضي قضاة دمشق إبراهيم بن عبد الباعوني ومحمد بن يعقوب المعروف بابن الصاحب الحلبي (٧٦٣) فقيه أديب كاتب، ومحمد بن عيسى البعلي كان صاحب فنون (٧٣٠) وأسمى بنت محمد بن سالم بن صصري التغلبية المسندة المحدث (٧٣٣)، وزينب بنت الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء، وست العرب ابنة محمد بن علي الدمشقية المحدث كانت حية سنة (٧٦٦). ومن الأطباء سليمان بن داود كبير الأطباء بدمشق (٧٣٢)، وأحمد بن الصلاح البعلبكي الطيب في بعلبك صاحب التأليف.

ومن الشعراء والكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر (٧٣٧)،
والحسن بن علي المحدث الكاتب المجدود (٧٣٢)، ومحمد بن الحسن
الصائغ العروضي الأديب الشاعر له تأليف (٧٢٢)، وأحمد أبو جلنك
الشاعر الحلبي (٧٠١). ومن كتاب هذا القرن الشهاب محمود الحلبي
صاحب حسن التوسل في معرفة صناعة الترسل (٧٥٥)، وأحمد
الأنصاري، إلى أمثالهم ممن نبطوا العلم ونشروه وأظهروه.

ويلاحظ أن أعلامًا من العلماء اشتهروا في هذا القرن والذي قبله
وبعده، وكثير منهم نشأ من قرى الجنوب والشمال، والقرى ما زالت مادة
المدن في العلم والأدب كما هي في الزرع والضرع، ومن مواطنهم اليوم
من لا يعرف شيئًا مما يطلق عليه اسم العلم، وبعضها في جاهلية جهلاء،
مثل زملكا وحرستا وكفر بطنا والمزة وبلدا وداريا وإزرع ومحجة ونوى
والجيدور وبيروود والبقاع وعجلون وصرخد ومتان وقمرا وحسبان
والكرك وجبرين ويونين وأنطاكية وصفد وبعبك والمعرة وكفر طاب
وشيرز. وتوشك بعض تلك القرى أن تدرث، وأعمال النابغين فيها خالدة
خلود الدهر فسبحان من هذا شأنه!

العلوم في القرن التاسع

بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع، فلم ينبغ في الشام رجل
أحدث عملاً علمياً عظيماً، أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم، وكثر
فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين، والسبب أن
حكومة المماليك البرجية والبحرية كانت تشتد في إرهاب المتفلسفة
والمتفقهة على غير الأصول المتعارفة التي لم يشتهر منها سوى أربعة
أئمة: الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، فكان المخالف قليلاً يعزر
على مذهب المالكية، والقتل أيسر مراتب التعزير عندهم، ثم زادت الحال

اشتدًا في أوائل القرن بانسيال جيوش تيمورلنك على القطر، وقتله بعض العلماء، وحمله إلى سمرقند كل ممتاز بعلم أو صناعة. ومع هذا نشأ في هذا القرن أفراد قلائل في العلم ذكر التاريخ تراجمهم، ومنهم أبو بكر بن أحمد ابن قاضي شهبة صاحب الطبقات وغيره (٨٥١)، وأحمد بن علاء الدين حجي الحسباني الدمشقي الحافظ المؤرخ له كتاب سماه الدارس في أخبار المدارس، ولعله الأصل لكتاب النعيمي في المدارس وله ذيل على تاريخ ابن كثير وغيره (٨١٥)، وأحمد بن محمد بن عربشاه له عدة مصنفات في الأدب والتاريخ شاعر كاتب مجيد في اللغات العربية والفارسية والتركية، ومن تأليفه عجائب المقدور في أخبار تيمور وهو مطبوع (٨٥٤)، وصالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت وأمراء الغرب المطبوع كان في أواسط القرن التاسع، ونقل عن أحمد بن شباط الغربي الأديب المؤرخ أيضًا.

ومن الفقهاء إبراهيم بن محمد العجلوني الفقيه كان في الشاميين نظير البيجوري في المصريين (٨٢٥)، وإبراهيم بن إبراهيم النووي متميز في الفرائض والحساب ومتعلقاتهما له تأليف (٨٥٠)، وإبراهيم بن علي الحسني البقاعي له مصنفات في الفقه والنحو والمنطق والحكمة وأدب البحث وغيرها.

وإبراهيم بن محمد بن مفلح فقيه (٨٠٣)، وعبد الله بن مفلح رئيس الحنابلة (٨٢٤)، وتقي الدين الحصني عالم له مصنفات في الفقه وغيره (٨٢٩)، وأبو بكر محمد بن مزهر الدمشقي الفقيه انتهت إليه رئاسة عصره (٨٣٢)، وعلاء الدين البهائي الغزولي عالم دمشق (٨٨٥) له كتاب مطالع البدور في منازل السرور مطبوع، وإبراهيم البقاعي ترك مائة مؤلف كان إمامًا بالعربية والأدب والدين والتاريخ له نظم الدرر في تناسب الآي والسرور في التفسير وعدة تواريخ للرجال، وعبد الله التنوخي الأمير

اللبناني المعروف بالسيد فقيه أديب مشارك في الطب والفلك طبعت بعض رسائله في الوعظ (٨٨٤)، ومحمد بن أحمد الباعوني (٨٧١) له مؤلفات منها منظومات في التاريخ.

ونشأ في هذا القرن أحمد الطولوني كبير المهندسين، وكان أبوه وجده مهندسين، وخليل بن جمال الدين الأديب المؤرخ الدمشقي صنف تاريخاً للحوادث وغيره (٨١٥)، ومحمود العيني (٨٥٥) الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات في التاريخ وغيره، وعبد الرحمن ابن العيني عالم دمشق في هذا القرن.

وأحمد المقدسي المشهور بابن زوجة أبي عذبة (٨٥٦) صاحب تاريخ دول الأعيان، وأحمد بن حجر العسقلاني الفقيه المحدث المؤرخ (٨٥٢) صاحب تاريخ الدرر الكامنة (المطبوع) وإنباء الغمر، وأحمد بن خليل المعروف بابن اللبودي له أدب وشعر وبعض تأليف (٨٩٦)، وأحمد بن المحوجب عالم بالدينيات واللسانيات، وأحمد بن عبد الله العامري فقيه أصولي له تأليف، وأحمد بن محمد الكشك عالم فقيه (٨٣٧)، وزين الدين بن رجب الحنبلي له عدة مصنفات ومنها طبقات الحنابلة المطبوع، وأبو العباس المالكي الفقيه العالم المفسن له عدة مصنفات، وعبد الرحيم بن عبد الرحمن الحموي فقيه أديب له مصنفات، ومحمد بن خليل القباقيبي الحلبي (٨٤٩) إمام في القراءات صنف فيها، وعبد الله ابن قاضي عجلون فقيه عالم بالمعقولات (٨٦٥)، وقاضي القضاة العوني الناصري خطيب الخطباء (٨١٥)، وصدقة الجيدوري المقرئ (٨٢٥)، ونور الدين أبو الثناء خطيب الدهشة استوطن حماة له تأليف كثيرة، ومحمد الجزري الدمشقي المقرئ صاحب المصنفات الجليلة منها كتاب الطبقات، والنشر في القراءات العشر طبعاً (٨٣٣)، وعائشة بنت عبد الهادي محدثة دمشق (٨١٥)، وأبو البقاء البدري له تأليف (٨٨٧)، وغلاء الدين ابن خطيب

الناصرية الحلبي المؤرخ (٨٤٣)، وأبو بكر بن علي بن حجة الحموي الأديب الشاعر صاحب الخزانة وثمرات الأوراق وغيرهما وهما مطبوعان، وكان رئيس أدباء عصره (٨٣٧)، وزين الدين ابن الشحنة الحلبي الفقيه المؤرخ (٨١٥) كتب في عدة فنون وله أراجيز في اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض، ومحمود ابن الشحنة الفقيه الشاعر الأديب (٨٩٠) له عدة تأليف منها الدر المنتخب في تاريخ حلب طبع مختصره، وأحمد السرميني الحلبي الفلكي (٨٢٤) كان إماماً في الهيئة وحل الزيج وعمل التقاويم، وعبد الملك البابي الحلبي (٨٣٩) علم بالقراءات له نزهة الناظرين في الأخلاق، وعز الدين ابن عبد السلام السعدي المقدسي العالم الرحلة صاحب التأليف (٨٥٠)، والبدر البشتكي محمد بن إبراهيم الدمشقي (٨٣٠)، وعلي بن خليل الطرابلسي (٨٤٤) له كتاب في الفقه اسمه معين الحكام، وابن حبيب الحلبي (٨٠٨) له عدة مصنفات، وعبد الله بن جماعة المقدسي صاحب التأليف (٨٦٥)، والبرهان الحلبي المحدث (٨٤١)، وعبد الله توقشندي المقدسي عالم زمانه في الأرض المقدسة (٨٦٧).

ومن علماء السريان نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة في حلت، وقد امتاز هذا القرن بكثرة المدارس في لبنان قال الدويهي في حوادث سنة ٨٧٥هـ: وقد أحصينا أسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم، فإذا هم ينيفون على مائة وعشرة، وفي ذلك الوقت أهملوا الخط الاسترنكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور.

انحطاط العلم والأدب في القرن العاشر

زاد انحطاط العلم في القرن العاشر، فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه الديار مثل القرنين السالفين، وكانت الآداب

تسير إذ ذاك بقوة التسلسل منبعثة من قوتها القديمة، وإذ اختلف لسان الحاكم والمحكوم عليه، وخصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك، مالت النفوس عن العلم، اللهم إلا من كانت لهم فطر سليمة عشقوه لفائدته وقليل ما هم. ذكر المقدسي أن أهل الدولة العثمانية كانوا لا يولون المدارس في الشام أحدًا من أبناء العرب، زاعمين أن العلماء العرب كثير وأنهم إن ولوا عربيًا من غير طريقهم، كثر الطالبون من أبناء العرب وعجزوا عن إرضائهم، وضاق الأمر على ملازمي الروم. وحصر الترك عنايتهم بالأستانة كما حصروها من قبل ببورصة، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم؛ بل جامعة ذاك العصر، كما قال جودت. وكان العلماء بعد الفتح العثماني يأتون إلى القسطنطينية زرافات، ولذلك لم يكن حظ للولايات دع البعيدة من عناية الدولة العثمانية بها وترقيتها في العلم والآداب.

وتسلسل العلم الديني في بعض البيوت بدمشق في هذا القرن والذي بعده على صورة غريبة مثل بني الغزي وحمزة ورففور والعمادي والنبلسي ومفلح. وممن نبغ بدمشق محمد بن محمد الغزي العالم بعلوم اللسان وغيرها، وله عدة مصنفات (٩٣٥)، ومحمد بن بدر الدين الغزي الفقيه المفسر النحوي المحدث المقرئ الأصولي النظار المؤرخ وله مائة وبضعة مصنفات (٩٨٤)، وعبد الرحمن بن رففور عالم بالتاريخ والأدب (٩٩٢). وامتاز في الدينيات محمد بن حمزة (٩٣٣)، وعلي بن إسماعيل بن عماد الدين (٩٧١)، وإسماعيل النابلسي (٩٩٣)، وإبراهيم بن عمر بن مفلح (٩١٧)، وكان فيه محمد بن علي بن طولون النحوي الفقيه المحدث المؤرخ صاحب مصنفات كثيرة في التاريخ على اختلاف ضروبه ومنها المطبوع (٩٥٣)، وعبد القادر النعيمي المؤرخ المحدث ألف كتبًا كثيرة منها الدارس (٩٢٧)، وعبد الباسط العلموي اختصر بعض كتب النعيمي

وزاد عليها ومنها مختصر الدارس (٩٨١)، وابن سكيكر الدمشقي المؤرخ له زبدة الآثار في ما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار (٩٨٧)، وبهاء الدين محمد بن يوسف الباعوني ومؤلفاته مثل مؤلفات عمه أراجيز تاريخية (٩١٠).

ومن علماء القرن في دمشق محمد بن محمد بن سلطان العالم الفقيه صاحب التأليف (٩٥٠)، ومحمد بن مكي عالم بالطب والهيئة والهندسة والفلك (٩٣٨)، وعرف بالمهارة في الفقه وغيره، وأبو بكر البلاطيسي (٩٣٦)، وأبو بكر محمد القاري (٩٣٥)، وأبو الفتح البستري (٩٦٢)، وأحمد بن محمد الشويكي له تأليف (٩٦٦)، وإسماعيل الكردي الباني عالم بالمعقولات (٩٥٦)، وعثمان الأمدي وهو خطيب متفنن (٩٨٥)، ومحمد بن محمد عماد الدين عالم في الدينيات (٩٨٦)، وأحمد بن أحمد الطيبي الفقيه النحوي له عدة مصنفات (٩٧٩)، وأسد الشيرازي عالم في البلاغة والعربية والمنطق والأصليين والفقه (٩٩٨)، ومحمد بن هشام نحوي (٩٠٧)، ومحمد بن منيعة (٩٠٤)، ومحمد الكنجي له يد في النحو والحساب والميقات والقرآن (٩٣٢)، ومحمد الكفرسوسي (٩٣٢)، ومحمد الميداني عالم بالقراءات والعربية له عدة مصنفات (٩٢٣)، وإبراهيم بن الهلالي فقيه محدث (٩١٦)، وأبو بكر ابن قاضي عجلون إمام متفنن (٩٢٨).

وجاء في القدس عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمي صاحب تاريخ القدس والخليل المطبوع، وبرهان الدين المقدسي الفقيه الأديب له عدة مصنفات (٩٢٢). وفي غزة أبو عبد الله محمد بن قاسم الغزي (٩١٨) له كتب في الفقه والأصول وغيرها، وإبراهيم بن يوسف الحنبلي المعروف بابن الحنبلي له عدة كتب (٩٥٩). وفي دمشق يوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) الفقيه المؤرخ صاحب الرسائل والكتب الكثيرة في الفنون

المختلفة، وهو أشبه بالسيوطي في مصر بكثرة تأليفه وتنوع موضوعاته طبع له كتاب مساجد دمشق. وفي حلب محمد ابن الحنبلي المؤرخ العالم له عدة تأليف منها تأليف في تاريخ حلب (٩٧١)، وعبد البر ابن الشحنة الحلبي الأصولي الفقيه (٩٢١)، وعمر الشماع الحلبي المؤرخ المحدث له عدة مصنفات (٩٣٦). وفي الرملة شمس الدين الرملي العالم الفقيه (٩٢٣)، ونشأ في حلب خليل بن أحمد الشيخ غرس الدين (٩٧١) عالم بالحساب والميقات والهيئة والوفق والموسيقى والطب، وهو صاحب شجرة الإفادة بشرقية جامع حلب الأعظم. وفي حماة محمود بن أبي بكر المعري الحموي الحلبي الفقيه. وفي دمشق هاشم بن السيد الطيب ناصر الدين السروجي (٩٦٤). وفي حماة محب الدين بن داود الحموي له تأليف. وفي دمشق موسى بن يوسف بن أيوب القاضي شرف الدين الدمشقي الشافعي، ألف تاريخاً في مجلد وتذكرة في مجلدين (١٠٠٠).

ومع انحطاط محسوس في حركة العقول في هذا العصر كان في الشام بعض النساء العالمات مثل فاطمة بنت قريمان شبيخة المدرستين العادلية والزجاجية معاً انتهت إليها رياسة أهل زمانها بحلب أخذت العلم عن زوجها (٩٦٦)، وبوران بنت الشحنة الشاعرة الحلبية (٩٣٨)، وعائشة الباعونية الدمشقية المحدثنة المتصوفة الشاعرة المجيدة لها عدة تأليف ومنها البديعية وشعرها لطيف (٩٢٢).

الآداب في القرن الحادي عشر

أمّا القرن الحادي عشر فشبهه بتاليه وسالفه من حيث قلة الإبداع والتجدد والاكتفاء بالموجود؛ لكن عدد العالمين والمتأديين كان أكثر على ما يظهر أو أنه دون كله ولم يفقد، فقد نشأ في دمشق أحمد بن محمد

الغزي فقيه له بعض التأليف (١٠١٧)، ومحمد أكمل الدين بن مفلح المحدث الرحلة المؤرخ كتب تاريخاً ترجم فيه معاصريه وله تعليقات تاريخية مهمة (١٠١١)، والنجم محمد الغزي محدث الشام صاحب التأليف منها في التاريخ وتراجم الرجال (١٠٦١)، وأحمد بن سنان القرمانى الأديب المؤرخ صاحب التصانيف وله تاريخ آثارالدول المطبوع (١٠١٩)، وعبد الوهاب الفرفوري الفقيه (١٠٧٣)، وأحمد بن أبي الوفاء بن مفلح الحنبلي الفقيه المحدث عارف بالفرائض والحساب والتاريخ (١٠٣٨). ومن الفقهاء محمد الداودي (١٠٠٦). ومن علماء العربية محمد الخوخى (١٠٢٢). وفي الفقه محمد الحصكفي صاحب التصانيف في الفقه وغيره (١٠٨٨)، ومحمود الباقرى له عدة تصانيف (١٠٠٣)، وأبو بكر ابن عبد عوف أبوه بمنلا جامي (١٠٧٧)، وأحمد بن محمد الزريابي فقيه المالكية (١٠٥٠)، وكمال الدين بن مرعي العيتاوي الفقيه (١٠٨٦)، ورمضان العطيفي الفقيه النحوي الراوية (١٠٩٥)، وعبد الباقي بن فقيه فصة محدث مقرئ أثري (١٠٩١)، ويحيى الشاوي له تأليف، وشمس الدين بن بلبان عالم بالسنة (١٠٨٣)، والشاكر الحموي كان متصوفاً ناظماً ونائراً وله ديوان في ثلاث مجلدات.

ومن أدباء هذا القرن وشعرائه أبو بكر بن منصور العمري (١٠٤٨)، وإبراهيم الصالحي الشاعر المعروف بالأكرمي (١٠١٢)، وعمر بن محمد المعروف بابن الصغير شيخ الأدب بالشام بعد شيخه أبي بكر بن منصور العمري شاعر مجيد عارف بالطب (١٠٦٥)، وإبراهيم الفتال الشاعر (١٠٩٨)، وأبو بكر ابن أحمد المعروف بابن الجوهرى، ومحمد الكرими (١٠٦٨)، وعبد الكريم الطاراني الشاعر الكاتب المؤرخ (١٠٤١)، وعبد اللطيف البهائي شاعر متفنن (١٠٨٢)، وعبد اللطيف بن المنقار شاعر (١٠٥٧)، والحسن البوريني الشاعر اللغوي له تأليف منها تراجم رجال

عصره وشرح ديوان ابن الفارض المطبوع (١٠٢٤)، وأحمد العنایاتی الشاعر (١٠١٤)، وأحمد بن الشاهینی الأديب اللغوي (١٠٥٣)، وأحمد الصفوري الشاعر الأديب المؤرخ (١٠٤٣)، وأحمد ابن محمد المنقار أديب شاعر (١٠٣٢)، وإسماعیل النابلسي الفقيه له بعض التأليف (١٠٦٢)، ودرويش محمد بن أحمد الطالوي الدمشقي الأديب (١٠١٤)، ومنجك بن محمد بن منجك صاحب الديوان المطبوع (١٠٨٠)، وشهاب الدين العمادي شاعر منشئ (١٠٩٨)، وعبد الحي العكري المعروف بابن العماد مصنف أديب مفنن أخباري أثري له شذرات الذهب في التاريخ مطبوع (١٠٨٧)، وعبد الرحمن بن النقيب منشئ شاعر (١٠٨١)، وإبراهيم العمادي أحد بلغاء الشام المذكورين (١٠٩٨)، وأحمد بن المنلا النخجواني الملقب بالمنطقي شاعر نائر فقيه ينظم ويثر في الألسن الثلاثة العربية والفارسية والتركية.

وظهر في دمشق في العلوم والفنون بضعة أفراد منهم علاء الدين بن ناصر الدين علي الطرابلسي اشتهر بالرياضيات والقراءات والفرائض والفقه وله تأليف (١٠٣٢)، وعمر بن محمد القاري عالم مفنن له باع في الهيئة (١٠٤٦)، وعمر بن يحيى المعروف بالدويك كان عارفاً بفنون عديدة منها الرياضيات والفلك والميقات وله شعر (١٠٨٣)، ومحمد بن يونس الطبيب الخطيب (١٠٠٨)، والمنلا محمود الكردي عالم في كثير من الفنون (١٠٤٧)، وابن الحكيم المصاحب أبو بكر بن محمود رئيس أطباء دمشق وخطيب أمويها عالم في العلوم الغربية مثل علم الوفق وعلم الحرف وله يد طولی في العقلیات (١٠٠٧)، وعبد القادر ابن عبد الهادي رياضي فقيه أصولي (١١٠٠)، وعبد الحي بن محمد بن عماد عالم بالرياضيات (١٠٨٩)، وإبراهيم بن الأحذب الزبداني محدث فرضي رحالة أخذ الفرائض والحساب عن العلامة محمد النجدي ويلحق بابن

الهائم في هذين العلمين (١٠١٠). ونشأ في هذه المدينة أيوب الخلوتي من المتصوفة له في التصوف رسائل (١٠٧١). ومن الخطباء الشهاب أحمد بن يحيى البهنسي الخطيب ابن الخطيب وأحمد بن محمد البصراوي ويعرف بابن الإمام (١٠٠٣).

وجاء في المدن الأخرى أبو الجود عبد الرحمن الحلبي البتروني كان محققاً في المذهب والتفسير والبحث نظاراً (١٠٣٩)، وأبو الوفاء محمد بن عمر العرضي الحلبي متفرد بالإتقان والحفظ والضبط له تاريخ معادن الذهب وله رسائل وتآليف (١٠٧١)، ومحمود البيلوني الحلبي كان إذا تكلم في فن من العلم يقول سامعه لا يحسن غيره (١٠٠٧)، وفتح الله البيلوني الحلبي له عدة مصنفات وحواش ومجاميع وشعر (١٠٤٢)، ونور الدين بن برهان الحلبي صاحب السيرة الحلبية المطبوعة وغيرها من الحواشي والشروح والرسائل (١٠٤٤)، وعلي البصير له كثير من التآليف في الفقه وغيره (١٠٩٠)، ومحمد بن حسن الكواكبي رئيس حلب في الفنون والعلوم ألف مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير وهو شاعر مجيد (١٠٩٦)، وعبد الوهاب بن رجب إمام في العربية (١٠١٥)، وعلي البصير الحموي له تآليف في الفقه وغيره، ومحمد بن أبي بكر الحموي له تآليف عديدة في الفقه والتفسير والعربية ورسائل ورحلات، وكان عالماً بالفرائض والحساب والمنطق والحكمة والزايرجا والرمل وهو جد الشيخ محمد المحبي مؤلف خلاصة الأثر (١٠١٦).

ومن علماء السريان أندرواس اخييجان الحلبي أول بطاركة الكاثوليك، وأبو السعود الكوراني الحلبي الشاعر الأديب (١٠٥٦)، وأحمد بن خليل الأطاسي الحمصي الفقيه مفتي حمص وعالمها (١٠٠٤)، وأحمد بن النقيب الحلبي الأديب المتفنن (١٠٥٦)، وباكير بن أحمد المعروف بابن النقيب الحلبي لم يكن في حلب من أدباء عصره

أكثر رواية منه للنظم والنثر (١٠٩٤)، وبشير بن محمد الخليلي القدسي الأديب الشاعر لم يكن في زمنه من أقرانه من يدانيه فيه إلا شرف الدين العسيلي (١٠٦٠)، وتقي الدين التميمي الغزي صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١٠١٠)، وحسن بن محمد أبو الفوارس الحموي المعروف بابن الأعوج أمير حماة شاعر اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء عصره، وحسين الجزري الحلبي الشاعر (١٠٣٣)، وحسين بن عبد الله المعروف بالملوك متصوف (١٠٣٤)، وخير الدين الرملي المفسر المحدث الفقيه اللغوي صاحب التأليف والفتاوي ومنها المطبوع (١٠٨١)، ورجب بن علوان الحموي أمهر ما كان في العلوم الرياضية كالهئة والحساب والفلك والموسيقى وغيرها (١٠٨٧)، وسرور بن سنين الحلبي شاعر (١٠٢٠)، وصاحب بن سلوم الحلبي رئيس الأطباء (١٠٨١)، وصلاح الدين الكوراني الحلبي شاعر (١٠٤٩)، وعبد الحق الحمصي الملقب زين الدين الحجازي عالم بالمعقولات، وعبد الله بن حجازي الحلبي الشهير بابن قضيب البان مطبوع بشعره وإنشائه في الألسن الثلاثة وله تأليف (١٠٩٦)، وفتح الله النحاس الحلبي الشاعر (١٠٥٢)، ومحمد القاسمي الحلبي شاعر ناثر (١٠٥٤)، ومحمد الكواكبي الحلبي عالم في المنقول والمعقول (١٠٩٦)، ومحمد بن عبد القادر الشهير بالحادي الصيداوي أديب فقيه (١٠٤٢)، ومحمد التمرناشي الغزي رأس الفقهاء الحنفية له التأليف الكثيرة (١٠٠٤)، ومحمد بن علي المعروف بالحريري وبالحرفوشي العاملي الدمشقي اللغوي النحوي الأديب الشاعر صاحب التصانيف الكثيرة (١٠٥٩)، ومحمد البيلوني الحلبي راوية الشعر والوقائع خبير بصناعة النقد أديب (١٠٨٥)، ومحمد بن محمد الحلقاوي الحلبي أديب (١٠٥٤)، ومحمد العسيلي القدسي له تصانيف دينية، وموسى الرام حمداني الحلبي البصير متفنن في الرياضيات والعلوم الحكمية وعلم الحرف والأخبار والأدب (١٠٨٩).

وبهاء الدين العاملي الفقيه الأديب صاحب المخلاة والكشكول وغيرهما من كتب الأدب المطبوعة، ومحمد الفصي البعلبكي الفقيه وآبائهما كلهم رؤساء العلم في تلك الناحية وله تأليف (١٠٢٤)، وأبو الوفاء بن معروف الحموي له تأليف (١٠١٦)، وحسين الأشقر كان جامعاً لأنواع الفنون (١٠٤٢)، وعبد القادر بن قضيب البان كان له ما ينيف على أربعين تأليفاً (١٠٤٠)، وعبد النافع بن عمر الحموي كان متضلعا من العلوم شاعراً (١٠١٦)، وداود الأنطاكي ويعرف بالشيخ الصوري (١٠٠٥) ألف كتاباً في السب سماه تذكرة أولي الألباب مطبوع، وتقي الدين الغزي التميمي (١٠٠٥) له الطبقات الحنفية.

العلوم والآداب في القرن الثاني عشر

دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد، إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديماً لا إبداع فيها ولا اختراع، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفاً عن سلف، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و«صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير». كما قال أحد العارفين بذلك القرن. وجاء في العاصمة زمرة من العلماء منهم إبراهيم بن حمزة محدث لغوي (١١٢٠)، وأبو الإسماعيل بن أيوب عارف بعلوم جمّة مبرز في علوم الأبدان (١١٠٦)، وأبو الصفا المفتي فقيه مفسر نحوي، وأحمد بن حسين باشا الكيواني أديب كاتب صاحب الديوان المطبوع (١١٧٣). قال المرادي: وهو في هذا القرن -أي الثاني عشر- كالأمير منجك المنجكي في القرن الماضي بل أرجح، وإن لم يكن أرجح منه فهو مقارن له، وأحمد بن عبد الكريم الغزي فقيه نحوي له تأليف (١١٤٣)، وأحمد بن علي المنيني المحدث اللغوي النحوي الأديب له تأليف منها شرح تاريخ اليميني المطبوع (١١٧٢)، وأحمد شاكر الحكواتي شاعر رحلة (١١٩٣)،

وأحمد الفلاقنسي أديب منشئ (١١٧٣)، وأحمد المهمنداري فقيه مفنن له شعر وأدب (١١٠٥)، وأحمد البهنسي فقيه أديب (١١٤٨)، وأحمد البقاعي أديب مفنن شاعر (١١٧١)، وأسعد الطويل أديب (١١٥٠)، وإسماعيل الحائك فقيه عالم (١١١٣)، وإسماعيل العجلوني رحلة له يد في العلوم لا سيما الحديث والعربية وله تصانيف (١١٦٢)، وحامد العمادي فقيه فرضي شاعر أديب له تأليف، وخليل الحمصاني له يد في التفسير خاصة (١١٢٣)، وزين الدين البصري عالم أديب (١١٠٢)، وسعيد الجعفري عالم أديب له شعر (١١٨٣)، وسعيد السمان لغوي شاعر ناثر له تأليف (١١٧٢)، وسعدي العمري شاعر ناثر (١١٤٧)، وسعدي بن حمزة محدث فرضي حيسوب مهندس مساح (١١٣٢)، وسليما الحموي المعروف بالسواري كاتب شاعر (١١١٧)، وصالح الجينيبي محدث فقيه (١١٧٠)، وعبد الجليل المواهبي عالم في المعقولات (١١١٩)، وعبد الرحمن الصناديقي فقيه أصولي نحوي (١١٦٤)، وعبد الرحمن الغزي فقيه فرضي نحوي شاعر (١١١٨)، وعبد الرحمن الكيلاني عالم مدقق شاعر ناثر (١١٧٢)، وعبد الرحمن البهلول شاعر لغوي أديب (١١٦٣)، وعلي الطاغستاني عالم محقق مفنن (١١٢٩)، ومحمد الدكدكجي صوفي مقرئ متفنن (١١٣١)، ومحمد الكفيري فقيه أديب (١١٥٠)، ومحمد الغزي فقيه أديب مؤرخ نسابة (١١٦٧)، ومحمد أمين المحبي عالم أديب مؤرخ له تأليف منها خلاصة الأثر المطبوع (١١١١)، ومحمود الجزيري عالم في الزايرجا والحرف والأوقاف والرياضيات (١١٤١)، ومحمود العبدلاني عالم محقق (١١٧٣)، ومراد المرادي عالم في المعقول والمنقول له تأليف (١١٣٢)، ومكي الجوخني عالم أديب متضلّع له شعر وكتابة (١١٩٢)، ومصطفى اللقيمي عالم فرضي حيسوب ناظم ناثر (١١٨٧)، ومصطفى البكري عالم بلغت مؤلفاته ٢٢٣ مؤلفا بين مجلد وكراسين وأقل وأكثر وله نظم كثير وقصائد

خارجة عن الدواوين تقارب اثني عشر ألف بيت (١١٦٢)، ومصطفى العلواني الحموي أديب ناثر ناظم (١١٩٣)، ومصطفى السفرجلاني متفنن في العلوم الحكمية له رسائل في المنطق والفلسفة والحكمة والكلام وشعر ونثر (١١٩١)، وموسى المحاسني عالم محقق (١١٧٣)، وعبد الرحيم المخللاني عالم في الفرائض والحساب والفلك (١١٤٠)، وعبد الرحمن الكابلي عالم محقق (١١٣٥)، وعبد الرحيم الطواقي فقيه نحوي فرضي له بعض تأليف ورسائل (١١٢٣)، وعبد الرزاق الرومي فقيه له تأليف، وعبد السلام بن محمد المعروف بالكامل أو الكامدي فقيه أصولي نحوي أديب (١١٤٧)، وعبد الغني النابلسي إمام في التصوف والفقه والتفسير وعلوم الأدب وله تأليف كثيرة ونظم ونثر المطبوع منها شرح الطريقة المحمدية والبديعية وكتاب في الزراعة وديوان والرحلة القدسية والرحلة الحجازية وغيرها (١١٢٦)، وعبد الفتاح بن مغيزل أديب طبيب (١١٩٥)، عبد القادر التغلبي فقيه فرضي (١١٣٥)، عبد القادر الكردي عالم محقق له ثلاثون تأليفاً (١١٧٨)، وعبد الله البصري عالم محقق في العلوم والفنون مؤرخ (١١٧٠)، عبد الله الطرابلسي أديب شاعر له تأليف ورسائل (١١٥٤)، عبد الله المكتبي محقق في الحساب والفلك والهيئة والتقويمات (١١٦٢)، عثمان الشمعة عالم بالدينيات وعلوم الأدب (١١٢٦)، عثمان القطان عالم بالعقليات والنقلات (١١١٥)، عمر البغدادى عالم متصوف له رسائل (١١٩٤)، عمر الرجيجي كاتب أديب (١١٣٠)، علي العمادي عالم أديب (١١١٧)، علي التدمري فقيه نحوي فرضي عالم بالحرف والزائرجة والوفوق (١١٣١)، علي كزبر عالم رحلة مقرئ (١١٦٥)، محمد بن عيسى بن كنان مؤرخ أديب (١١٥٣)، يوسف بن محمد الطرابلسي رئيس الأطباء.

هذا غاية ما يقال في رجال دمشق؛ أما في المدن الأخرى فقد نشأ في حلب طه الجبريني المفسر المحدث العالم بالمعقولات (١١٧٨)، أحمد الكواكبي الفقيه المفسر الشاعر الأديب (١١٢٤)، أبو السعود الكواكبي العالم المحقق الشاعر (١١٣٧)، وبنو الكواكبي وبنو الشحنة في حلب من البيوت التي تسلسل فيها العلم عدة قرون، المطران جرمانوس فرحات (١١٤٥) كان يحسن عدة لغات وله تأليف بالسريانية والعربية (طبع منها كتابه في النحو) وهو تلميذ عالم عصره سليمان الحلبي، عبد الله زاخر (١١٦٢) مترجم الإنجيل وطابعه، عبد اللطيف الأطاسي الحمصي الأديب عالم بالكيمياء والأوقاف وغيرها وله شعر كان حيًا سنة ١١٤٠، البطريك ميخائيل جروة الحلبي، الأيكونيموس بطرس التولي، القس يوحنا زندو الحلبي، وعطاء الله زندو عبد المسيح لبيان الشاعر، والشاعران ميخائيل جبارة وأنطوان ذكري، ويوسف الشراباتي، ويواكيم البعلبكي الواعظ له تأليف (١٧٨٢م).

وأحمد العكي العالم الفقيه له تأليف كثيرة وشعر وأدب (١١٤٧)، عبد الله الإطرابلسي المعروف بالأفيوني الفقيه له عدة تأليف وشروح (١١٥٤)، عبد المعطي الخليلي له فتاوى ورسائل كلها منتخبة (١١٥٤)، إبراهيم الحاقلي له عدة تأليف ترجم عدة كتب من العربية إلى اللاتينية منها كتاب ابولونيوس في الهندسة ومختصر في الفلسفة الشرقية وعدد تأليفه ٦٤ (١٦٦٤م)، البطريك إسطفان الدويهي العالم المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع (١٧٠٤م)، علي البرادعي البعلبي الواعظ كان جده الأعلى جلال الدين من العلماء الأجلاء، ومحمد التاجي الحنفي صاحب الفتاوى التاجية الفقيه (١١١٤)، السمعاني اللبناني كتب بالعربية واللاتينية منها المكتبة الشرقية (١٧٦٨م)، وله شهرة في إيطاليا وإسبانيا وتأليفه كثيرة قال الدبس بعد أن عدد تأليفه: وأعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل وإن كان

مغرماً بالمطالعة عن أن يقرأ في حياته ما ألفه هو في أوقات فراغه. والقس يوسف الباني الحلبي ترجم عدة كتب إلى العربية في الدين المسيحي، والبطريرك مكاريوس الحلبي نبغ في أواسط القرن السابع عشر للميلاد، وهو صاحب الرحلة إلى القسطنطينية وبلغاريا وروسيا.

العلم والأدب في القرن الثالث عشر

كان القرن الثالث عشر تنمة القرن الثاني عشر، ولكن فيه بطء وضعف، نشأ فيه من دمشق محمد بن حسين الحلبي العطار العالم بالرياضيات والفنون (١٢٤٣) اتهم بالتساهل في دينه فالتزم بيته فألف عدة رسائل بالفنون الحربية والفلك والحساب طبع بعضها، وأحمد الكزبري العالم بالكتاب والسنة (١٢٤٨)، أحمد المنيني الفقيه المحدث (١٢٥٦)، أحمد بن إسماعيل بيبرس فقيه (١٢٤٧)، أسعد المنير فقيه (١٢٤٢)، حامد العطار المحدث المفسر (١٢٦٣)، كمال الدين الصمادي الجرائحي الدمشقي له تأليف في التاريخ (١٢٠٩)، حسن جينة فقيه أديب له رسائل في الأخلاق (١٢٠٦)، خليل الخشة فقيه (١٢٤٢)، رضاء الدين الحلبي فقيه (١٢٨٦)، شاعر العقاد الشهير بمقدم سعد الفقيه الحكيم الأديب (١٢٢٢)، صالح الدسوقي له بعض رسائل في الفقه والأدب (١٢٤٦)، عبد الرحمن الكزبري الفقيه المحدث (١٢٦٢)، مكسيموس مظلوم له خمسون تأليفاً ومعرباً (١٨٥٥م)، يوسف مهنا الحداد عالم بالدينيات والتاريخ والرياضيات يعرف اليونانية والعبرانية (١٨٦٠م)، حسين الغزي الحلبي أديب (١٢٧١)، جبرائيل بن يوسف المخلع أديب يحسن الفارسية ترجم الكلستان للشيخ سعدي مطبوع (١٨٥١م)، عبد القادر العمادي فقيه (١٢٢٨)، عبد الغني السقطي عالم مفنن (١٢٣٦)، عمر الغزي فقيه (١٢٧٧)، قاسم الحلاق فقيه مفسر محدث شاعر ناثر (١٢٨٤)، كمال الدين الغزي عالم مؤرخ شاعر صاحب التذكرة (١٢١٤)، محمد

المخللاتي فرضي موقت فلكي (١٢٠٧)، نجيب القلعي فقيه (١٢٤١)، محمد عابدين صاحب التأليف والرسائل المتقنة منها حاشيته المشهورة ورسائله وفتاويه وكلها مطبوع، عبد الغني الميداني عالم بالأصول والفقه وفنون العربية (١٢٩٩)، عبد السلام الشطي شاعر فقيه (١٢٩٥)، مصطفى المغربي التهامي عالم أديب شاعر (نحو سنة ١٢٨٠)، عبد القادر الحسني الجزائري عالم بالتصوف والأخلاق وله شعر ونثر وتأليف ومنها المواقف ورسائل منها مطبوع (١٣٠٠).

ونشأ في حلب محمد نور الترماني (١٢٥٠) له عدة شروح على بعض كتب الآلات والأدب وله شعر وأخوه أحمد الترماني (١٢٩٣) خلف عدة تأليف وحواش وشروح ومنها كتاب الجامع في الكيمياء، رزق الله حسون (١٨٨٠م) كاتب شاعر ضليع بالعربية وفنونها وله رسائل جيدة، وهو أول من أنشأ صحيفة عربية بالأستانة، وفرنسيس مراش الأديب له عدة تأليف وديوان شعر (١٨٧٣م)، عمر الأنسي البيروتي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٢٩٣)، أمين الجندي الشاعر الرقيق له ديوان مطبوع (١٢٥٧)، بطرس كرامة الشاعر له ديوان مطبوع (١٨٥١م)، ناصيف اليازجي الشاعر اللغوي الأديب صاحب المقامات والديوان وغيرهما من كتب النحو والبيان وكلها مطبوعة اشتهر في هذا العصر كثيرًا (١٨٧١م)، نقولا الترك شاعر أديب له ديوان شعر وتاريخ حملة الفرنسيين على مصر والشام مطبوع وغيره، حسين بيهم البيروتي أديب له ديوان شعر (١٢٩٢)، محمد النصري كان في حدود المائتين وألف له مؤلفات كثيرة أشهرها شرح قصيدة كعب نصر الله الطرابلسي شاعر (١٨٤٠م)، أحمد البربر البيروتي شاعر عالم كبير له عدة مؤلفات طبع بعضها (١٢٢٦)، حيدر أحمد الشهابي اللبناني (١٨٣٤م) مؤرخ أديب له التاريخ المنسوب إليه المطبوع، محمد أرسلان اللبناني له مؤلفات في الفلك والتاريخ

(١٨٦٤م)، ناصيف المعلوف الأديب الكاتب ألف ٣٦ مؤلفاً طبع أكثرها، نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي له كتب في التاريخ والأدب، عمر اليافي متصوف له ديوان شعر (١٢٣٤)، محمد الدباغ له عدة مصنفات (١٢٨٨).

العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر

وفي النصف الثاني من هذا القرن بدأت تبشير العلوم الرياضية والطبيعية، وكانت انحطت انحطاطاً أشبه بالاندراس، تقبل على الشام من طريق الديار المصرية، بواسطة النهضة التي انبعثت بعناية محمد علي عزيز مصر؛ فإنه أنشأ مدارس للهندسة والطب والترجمة والفنون الجميلة والحربية والبحرية وغيرها، فتخرج فيها كثير من المصريين وبعض أفراد من الشاميين، وأخذت تسري من أنوارها أشعة نافعة إلى الشام.

ثم إن الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية في الأستانة ولا سيما المدرسة الحربية والطب، وبعد حين أحدثت مدارس الملكية والحقوق والزراعة والهندسة فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية، فكان ذلك إلى آخر عهد العثمانيين في ديارنا من العواقب الكبيرة في سبيل نشر العلم؛ لأن الدولة كانت تحرص على نشر لغتها، وأبناء العرب أو من يريد أن يسلك مسالك الجيش والطب والإدارة والهندسة والزراعة أرغمتهم الحالة على التخلي عن لغتهم، فجاء أكثرهم ضعافاً حتى في العلم الذي أخصوا فيه، وكانوا أضعف من ذلك في لغتهم، فلم ينبغ منهم رجال اشتهروا وأفادوا كما نبغ من مدارس الوطنيين النصاري مثل مدرسة عين ورقة الأكاديمية التي أنشئت سنة (١٧٨٩م) ونبغ فيها كثير من البطارقة والمطارنة والكهنة من الموارنة في القرن التاسع عشر. قال الدبس: ومن هذه المدرسة خاصة انبعثت علوم اللغتين العربية والسريانية بين نصارى الشام وغيرها من العلوم والفنون، ومثل مدرسة

كفتين للروم الأرثوذكس، والمدرسة الوطنية في بيروت، والجامعة الأميركية في بيروت التي علمت زمناً طويلاً العلوم بالعربية ومنها الطب، فجاء من تلامذتها أفراد خدموا الآداب العربية.

ونشأ في لبنان بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط، وكان يعرف العربية والسريانية والإيطالية واللاتينية والعبرانية واليونانية، ووجد من خديوي مصر إسماعيل وغيره من ملوك المسلمين وأمرائهم تنشيطاً على إتمام عمله، كما نشأ في تلك الحقبة أحمد فارس الشدياق اللغوي المحقق صاحب جريدة الجوائب وكتاب الساق علي الساق وكشف المخبا والجاسوس على القاموس وسر الليال وغيرها وكلها مطبوع، ووجد هذا من عزيز مصر وباي تونس وملك باهوبال تنشيطاً كثيراً. وهنا يقضي الواجب أن نشير بالتكريم للأسرة العلوية المصرية أسرة محمد علي الكبير، فإن رجالها في كل دور قد تقلبوا آثار جدهم الأعظم في الأخذ بأيدي المعارف وبر المؤلفين والصحافيين والشعراء فعدوا من دعائم النهضة العربية الأخيرة والعاملين على الأخذ بأيدي العاملين فيها.

العلوم والآداب في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر

ومن علماء القرن الأخير والذي بعده في دمشق سليم العطار محدث فقيه محمود الحمزاوي فقيه أديب له مصنفات، بكرى العطار إمام العربية ولا سيما النحو والتصريف، ثم الفقه والحدث، حسن البيطار فقيه متفنن، محمد الطنطاوي عالم بالعربية والأصول والفقه والفلك والميقات، حسن الشطي فقيه، محمد الجوخدار فقيه، عبد الله الحلبي فقيه أصولي، أحمد الخلواني شيخ القراء، محمد الخاني متصوف فقيه، عمر العطار فقيه عالم

بالعربية، عبد الرحمن الطيبي فقيه، محمد المرعشلي أديب وفقيه، عبد الرحمن البوسنوي عالم بالعربية، أحمد فوزي الساعاتي عالم بالعلوم المادية والدينية، عبد المجيد الخاني أديب شاعر، عبد الحكيم الأفغاني عالم بالفقه والأصول، ملا عيسى الكردي فقيه أصولي، محمد محمود الأتاسي فقيه أصولي، علاء الدين عابدين فقيه أديب، صالح قنبار عالم بالتربية والطب له عدة رسائل وكتب، عبد الله السكري فقيه، محمد المنيني فقيه محدث، وفي بيروت يوسف الأسير عالم بالعربية والفقه وله شعر وأدب وعدة تأليف نشر العلوم الإسلامية والعربية بين نصارى لبنان (١٣٠٧)، إبراهيم الأحذب عالم بالتفسير والحديث والأصول والفقه واللغة والأدب، وله عدة تأليف ثلاثة منها دواوين باسمه ونحو ثمانين مقامة ونظم مجمع الأمثال للميداني وشرح رسائل بديع الزمان وهما مطبوعان وغير ذلك من المقالات في الصحف (١٣٠٨)، أمين الشميل حقوقي مؤرخ له عدة تأليف (١٨٩٧)، إسكندر أبكاريون له تأليف في التاريخ (١٨٨٥)، يوحنا ابكاريوس (١٨٨٩) له قطف الزهور في تاريخ الدهور ومعجم إنكليزي مطول، محمد الحوت (١٢٧٦) فقيه محدث له كتاب في الحديث، عبد الغني الرافي الطرابلسي (١٣٠٩) شاعر متصوف، محمد الميقاتي الطرابلسي (١٣٠٢) شاعر، إبراهيم الحوراني الحمصي (١٩١٦م) أديب رياضي فلكي له عدة تأليف ومقالات وتحقيقات، سليم كساب لغوي أديب له عدة مصنفات (١٩٠٩م)، ميخائيل مشاقة الدمشقي رياضي فلكي موسيقي مؤرخ من رجال الإصلاح الديني في النصرانية (١٨٨٩م) له تأليف، سليمان الصولة شاعر هجاء له ديوان (١٨٩١م)، يوسف الدبس (١٩٠٩م) أديب له تاريخ سورية المطبوع، جرجس همam رياضي أديب له المعجم العربي الإنكليزي والكتب المدرسية والهندسية (١٩٢٠م)، سعيد الخوري الشرتوني لغوي أديب صاحب معجم أقرب الموارد وغيره من الكتب اللغوية والأدبية كان

متقناً للغة الإسلامية، رشيد الشرتوني أديب نحوي كاتب له عدة كتب مدرسية وغيرها، رشيد الدحداح اللبناني له عدة تأليف في التاريخ ونشر تأليف فيه (١٨٨٩م)، أديب إسحاق كاتب مترسل شاعر سياسي (١٣٠٣)، إبراهيم سركيس أديب له بعض الرسائل والمصنفات، سليم شحادة مؤرخ وهو أحد مؤلفي كتاب آثار الأدهار المطبوع، أنطون الصقال شاعر كاتب، قاسم أبو الحسن الكسبي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٣٢٢)، حسين الجسر فقيه أديب له عدة مصنفات منها الرسالة الحميدية في الرد على الدهريين وغيرها من المقالات في الصحف ومنها في الأخلاق والأدب (١٣٢٧)، يوسف ضيا الخالدي المقدسي له عكاظ الأدب والتحفة الحميدية في اللغة الكردية، روجي الخالدي له عدة تأليف منها علم الأدب عند الإفرنج والعرب، طاهر الجزائري العالم بالتفسير والحديث والفقه والأصول الفلسفة والتاريخ والأدب واللغة له بضعة وعشرون مصنفاً مطبوعة في فنون مختلفة وله التفسير ومعجم اللغة وغيره مما لم يطبع وكنائش فيها آراؤه ومطالعته يحسن الفارسية والتركية ويلم بالحبشية والسريانية والعبرانية والفرنسية (١٣٣٩)، محمد المبارك متصوف أديب لغوي شاعر ناثر له رسائل أدبية مطبوع بعضها (١٣٣٠)، محمد مرتضى متصوف فقيه أديب كاتب شاعر، عبد الرزاق البيطار فقيه أديب له تاريخ رجال عصره مخطوط، جمال الدين القاسمي فقيه محدث أصولي أديب شاعر كاتب له تفسير القرآن وعدة كتب في الإصلاح الإسلامي وتاريخ دمشق وبعضها مطبوع (١٣٣٢)، عبد الله الحموي شيخ القراء، شاكر الحمزاوي فقيه، شبلي شميل فيلسوف كاتب أديب طبيب له تأليف وآثار في النشوء والارتقاء والفلسفة، جرجي زيدان مؤرخ كاتب قصصي له عدة مصنفات منها روايات تاريخية وتاريخ التمدن الإسلامي وآداب اللغة العربية (١٩١٤)، رفيق العظم مؤرخ اجتماعي كاتب له عدة

مصنفات منها أشهر مشاهير الإسلام (١٣٤٣)، سليم التنير كاتب باحث له تأليف ورسائل.

ومات من الفقهاء خالد الأناسي، أبو الخير عابدين، أمين السفرجلاني أديب له بعض تأليف، أحمد الزويتيني الحلبي (١٣١٦) الفقيه، أحمد صلاح، محمد الزرقا، صالح الرافعي، أحمد الصديقي، طاهر الحسيني، يوسف الإمام، خليل التميمي، محيي الدين الحسيني، إبراهيم أبو رباح، بشير الغزي، مصطفى كرامة، صلاح الدين تفاعحة، محيي الدين اليافي، حسين العمري إلى أمثالهم.

وهلك في هذا القرن من الشعراء والكتاب والكاتبات والأديبات سليم قصاب حسن شاعر له ديوان مطبوع، نجيب حداد شاعر كاتب قصصي (١٨٩١م)، داود عمون شاعر أديب، يوسف خطار غانم، محمد الهاللي شاعر، إسكندر عازار، نعوم شقير له مؤلفان في تاريخ سينا والسودان مطبوعان، أمين حداد، نعوم لبكي، أنطون رباط، أبو الخير الطباع، محمد علي حشيشو، جرجي ديمتري سرسق، فرح أنطون له عدة تأليف وترجمات مطبوعة، إسكندر شاهين له عدة كتب مترجمة، شاعر شقير كاتب شاعر، محمد أرسلان، عمر حمد شاعر، عمر اليافي، محمود الشهابي شاعر، نقولا رزق الله، جميل مدور، نوفل نوفل، أمين الشميل، صلاح الدين القاسمي، شاعر الخوري له كتاب هزلي، أحمد الصابوني له تاريخ حماة مطبوع، محيي الدين الخياط كاتب له عدة كتب مدرسية، حسن رزق، حسن بيهم كاتب متفنن، سليم سرقيس كاتب هزلي، عبد الوهاب الإنكليزي، سليم الجزائري، شكري العسلي له عدة رسائل اجتماعية وأدبية، رشدي الشمعة شاعر كاتب، أحمد طيارة، عارف الشهابي، عبد الغني العريسي، جرجي حداد، سعيد عقل، باترو باولي، رفيق رزق سلوم، فيليب الخازن، فريد الخازن، محمد المحمصاني عبد

الحميد الزهراوي، عبد القادر المؤيد، حسين وصفي رضا، بشارة زلزل له عدة كتب في الطب وغيره، محمد عبد القادر الحسني، محيي الدين الحسني له مؤلفات، شاكرون، سليم بستر، سليم تقلا، سليم عباس، سليم البستاني، أسعد الشدودي، عبد الغني الرافي، شاكرون، ناصر، خليل باخوس، سليم باز، سليم جدي، فليب جلال، نجيب حبيقة، يوسف حرفوش، أمين الخوري، يوسف دريان.

وهلك من النساء في العهد الأخير عفيفة كرم، وردة اليازجي، عفيفة أوزون، زينب فواز، وردة الترك، هيلانة البارودي، سلمى قساطلي، هنا كسباني، مريانا المراس، سارة نوفل، فريدة عطية.

المعاصرون من العلماء والأدباء

ومن شيوخنا وكهولنا وشبابنا ونسائنا من اشتغلوا بالعلوم والآداب على اختلاف أنواعها وممن اشتهر منهم:

١- علماء الدين والفقه والقضاء: سليم البخاري، رشيد رضا، بدر الدين الحسني، عبد الله العلمي، عبد الله الجزار، مسعود الكواكبي، سعيد العرفي، سعيد مراد الغزي، مصباح محرم، عبد المحسن الأسطواني، أحمد عباس، محسن الأمين، جرجس صفا، عطا الكسم، سعيد النعسان، سعيد الباني، بهجة البيطار، طاهر الأتاسي، يوسف النبهاني، محمود منقارة، عبد الكريم عويضة، عبد اللطيف نشابة، عبد الحميد الجابري، عبد القادر بدران، عبد القادر القصاب، طاهر المنلا الكيالي، أحمد النويلاتي، خالد النقشبندي، نجيب قباني، عبد الكريم حمزة، محمد الأسطواني، محمد الكستي، إبراهيم هاشم، سليمان أحمد، طاهر أبو السعود، يوسف الإمام الحسني، محيي الدين الخاني، عيسى العكرماوي، منيب هاشم، نمر الداري فهمي الحسيني، عادل زعيتر، أحمد الزرقا،

نجيب أبو صوان، مصطفى برمدا، حسن الشطي، عوني عبد الهادي، معين الماضي، يوسف الخيري، أمين عز الدين، إسماعيل حافظ ميخائيل عيد البستاني، مصطفى الخاني، مصطفى نجا، فوزي الغزي، فتح الله أديب، علي الكيالي، عبد المجيد المغربي، محمد الحسيني، محاسن الأزهرى، توفيق الدجاني، خليل الخالدي.

ومن المتفردين بالقراءات في دمشق: محمد الحلواني، عبد الله المنجد، أحمد دهمان، محمد القطب، عبد الرحيم دبس وزيت وغيرهم.

٢- العلوم الفلسفية والمادية: يعقوب صروف، منصور جرداق، جودت الهاشمي، مصباح حولا، فارص الخوري، سعيد البحرة، رشدي سلهب، درويش أبو العافية، شكري خليفة، أمين معلوف، عبد الوهاب المالكي، إميل خاشو، يوسف أفتموس، إبراهيم الدادا، وجيه الجابري، فيكتور كورنلي، إسماعيل باقي، أحمد رستم، مصطفى الشهابي، وصفي زكريا، جمال الفراء، يوسف قدورة، محمد الترماني، صلاح الدين الكواكبي، مصطفى تمر، هاشم الفصيح، عبد الوهاب القنواني، أسعد الحكيم، سعيد شقير، أحمد حمدي الخياط، مرشد خاطر، جميل الخاني، حسني سبج، محمد محرم، شوكة الشطي، جميل صليبا، جعفر الحسني وغيرهم.

٣- العلوم الاجتماعية والتاريخية والحقوقية: شبيب أرسلان، فارس نمر، داود بركات، خليل ثابت، عيسى إسكندر المعلوف، نقولا حداد، محمد رستم حيدر، نسيم صبيغة، سعيد حيدر، جرجي يبي، عمر الصالح البرغوثي، خليل طوطح، ميخائيل ألوف، قسطنطين الباشا، سليم شحاده، نجيب صليبا، رفيق التميمي، أسد رستم، راشد طيارة، أسعد منصور، سعيد المحاسني، زكي الخطيب، عارف الخطيب، قسطنطين زريق، حبيب

الخوري، روجي عبد الهادي، حسن فهمي الدجاني، أحمد سامح الخالدي، ساطع الحصري، حسن يحيى الصبان وغيرهم.

٤- الأدباء: عبد الله البستاني، لويس شيخو، أسعد خليل داغر، سليم الجندي، إسعاف النشاشيبي، عارف النكدي، كامل الغزي، قسطاكي الحمصي، الخوري بطرس البستاني، مصطفى الغلاييني، رشيد عطية، أمين ظاهر خير الله، حنا صلاح، رشيد بقدونس، أنيس المقدسي، جبر ضومط، جرجس منش، أحمد رضا، سليمان ظاهر، عزة دروزة، بندلي الجوزي، عبد الرحمن سلام، عبد القادر المغربي، عبد القادر المبارك، إبراهيم منذر، أنيس الخوري المقدسي، ميخائيل صقال، نجيب ميخائيل ساعاتي، جرجس شلحت، سامي جريديني، حسني عبد الهادي، راغب الطباخ، سامي الكيالي، عز الدين علم الدين، عبد الله النجار، عمر الأتاسي، أيفانيوس زائد، علي ناصر الدين، عبد اللطيف صلاح، عبد الله مخلص، عمر الزعني، حبيب كحالة، عارف الزين، فيليب طرازي، راجي الراعي، جميل معلوف، عمر الفاخوري، جرجي باز، أحمد صلاح الدين، أحمد عبد المهدي، يوسف زخم، جميل الشطي، صبحي القوتلي، توفيق ناطور، أنطون جميل، نزيه المؤيد، لويس معلوف، شكري الجندي، وصفي الأتاسي، أمين الحشيمي، أنيس النصولي، أديب التقي، جودت الكيال، محمد الداودي، أحمد عبید، حمود الزبرؤتي، منح هارون، فائز الغصين، سامي العظم، خالد الحكيم، وجيه بيضون، نجيب الرئيس، شريف عسيران، أديب الصفدي، أديب فرحات، سعيد الصباغ، جمال الملاح، أديب وهبة، عبد الغني باجقني، عارف التوام، فوزي العظم، حسن الحكيم، إلياس القدسي، عبد الله رعد، صبحي أبو غنيمة، ميشل بيطار، إبراهيم حرفوش، توفيق حمادة، عبد الله خير، سليم خطار الدحداح، حكمة المرادي، يوسف اليان سركيس، يوسف صادر، أنطون صالحاني،

جودت المارديني، نعيم صوايا، إسكندر طحيني، بولس عبود، إميل عرب، يوسف علوان، يوسف غصوب، جبرائيل قرداحي، يوسف قيقانو، نجيب مخلوف، فيليب مسك، أمين مشحور، حلمي مصري، عيسى بندك، شكري كنيدر، عبد الله صفير، حبيب زيات، أحمد عمر المحمصاني، محمد علي الطاهر، يوسف حيدر، أنطون شعراوي، توفيق الحلبي، توفيق جانا، أسعد ملكي، رزق حداد، عباس أبو شقرا، طه مدور وغيرهم.

٥- الكتاب: عبد الباسط فتح الله، خليل زينية، خليل سعادة، خليل سعد، سامي قيصري، نعوم مكرزل، يوسف الخازن، عبد الله الأسطواني، نجيب شاهين، إميل زيدان، إبراهيم سليم النجار، يوسف العيسى، بدر الدين النعساني، عادل أرسلان، محمد الجسر، توفيق اليازجي، إدوارد مرقص، أمين الريحاني، مصطفى الخيري، محمد علي السراج، محب الدين الخطيب، سليم قبعين، ميخائيل نعيمة، بولس الخولي، جبران تويني، جبران خليل جبران، شحادة شحادة، أمين غريب، فؤاد صروف، سعيد أبو جمرة، يوسف البستاني، خليل السكاكيني، عادل جبر، نجيب نصار، رشدي الحكيم، عيسى العيسى، سليم ابكاريوس، أمين الكيلاني، سعيد الزهور، خليل بدوي، خليل بيدس، بطرس غالب، ناجي أديب، وجيه الكيلاني، سعيد الافغاني، صلاح الدين المنجد نجيب الرئيس، سامي كباره، جبران تونسي، خليل كسيب، على الطنطاوي، كاظم الطاغستاني، عمر الطيبي، أمين الحلبي راشد البيلاي، عبد الهادي اليازجي، فارس فياض، أحمد شاكر الكرمي، أحمد كرد علي، معروف الأرناؤط، عبد الحسيب الشيخ سعيد، نجيب اليان، إيليا زكا، نجيب شقرا، زكي مغامز وأمثالهم.

٦- الشعراء: فؤاد الخطيب، أمين ناصر الدين، خليل مطران، خير الدين الزركلي، خليل مردم بك، شفيق جبري، سليمان التاجي، عبد

الحميد الرافعي، مصباح رمضان، طانيوس عبده، إلياس فياض، سليم عنحوري، محمد الشريقي، نوفل إلياس، محمد البزم، جرجي عطية، بشارة الخوري، شبلي ملاط، أمين تقي الدين، رشيد نخلة، محمد سليمان، أسعد رستم، فخري البارودي، نسيب أرسلان، إيليا أبو ماضي، حلیم دموس، أبو السعود مراد، عبد الرحمن القصار، كامل شعيب، عارف الرفاعي، نديم الملاح، محمد الفراتي، عبد الرحيم قليلات، جميل العظم، إبراهيم الشدودي، حسين الحبال، أمجد الطرابلسي، جميل سلطان، زكي المحاسني، عمر أبو ريشة وغيرهم.

٧- الخطباء: عبد الرحمن شهنذر، أسعد الشقيري، أسعد عفيش، نقولا فياض، غريغوريوس حداد، حبيب أسطفان، أنيس سلوم، فيلكس فارس، حنا خباز، عبد الرزاق الدندشي، مصطفى الشماع، محمود النحاس، بدر الدين الصفدي، أفرام أبيض، عبد الرحمن الكيالي، سامي السراج وغيرهم.

٩- الكاتبات والشواعر والخطيبات: ماري زيادة، ماري عجمي، سارة خطيب، لبيبة هاشم، نجلا أبو اللمع، سلمى صائغ، جوليا طعمة، عفيفة صعب، عنبرة سلام، مسرة الأدلبي، ماري يني، هيلانة البارودي، فاطمة سليمان، ابتهاج قدورة، بهيجة المؤيد، خيرية ترماني وغيرهن.

تأثيرات الأجانب في التربية

من المعاهد التي خرج أناسًا بالعربية والفرنسية كلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت، وكان أول نزول الآباء اليسوعيين في الشام سنة (١٦٥٣م)، فأسسوا مدرسة عينطورا ببلبنان التي أخذها الآباء اللعازيون بعد مدة (١٨٣٤م)، وخرجت كثيرًا من الأدباء باللغة الفرنسية فقط، وقد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلمين، وهم يتلون

القرآن ولكن بدون أن يتدبروا معانيه ويفهموا إعجازه، حتى أصبح الفقيه والمحدث والنحوي والمنطقي لا يحسن كتابة سطرين إلا بصعوبة، ويتعاصى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في المفردات البسيطة إلى المعاجم، وضعف الشعر على تلك النسبة بحيث لم ينبغ إلا أفراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم أن يسمع ويدون، بل كانوا إذا أرادوا الخطب في الجوامع والمساجد يحفظون شيئاً منها لأهل العصور التي سلفت ويوردونها بدون مناسبة؛ بل إن الإجازات التي يكتبها الشيوخ وغيرها من التحميدات والتقاريظ وأدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين ويحرفونها على صورة مستكرهة، وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبز الأب لابن، وكان المفتي أبو السعود من مشايخ الإسلام في الأستانة أول من ابتدئها وأخرجها للناس، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة، كما ورثوا حوائثهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم؛ بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء للأُميين، وكم من أُمي غدا في دمشق وحلب والقدس وبيروت قاضي القضاة، أما في الأقاليم فربما كان الأُميون أكثر من غيرهم؛ لأن أخذ القضاء في دار الملك كان متوقفاً على بذل شيء من الرُشى، فيصل إليه أجهل الناس وبذلك فترت الهمم، وانصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين؛ لأن الجاهل والعالم سواء، ومن يحسن المصانعة والرشوة ويمت إليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة.

وأصبح الشعر عبارة عن شبكة يتعلم صاحبها نصبها ليتزلف بها إلى الكبراء وأرباب الدولة، والشاعر كطبال أو زامر أو قراد يغني ويلعب أمام من يعطيه دريهمات قليلة. وهناك شبكة رسمية أخرى يصطاد بها المال وهي أن من حفظ قواعد النحو والصرف في كتب لهم معينة وانقطع إلى

مدرسة من المدارس، وجاز الامتحان ست سنين على أسلوب لهم مخصوص يعفى من الخدمة العسكرية، فتعلم بذلك كثيرون، ومن فهموا ما تعلموه جاء منهم بعض فقهاء وأدباء، ثم أبطل ذلك في العقد الثاني من القرن الرابع عشر.

وبينا كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها آخذة بالأفول والإندراس، والمسلمون أو الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من أهل هذه الديار يولون وجوهم قبل المناصب الدينية والإدارية والعسكرية، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة، جعلت تدريس العربية وآدابها واللغات الحية أول بند من منهاج الدراسة فيها، فجاء من أبنائهم ومن أخذ العلم عنهم من سائر الطوائف جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب، ومنهم أفراد نزحوا إلى مصر وأميركا وتولوا الأعمال الكبرى وأظهروا آثار قرائحهم ونبوغهم ولا سيما في القرن التالي، وبطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصارى وغناء اليهود، فأصبح بالتعلم من النصارى نحة ثقات، ومن اليهود مغنون ومغنيات؛ أي أن الزمن أبطل ذاك الزعم.

الآداب في القرن الرابع عشر

اختص القرن الرابع عشر بأن تجلت فيه فائدة العلم لعامة الشعب، فصار المقتدرون من الناس يلقون بأولادهم لأي مدرسة كانت ليأخذوا العلم منها، ودبت الغيرة في نفوس المسلمين فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية وغيرها في بيروت وصيدا ودمشق وحماة وحمص وحلب وطرابلس فخرّجت هذه المدارس مئات من

المتأدين كما خرّجت المدارس الطائفية مثل مدرسة البطريركية الكاثوليكية ومدرسة الحكمة المارونية في بيروت.

وكان الفضل في هذه النهضة الشامية أولاً لمدارس لبنان وبيروت وعناية بطاركة الموارنة ومطارنتهم وأساقفتهم وقسيسهم بالعلم واللغة. أما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الأميركية أكثر من غيرها، ولو لم تُبطل تدريس العلوم العربية وتجعله إنكليزيًا لتضاعفت الفائدة التي نشأت من هذه المدرسة العالية، وكان من أستاذين من أساتذتها الدكتور فاندريك الأميركي والدكتور ورتبات الأرمني فضل على العربية بما كتبه في العلوم المختلفة باللغة العربية، وكذلك كان شأن بوست الأميركي فإنه ألف كتبًا علمية نافعة بلغتنا فعد ما، وكذلك فعل بورتر وغيره.

إن المدارس الطائفية ومدارس المرسلين من الأميركيين واليسوعيين وغيرهم من الأمم ذات المطامع في الأرض المقدسة قد جعلت التربية متلوثة، فأصبح كل متعلم يخدم الغرض الذي أنشئت له مدرسته، وانقسمت الأمة بهذا الضرب من التعلم أقسامًا، وتباعدت مسافة الخلف بين أبناء البلد الواحد، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له أثر يذكر في غابر العصور، ولأن معظم المدارس التي أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسة، فالإنجيليون أو البروتستانت تتشر دعوتهم كل يوم، واليسوعيون ينزعون منزعًا آخر في التربية الدينية والسياسية، وهكذا لو أردنا أن نعدد أسماء الجمعيات الدينية التي تعلم المسيحيين في الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين إرسالية، ومنها ما ينزع من المتعلم حب قوميته وبلاده، وكم رأينا رجالًا ونساء درسوا في تلك المدارس فجاءوا لا عرب ولا إفرنج، يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم، ولا يشعرون شعور الشامي،

بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم، ولذلك صح أن يقال: إن تلك المدارس لم تنفع النفع المطلوب، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بأن هيأت لها في هذه الديار أنصارًا.

وبينا نرى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها وشعورهم تركي صرف لولم ينفعوا الشام بشيء كثير من علمهم، نشاهد كثيرين ممن درسوا في مدارس الرهبان والقسيسين والحاخامين والمدارس العلمانية الفرنسية يكتبون الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو الروسية أو اليونانية أحسن من كتابتهم لغتهم بدرجات، وكل هؤلاء لم يستحق أحدهم اسم العالم والأديب؛ بل إن معظمهم قد اسودت الشام الجميلة في عينه، وهجرها إلى أرض أخرى. إن الشامي المتأدب في الجملة بآداب قومه يحب لغته ويغار عليها، ولذلك أسس عدة صحف ومجلات راقية في مصر والمهجر من أميركا الشمالية والجنوبية وحبب المطالعة بالعربية إلى من نزل عليهم، أو إلى من هاجروا من الشاميين بحيث لا تقل صحفنا ومجلاتنا العربية خارج الديار الشامية عن خمسين جريدة ومجلة حية، وما ندري إن كانت هذه الهمة تظل على حالتها بعد انقراض هذا الجيل، فإن الجيل الجديد من الشاميين في أميركا الشمالية والجنوبية قلما يعرف العربية؛ بل هو يتكلم بالإنكليزية أو الإسبانية أو البرتغالية. وأعظم نقص في المدارس الأميرية والطائفية والأجنبية أن الأولى تصوغ موظفين والثانية والثالثة تهين المتخرجين على معلمها إلى الهجرة، وتباعد بين أبناء الوطن الواحد وتبث مبادئ اجتماعية لا تنطبق على حالتنا.

نعم تمت بالشاميين كما قلنا مرة (المقتبس المجلد الخامس) دواعي التفريق في الوطنية وضعفت ملكتها فيهم بقوة المدارس غير الوطنية في ديارهم، فإن كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما أدخلته إليها من النور، فقد أضرتها بانحلال عقدة الوطنية، فمدارس الأميركيين والروس

واليونان والفرنسيين والإنكليز قد أصلحت وأفسدت، أصلحت بتلقين من تخرجوا فيها شيئاً من معارف الغرب، وأضعف في نفوسهم حب الوطن بتحييها إليهم أوطاناً غير أوطانهم، وتعريفهم إلى رجال غير رجالهم، والعامل من حرص على نفع أمته قبل كل نفع، وانتفع بما عنده قبل أن يتطال إلى ما عند غيره، ومن زهد في لغة آبائه وجدوده كان حريّاً بالزهد في وطنه ووطنيته، واللغة والوطن يصح أن يكونا اسمين لمسمى واحد. جنت مدارس الأجانب والحكومة أعظم جناية؛ لأن المتخرجين فيها ومعظمهم من الذكاء على جانب لم ينفعوا الدولة ولم ينفعوا الأرض التي ولدوا فيها. إن المدارس غير العربية في الشام أشبه بالسارق الذي يسرق الأعلاق ونفائس المتاع، أستغفر الله بل إن من يسرق فلذات الإكباد، ليخرجها على ما أراد، أشق على النفس وطأة، وأعظم في المغبة أثراً. وهل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال والرجال؟ أوليست الأرواح أئمن من كل بضاعة، وهل أعز من الولد على قلب أبويه. إن المدارس التي تعلم على غير الأسلوب الوطني هي التي تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها، وناهب الروح ماذا يدعى في الشرع والعقل، ولم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى تتساوى في عيونهم اللغات والعناصر كلها، وتتجرد أمة فتفنى لإحياء غيرها، وتقلل جنسيتها لتزيد سواد أخرى، ولا تهمها دارها وتريد هدمها لتعمر بأنقاضها دار جارها.

في نحو سنة (١٢٧٨) فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية وهي أول مدرسة أميرية أنشئت في حلب. وأنشأ^(١) مدحت باشا في دمشق سنة (١٢٩٥هـ) ثماني مدارس ابتدائية للذكور والإناث ودار صنائع، وأسس مثل ذلك في أعمال ولايته الواسعة، وما برحت المعارف مذ ذاك العهد

(١) من تقرير لنا في إصلاح المعارف العمومية في ١١ ربيع الأول سنة ١٣٣٩-٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٠.

تعلو وتسفل والحكومة لا تطلب من المدارس الابتدائية والثانوية إلا أن تُخرج لها طبقة من الموظفين ملكيين وعسكريين يكونون أتراكًا بالسنتهم لا بقلوبهم، عثمانيين بتربيتهم لا بأصولهم، وقد أخذ دعاة تترك العناصر يقاومون العربية سرًا، فما هي إلا أعوام حتى أصبح معظم الدارسين في مدارس الحكومة يخرجون بعد درس عشر أو خمس عشرة سنة، وهم لا يحسنون لغتهم ولا لغة الدولة الرسمية،

فضلاً عن اللغة الفرنسية التي كان تعلمها إذ ذاك رسميًا في الظاهر صوريًا في الحقيقة، على مثل ما كانت اللغة العربية في مدارس الحكومة، وكان يندر بين من تخرجوا في هذه المدارس من يعاني الصناعات الحرة، ومعظم من أتموا تعلمهم في مدارس الحكومة العثمانية نشأوا مستعدين للوظائف فقط.

وما فتئت مدارس الحكومة بعد خمسين سنة من تأسيسها غير وافية بالغرض من بعض الوجوه، وجعل التعليم بالعربية عقبى خروج الدولة العثمانية من هذا القطر، وروحها لم تبرح تلك الروح التركية؛ لأن معظم المعلمين ممن تعلم بالتركية وتخلق بالأخلاق التركية، وقد حاولت إدارات المعارف في الديار الشامية نزع الروح القديم وتنشئة المعلمين نشأة عربية، وليس في الوسع أن يشيب المرء إلا على ما شبَّ عليه، وفاقده الشيء لا يعطيه، ولم تهتد مدارس الحكومة حتى اليوم إلى إيجاد مثال من التربية يلتئم مع ماضي الأمة العربية وينفعها في حاضرها ومستقبلها، وتغذية العقول غذاءً كافيًا ينفعها في استخراج ثمرات الأرض وكنوزها والتفنن في صنعها ووضعها، وتجديد برامج التعليم من الزوائد التي يستغنى عنها في باب تربية الفتاة والصبي. أما التعليم الديني عند المسلمين فهو أحط تعليم، أصيبوا بذلك بعد خراب المئات من المدارس الدينية في القطر وأكل أوقافها، وقد تغافلت الدولة التركية عن إنهاضها،

ولم يتهياً لها في الدور الحديث من يفكر حقيقة في إصلاحها، وإذا درس المشايخ الدروس النظامية، وتأهلوا للقضاء والفتيا والتعليم أهلية حقيقية، تنحل بتعليمهم التاريخ والرياضيات والطبيعات والاجتماعيات مشاكل كثيرة. ومن العجيب أن مدينة كدمشق لا يقل سكانها عن ثلاثمائة ألف نسمة كان فيها في الثلث الأول من القرن العاشر نحو ثلاثمائة مدرسة ومعهد مختلفة الشكل - عدا الكتابات الملخقة بالجوامع - تقرأ فيها دروس العلم والأدب والطب والهندسة، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة، ولذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تضحك وتبكي، وبلغت أكثر وظائف الوعظ والتدريس والخطابة والإمامة من السخف ما نسأل الله معه السلامة.

وقد جبرت حلب هذا النقص فتولى مفتيها بمعاونة ناظر أوقافها كبر هذا الأمر، فوضع برنامج لتدريس العلوم الآلية والدينية مدة اثنتي عشرة سنة، ونزل الطلبة في المدارس: المدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية والشعبانية والقرناصية والإسماعيلية، وربطت لهم رواتب تعاونهم بعض الشيء على ما هم بسبيله، يتقاضونها من أوقاف تلك المدارس ويقرأ الطلبة اليوم على أساتذة تلك المدينة على نظام في الجملة ويرجى أن يكون منهم علماء دينيون ومتأدبون.

أما علماء الدين عند المسيحيين والإسرائيليين فأخذوا يتعلمون في مدارس لهم نظامية في روسيا أو إيطاليا أو أميركا وغيرها فلا يرقى في الأغلب إلى الرئاسة الدينية عندهم إلا من توفرت فيه شروط العلم والنباهة، ويكون على الأغلب بانتخاب أقرانه، ولذلك جاء البون شاسعاً بين عقلية علماء الدين من المسلمين وعقلية غيرهم من أرباب الأديان، وغدا أرباب الإنصاف يقولون بالرئاسة الدينية في الإسلام على النحو الذي هي في النصرانية؛ لأنه ثبتت فوائدها في تثقيف العامة وجمع كلمة

الخاصة، ولأن الحكومات ليس من شأنها أن تعلم إلا البسائط العامة المشتركة، والأمور الأخرى من شأن زعمائها الذين تعتقد فيهم صلاحها. ومن أغرب الحالات أن مدارس الحكومة في جميع المقاطعات الشامية لا يتعلم فيها غير المسلمين، أما سائر الطوائف فلا يعتمدون في تعليم أبنائهم على غير مدارسهم أو على مدارس المبشرين. وبهذه الطرق المختلفة في مناهج التربية يستحيل أن يجتمع أبناء الوطن على مقصد واحد؛ لأن كل فرد يتعلم النفرة من مخالفه في معتقده، وخصوصًا في مدارس بعض الرهبنات التي تهزأ بالإسلام والعرب، وتحرف التاريخ الصحيح ولا تعلم منه إلا ما ينطبق مع رغائبها، ولا يفيد شيئًا في تكوين الوطنية والقومية، ولو اتحدت التربية. واشترك جميع أبناء الشام في التنافي بها والاعتماد عليها، لا تلبث هذه الأمة خمسين سنة أن تخرج

سماؤها سلسلة طويلة من الرجال يرفعون مستوى العقل فيها، ارتفاعه عند أمم الحضارة في الغرب، ويؤثرون فيها كما أثر أجدادنا في مجموع الحضارات الحديثة. وعندنا أن لا نهضة في الأخلاق والعلم والشئون الاقتصادية والاجتماعية إلا إذا تعلم المسلمون تعليمًا صحيحًا؛ لأنهم ستة أسباع السكان، والثروة الثابتة ملكهم، وهذا لا يتم إلا إذا تعلم أبناء غير المسلمين مع أبناء المسلمين تعليمًا وطنيًا واحدًا.

الجامعات والكليات

احتفل الصهيونيون سنة (١٣٤٣م) بإنشاء جامعتهم العبرية في القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية ولا تمضي خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية والمدنية اليهودية من مراقدتها، كما انبعثت منذ القرن الماضي في بيروت شعلة المدنية الأميركية والمذهب الإنجيلي من

الجامعة الأميركية، وانتشرت المدنية الفرنسية والكتلكة من كلية القديس يوسف اليسوعية.

وفي (١٥ حزيران ١٩٢٣م) أسست في دمشق الجامعة السورية وهي ذات فرعين الطب والحقوق لتكون جامعة عربية للشام بالمعنى الذي يفهمه العلماء من الجامعات ثم أضيفت إليها شعبة الآداب وألغيت بعد سنين، وما زالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب والحقوق؛ لأن معظم المدرسين من الطبقة التي لا تقيم للعربية وزناً، فقد تخرجت في مدارس الترك لتكون من الموظفين في الحكومة العثمانية، ولم تُعن بالمطالعة والبحث ولا بالتأليف والترجمة، وبعض الشهادات التي كان العثمانيون يعطونها من مدارسهم مشهور أمرها، ومن الغريب أن توسد هذه الأعمال العلمية الجليلة إلى أناس هم أترك في تربيتهم وأفكارهم ومنازعتهم في صميم بلاد العرب، وفي جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية. ويرجى إدخال الإصلاح المنشود إلى هاتين المدرستين العاليتين إذا وُسدت مناصب التعليم فيهما إلى كفاة، يحسنون العربية إحسانهم العلم الذي يدرسونه وأن تصقل أُماليهم بأيديهم صقلاً متقناً بحيث تصدر دروسهم عن علم أتقنوه وتمثلوه وهضموه وصار لهم ملكة خاصة، لا مترجمة في الأكثر عن التركية ترجمة جذماء عوجاء كما يفعلون إلى اليوم، ومتى كانت اللغة التركية لغة علم وعنها يؤخذ في مثل هذا العصر، والمعلوم أن لغات العلم ثلاث؛ الإنكليزية والفرنسية والألمانية ليس إلا، ومتى كانت تربية الأعاجم تصلح للأمة العربية التي يجب أن تتكون بحسب تاريخها ومنافعها الحاضرة والمقبلة. وبعد عشرين سنة مضت على هذا التدوين

ارتقى مستوى التعليم في الجامعة السورية وارتقت اللغة العربية فيها باعتزال من ربوا تربية تركية ووسد إليهم أمر التعليم لأول إنشائها وجاء

أساتذة أتقنوا العربية وآدابها وهم اليوم يلقون دروسهم بلغة أقرب إلى الفصحى وقد وضعوا التأليف في الطب والحقوق بلغة عربية مقبولة.

ولا سبيل إلى الانتفاع بالجامعة السورية نفعا حقيقيا يتفق مع شهرة الديار الشامية القديمة بالعلم -إلا إذا تمت فروعها فأنشئت فيها مدرسة للآداب وأخرى للعلوم وثالثة للإلهيات، وبذلك تتم فروعها وتنبعث منها أنوار الحكمة المشرقية والمغربية، ولا غضاضة علينا إذا جئنا من مصر وديار الغرب بعلماء أخصائيين في الفروع التي لا نحسنها من ضروب العلم، نتعلم منهم طريقتهم في البحث والدرس والتحليل والتركيب، فالقطر المصري وهو أسبق منا في العلوم ما زال إلى اليوم يأتي من الغرب بعلماء يوسد إليهم الإدارة والتعليم في جامعته. وعلى ذكر القطر المصري لا بأس بأن نشير إلى أن المتعلمين من الشاميين ما برحوا يفرعون إلى مصر منذ أواخر القرن الماضي يخدمون الآداب ويرزقون منها، فكان لمصر الفضل على الشام وبنية لأنها كانت منبعث قرائحهم. وكان في هذه المقايضة العلمية بين الشام ومصر من الفرائد ما لا يمكن أحدا جهله.

وبعد ذلك يرجى أن لا يضيق كثيرا نطاق اللغة العربية، بعد أن رأى الناس أمرها يضعف الحين بعد الآخر في الغرب والجنوب، وهي إلى ضئولة في الشرق والشمال والوسط على ما يبذله المجمع العلمي العربي منذ سنة (١٣٣٧هـ) من العناية بنشرها وتهذيب ألفاظ الكتاب وتراكيبيهم، والأخذ بأيدي المؤلفين والمترجمين، وتحبيب المطالعة إلى الجمهور، وتعليمه في محاضرات ودروس عامة، وعرض آثار مدنية الأسلاف على أنظاره لبعث عقليته من رقتها. وإذا توفرت الجامعة السورية العربية على صياغة علماء إلهيين وعلماء مدنيين وأدباء ومهندسين وطبيعيين

وكيماويين وزراعيين وأطباء وحقوقيين وأثرين يعرفون كيف يبحثون ويعلمون، نخدم المدنية خدمة حقيقية.

الإخصاء

وبعد فإن أهم ما ينبغي صرف العناية إليه اليوم نشر العلوم الإنسيكلوبيدية، أي المشاركة في العلوم المتعارفة، ثم الانقطاع إلى فرع واحد؛ أي إلقاء النظر على المعارف التي تنير الفكر من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والتاريخية والأدبية ثم معالجة موضوع واحد: «إذا كانت القرون الوسطى قرون التعميم في التعليم، فإن هذا العصر عصر التخصص. فقد اتسعت معارف البشر النظرية والعملية فدعت الحاجة إلى أن يقسموها بحسب استعدادهم وحاجاتهم إلى أقسام ينقطع إليها أفراد، فالأصول من المعارف هي المعلومات العامة وتفرعاتها هي الإخصائيات. كان بادئ بدء كل شيء مفهوماً في الفلسفة، فكانت لفظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم، وتنقسم إلى قسمين: المحسوسات والمعقولات، ودعينا علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة. أما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيمًا معقولاً ولا جارية على طريقة معقولة، وكان أرباب الأفكار يحتقرونها فلا يمارسها إلا الصعاليك يخلفون في تعلمها آباءهم، بدون وقوف على القوانين الميكانيكية أو الطبيعية التي كان يعملون بها على الدوام.

ثم حسنت الحال بالتدريج ودخلت الأعمال في طور نظام، وانتظمت العلوم الرئيسة؛ لا سيما الآداب والفنون وعلوم النظر والعلوم العملية أي التجارة والصناعة والحرف، ونشأ الإخصاء في كل فرع من فروع هذه الطبقات. فالطبيب مضطر إلى تعلم أمور كثيرة، ولا يخصص في تعاطي فرع واحد إلا في المدن، أما في القرى فيمارس كل فرع من فروع

الأمراض الباطنية والخارجية. وهكذا الحال في الأعمال التجارية والصناعية فإن كل حرفة أو مهنة تنقسم إلى أقسام.

وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الإخصاء حتى ما يلزم الطاهي والبائع من المعارف، فأصبح من الضروري بالنظر لتكاثر أعمال البشر، أن يزيد أبدأ الإخصاء في كل علم وشأن. وإذا نظرت إلى الإخصاء من حيث العلم فإنه دليل الكفاءة وبدونه لا يكون عالم، فإن المبادئ الأولية من جميع العلوم هي ولا شك نافعة لكل الناس، ومتى حاز المرء قسطاً من هذه العلوم ورأى أن يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذي سينصرف إليه وبدون ذلك يتقدم المرء في عمله تقدماً بطيئاً، ويخلط ويبقى متوسطاً وإلى ضعف. والإخصاء ضروري أيضاً في العلم العملي أي في المعامل والأعمال اليدوية وذلك للسرعة في الإنتاج، وبهذا يرى أرباب معامل الإبر والخياطة في لندرا أن في تقسيم الأعمال اقتصاداً كبيراً.

إذا قسمت الأعمال وأخصى المشتغلون بالعلوم وتوسعوا فيها، فالإخصاء يؤدي ولا جرم إلى الضعف الأدبي، وذلك أن العاملات مثلاً إذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر، كأن يتوفرن على إدخال الخيوط في إبرهن فإنهن لا يفقدن شيئاً من حواسهن، ولكن ثبت أنهن يفقدن حاسة النظر في أقرب وقت. أما القوى العقلية والقوى المماثلة لها فإنها تتأذى أيضاً. ومن ينصرفون في العلم المحض إلى الإخصاء ككثير من الرياضيين والمهندسين والفلكيين يعيشون في العالم كأنهم ليسوا منه، ويدهشون من عاصروهم بغربة أخلاقهم، وتشتت أفكارهم، وبالجمله فيقضي على كل مخصص في العلم أو في الصناعة أن يحرز حظاً من المعارف لأول أمره، وأن يخصص في علمين أو ثلاثة، فإذا مارس أحدها أراح غيره اهـ.

الصحافة العربية

نشأت الصحافة، أي نشر صحف الأخبار، بعد انتشار فن الطباعة الحديثة عام (١٥٦٦م) في مدينة البندقية، ولم تلبث أن انتشرت في أوروبا، ولكنها لم تُعرف في ديار العرب إلا في سنة (١٧٩٩م) أنشأها في مصر نابليون بونابرت، ولم تصل إلى الشام إلا في أوائل منتصف القرن التاسع عشر، ففي بدء سنة (١٨٥١م) أنشأ المرسلون الأميركيون في بيروت أول مجلة عربية اسمها «مجموع فوائد». وللشاميين الفضل الأول في إنشاء الجرائد، جمع جريدة، وهو الاسم الذي وضعه أديب لبناني للتعبير عن Gazette أو journal ثم وضع لغوي لبناني آخر اسم «مجلة» للتعبير عن Revue أو Bulletin أطلقه على هذه الرسائل الدورية التي تضم بين صفحاتها مختلف الفوائد في شتى الموضوعات. وما زال للشاميين الفضل الأكبر في إنشاء الجرائد والمجلات. وقد أنشأوا في الأستانة ومصر وتونس وأوروبا وأميركا صحفًا عربية كثيرة، وآزروا في صحف كثيرة، كما أنشأوا في الشام صحفًا كانت تعلو وتسفل بحسب مقدرة القائمين بها؛ ذلك لأن الأمية كانت غالبية، ولم يكن الإقبال على مدارس المرسلين والمدارس الطائفية وهي التي سهلت درس العربية قبل غيرها، هذا الإقبال الذي شوه من بعد، وخرج مئات الطلاب الذين كان أقل ما ثقفوه فيها تعلم مبادئ لغتهم ومبادئ اللغات الأجنبية.

ولما احتل البريطانيون مصر وزاد الضغط على الصحافة العربية في الشام، هبط مصر كثير من نبهاء الكتاب الشاميين من أرباب الصحف ومن المترجمين وغيرهم، وأنشأوا جرائد ومجلات ومنها إلى اليوم جريدتا الأهرام والمقطم ومجلات المقتطف والهلال وغيرها من الجرائد والمجلات التي نشرها الشاميون وعاشت مدة ثم احتجبت. وكلها أبلت بلاء حسنًا في خدمة الأفكار ونشر الآراء العلمية والتهدئية والأدبية

والدينية. وقد نشرت في الشام وفي مصر بأقلام الشاميين أنفسهم صحف ومجلات كثيرة لم يكتب لها البقاء، وإن كان بعض القائمين بها على حصة موفورة من العلم والأدب، وقضي عليها لقلة القراء، أو لوفاة أصحابها كمجلة الضياء والمنار ولم يأت من يخلفهم في موضوعهم. وأخرى أن المجلات المفيدة لم تجد من الحكومات والجمعيات معاضدة فعلية.

ظلت الصحف السياسية والمجلات العلمية مستندة إلى قوى أصحابها فقط، ولو كان في القوم أناس يحبون حقيقة معاضدة الآداب لألفوا شركات برءوس أموال كبيرة لإنشاء بضع صحف ومجلات تخدم الخدمة اللازمة، ولا تسف إلى تناول ما يسد بعض عوزها من الحكومات أو من أفراد أو من أرباب المظاهر يعطون المجلات أو الجرائد ما تيسر حتى تسبح بحمدهم وتنشر محامدهم وصورهم، فالجرائد والمجلات بذلت الجهد إذا في نشر الأفكار والتهديب في الشام على قلة الوسائط، وكان صوتها يسمع أكثر مما سمع لو بذلت الأمة العناية بتعهدها أكثر مما بذلت، نعم كانت خير معلم وأجمل مدرسة للناس، ترشدهم في جميع ما تشد إليه حاجتهم من المعارف، وتغرس في نفوسهم روحاً وطنياً لا تقوم الأمم بغيره، وتلقن الجمهور على اختلاف نزعاته تربية سياسية صالحة في الجملة لأمة لم تستقر حالتها السياسية.

دخل منذ ثمانين سنة كثير من النباه في الصحافة، ولكن المتوسطين الذين خاضوا غمارها كانوا أوفر عددًا، فأفسد المتوسطون عمل الذين كان يرجى من أعلامهم رفع مستوى المعارف. ومع كل الضعف الذي تجلت أعراضه في كل أدوار الصحافة الشامية كان منها أن علمت الناس ما لم يكونوا يعلمونه، علمتهم أن وراء حياتهم المادية حياة معنوية، لا تبقى لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها، علمتهم بسائط من التاريخ وحال

الأمم وسياسات السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين، وأن أمتهم كانت شيئاً مذكوراً فيما مضى، ولا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد، والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا يترع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم، وأصبح بعض العامة ممن أدمنوا تلاوة الصحف وتفهمها، أرقى عقلاً من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مائة أو مائتين من السنين. علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، وأن نعمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً. علمتهم أن الغرب لا يريد خيراً للشرق، والشرق شرق والغرب غرب، وأن الأقليات التي كانت تصرفها أوربا بحسب أميالها السياسية لا تعيش إلا بالاندماج في الأكثريات، وتوحيد المقاصد الوطنية، وكل أمة تُحكم برأي السواد الأعظم من أبنائها.

علم معظم الناس، إلا أناساً مأخوذِينَ بتعصبات مذهبية ونعرات طائفية، أن الغرب لتحقيق أغراضه يفادي بكل من يمتون إليه بصلة من صلات القربى المذهبية، وأن الاعتبار عنده للمصلحة كيفما كانت وكان السبيل إلى الحصول عليها، وقاعدتهم كلهم الغاية تبرر الوسيلة. ولقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة، فكانت تحتال في أول دور أن تشرف صاحب الجريدة برتبة لها ووسام، ومن خالف الصدع لأمرها تكسر قلمه وتشرده وتسجنه وتُنزل عليه غضبها، وقد تجلّى ذلك في الثلث الأخير من الدور الحميدي، فلما أعلن القانون الأساسي أخذ الأتراك الذين قبضوا بعده على زمام المملكة يتوسعون في هذا المبدأ مبدأ السير بقوة الصحافة إلى الغرض الذي يرمون إليه، فصانعوها بعض أربابها وضحكوا من بعضهم بإكرامهم وإعطائهم مالاً. ولما جاءت الحكومات المتتالية وهي من أعرف

الأمم بتأثير الصحافة في الأفكار لم تقصر في اتخاذ هذه النظرية على طريقة جمعت أيضًا بين الرغبة والرغبة والعطاء والمنع. ولم تخل الشام في كل دور من أناس باعوا في خدمة صاحب القوة ضمايرهم، شأن كل أمة جديدة في الحياة السياسية، ولكن ظهر ذلك جليًا في صحافتنا؛ لأن الدعاة للقوة ضعاف، حتى في فهم ما انتدبوا إليه، فكانت تنكشف أعمالهم منذ أول يوم يسبحون بحمد من استهواهم.

وبعد فالصحافة العربية في الشام تحتاج إلى أربع أو خمس صحف وبضع مجلات على النمط العالي من نوعها في أمم الحضارة، تصدر في أمهات حواضر الشام (القدس وبيروت ودمشق وحلب) وترجع في شئونها إلى شركات منظمة تدير مالياتها، أو أحزاب سياسية ثابتة تدير حركتها، ويوكل أمرها إلى كفاة ينسجون فيها على أحسن منوال نسجته صحافة أوروبا وأميركا، ونحن لا نتطال إلى أن يكون للشام صحافة كصحافة بريطانيا العظمى بوفرة مادتها، وصدق لهجتها لأمتها، وسرعة تناولها الأخبار، وتنوع أساليب التعليم والتفهم، بل نرجو أن تكون لنا صحافة متناسبة مع ماضيها وحاضرنا، بحيث لا تكون الشام أحط من مصر في هذا الشأن على الأقل. الصحافة عنوان ارتقاء الأمة، وليس ما يمنع من إبرازها في قوالب مقبولة لجميع الأذواق، وهذا لا يتم إلا إذا وسدت أعباء الصحافة للعارفين.

قلنا في سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) من مقالة (المجلد السادس من مجلة المقتبس): وقد رأينا هذا التهالك على إنشاء الصحف والمجلات حتى كان لنا منها نحو مائة صحيفة في هذا القطر الصغير، نأسف لأكثرها على الورق الذي تطبع فيه والوقت الذي يصرف عليها، وهي خلو من الفوائد اللازمة، ولولا بضع جرائد ومجلات لا بأس بها في الجملة، لقلنا: إننا بعد اشتغال ستين سنة في الصحافة لا نزال في حالة ابتدائية، إن للنجاح

في الأعمال أسبابًا كثيرة، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي، إذا اختل أحدهما تعذر النهوض بالشق الآخر. وإنشاء الجرائد والمجلات لا يخرج عن هذا المقرر. وهل في الأرض عمل لا يحتاج إلى علم وتجارب ومال واستعداد؟ ولطالما رأينا مصر في الثلاثين سنة الأخيرة، والشام في عهدها الدستوري وغيرهما من الأقطار والأمصار التي يتكلم أهلها بالعربية، تتجرأ على إصدار الصحف بدون حساب ولا روية، وأدركنا العامة أجرأ من الخاصة على اقتحام هذا المركب الصعب، وليس لديهم في الأغلب من وسائل النجاح كبير أمر، فلا يلبث ما ينشئون أن يظهر إلى الوجود حتى يختفي اضطرارًا لا اختيارًا. وهذا هو السبب في تعدد الجرائد وقصر أعمارها واشتمزاز الناس منها؛ إذ توهموها بما تمثل لهم من حال بعض من أقدموا عليها آلة للتكسب والتدجيل لا أداة للوعظ والإرشاد والتعليم.

ما رأينا صناعة من الصناعات استسهل الناس أمرها كالصحافة، فلم يعهد معلم في النجارة أو الحدادة أو البناء أو الهندسة يحترف هذه الحرف بدون سابق ممارسة ويتصدر للاعتياش منها وهو لا يعرف من أسرارها سرًّا؛ ولكن فن الصحافة في هذه الديار الذي يتوقف النجاح فيه على أسباب كثيرة أهمها العلم والتجربة والمال، قد رأينا أناسًا من الأغمار يدعونه بدون خشية وأكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد والمجلات دع تأليفها وإصدارها.

كان جمهور الناس إلى عهد قريب يشارك الأطباء في طبهم، فترى الكبير والصغير إذا عرض لهما مريض من خاصتهما ومعارفهما لا يتوقفان في وصف علاج يشفيه، مدعين أن ذلك من مجرباتهم أو مجربات أصحابهما، ولما كثر الأطباء واستنارت الأمة بعض الشيء خفت هذه العادة في التعدي على الأطباء في طبهم إلا عند الطبقة الجاهلة. أما الصحافة فيدخل فيها بالفعل أناس ليسوا منها وليست منهم، ويصفون

للأمة أدوية تقيها الأسواء والأرزاء، ويعترضون على العالمين والحاكمين والسلطين بلا خشية ولا حياء، كأن طب الأرواح ليس أصعب من طب الأشباح، أو كأن الصحافة من العلوم اللدنية لا الكسبية، يتعلمها المرء بالذوق وتوحي إليه إحياء.

من أجل هذا احتقرت الأمة الصحافة لما رأت من ضعف بعض أديائها في أخلاقهم ومعارفهم وقد شانوا اسمها وعبثوا بجمالها، تذرعا إلى مطعم ينالونه، وصيت بالباطل يحصلونه، ومقام عال ينزلونه. نعم لم نشهد العطار بيطارًا، ولا الإسكاف نجارًا، ولا الحطاب رسامًا، ولا الفحام نظامًا، ولا الجوهري حجامًا؛ ولكن شهدنا الفلاح صحافيًا، والمتشدق مؤلفًا، والثرثار محاميًا، والمكثار خطيبًا. كما نشهد الأغبياء قد يحاولون مجارة الأذكياء، والفقراء يقلدون الأغنياء.

بيد أن سنن الفطرة التي لا تغالب، ونظام هذا الكون البديع الذي قلما اختل، يعاقبان المعتدي على ما لا يعلم بما جنته يده، كما قيل في الأمثال الإفرنجية كل خطأ يحمل عقوبته فيه. ونذر جدًا في الناجحين من تيسر لهم الوصول إلى ما وصلوا إليه إلا باتخاذ الذرائع المنجحة، ونسج حلل مجدهم بأيديهم.

رأينا كثيرًا ولا سيما في مصر والشام التصقوا بالصحافة وأنفقوا ثرواتهم في سبيلها فلم ينجحوا، ورجعوا بعد العناء الطويل وخسارة المال صفر الأيدي خائبين؛ لأن مائدة العلم لا يجلس إليها طفيلي، ولأن التمويه إن صعب في عمل فهو في الأعمال العلمية أصعب ...

ولقد شاهدنا عيانًا أن معظم الصحف التي كتب لها البقاء في هذين القطرين الشقيقتين خاصة هي التي قام بأعبائها أناس متعلمون تخرجوا في الكتابة وتدربوا في السياسة وتذوقوا لمأظة من العلوم التي لا يسع

صاحب جريدة ومجلة جهلها. ومعظم من لم يخادهم التوفيق أخفقوا لأسباب ناشئة من ضعفهم وقلة معارفهم في صناعة يلزمها ما يلزم لكل صانع من الأدوات إن لم نقل إنها تتوقف على أدوات أكثر. ولو كان قومنا يبالغون في انتقاء الرجال للأعمال، لوضع في قانوننا بند يلزم كل من تصدر لمعانة صناعة القلم، أن يمتحن في الفن الذي يخوض عبابه، كما يمتحن المتطبيون والصيدالة، بإنشاء الصحف إن لم يكن أحق بالعناية من معرفة الأمراض والعلل والعقاقير، فلا أقل من أن يكون على مستواها، فكم من جاهل قتل نفساً زكية، ومن صحافي جرّع قراء السم الزعاف، على حين ينتظر منه الترياق النافع.

هذا ما قلناه ونزيد عليه أن الإخصاء أو الاختصاص العلة الأولى في نجاح الغرب في صحافته يجب أن يكون له في صحفنا المقام المحمود، وفي اليوم الذي أصبحت فيه توسد في مصر أعمال الصحافة إلى أمثال هؤلاء من الحقوقيين والكتاب والسياسيين دخلت مصر في حياة جديدة، وهذا قريب المنال على الشام التي كان لبعض أبنائها خدمة تشكر في تاريخ الآداب والصحافة. ومن أهم مجلاتنا التي تصدر في الشام «المشرق» «مجلة المجمع العلمي العربي» «المجلة الطبية» «مجلة المعهد الطبي»، ومن المجلات المحتجة «الرئيس» «الطبيب» «المقتبس» «الآثار» «الكلية» «الحارس» «الخدر» «المرأة الجديدة». ومن صحفنا اليومية «لسان الحال» «الأحرار» «القبس» «ألف باء» «فتى العرب» «الرأي العام» «البلاغ» «الاستقلال» «الجوائب» «فلسطين» «العهد الجديد» «البرق» «الأحوال» «النهار» «النضال» «الكفاح» «الأيام» إلى ما هنالك من جرائد أسبوعية ومنها الجدي والهزلي المصور وغير ذلك.

وبعد فالواجب على الصحافي قبل كل شيء أن يحسن الكتابة العربية كأحسن منشئها، وأن يكون قادراً على النقل والاحتذاء من أفكار

الغربيين، أي عارفًا بلغة أو لغتين من لغات السياسة والعلم، وأن يكون ممن عانى البحث ملغًا بالقوانين الدينية والزمنية وتاريخ الأمة ولا سيما تاريخ هذا القطر عارفًا بالاقتصاد والاجتماع وحياة الأمم وتاريخها وثوراتها ونهضاتها ونقاباتاتها وألوان أحزابها وأوضاعها، كل هذه المسائل أقل ما يجب للصحافي المشاركة التامة فيه. أما المباحث المالية والزراعة والتجارة والفنون والأدب والشعر والآثار والتاريخ وغيرها مما يجعل من الصحيفة مدرسة تامة الأدوات لإنارة الأفكار وبث الصحيح منها، فيجب أن يوكل شأنها لأهل الإخصاء من العارفين بها. وبذلك يصح أن يقال: إن لنا صحافة راقية، وما دامت الصحيفة الواحدة ينشئها واحد أو اثنان أو ثلاثة على الأكثر، تضطر الصحف إلى أن تكون ناقلة ضعيفة في مادتها وأخبارها وأفكارها وإذا زاد عليها خدمة غرض سياسي لا يحسن صاحبها التصرف فيه، فهناك البلاء الذي يحول دون الرقي.

الطباعة والكتب

لم يصل إلينا فن الطباعة الحديث أفضل اختراع تم في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد، إلا في القرن السابع عشر، ومن أوائل الكتب العربية التي طبعت في رومية في القرن الخامس عشر الإنجيل الشريف وقانون ابن سينا، وقام بتأسيس مطبعة في الشوير من لبنان عبد الله زاخر الراهب الماروني سنة (١١٤٥)، وطبعت هذه المطبعة ٣٤ مؤلفًا خلال ستين سنة وأكثرها ديني، وهي مطبعة يدوية على الحجر، وقد طبعت مطبعة الشوير المزامير سنة (١٦١٠م)، ودخلت الطباعة الأستانة سنة (١١٣٥هـ) وأول مطبعة أنشئت في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس في أواسط القرن الثامن عشر؛ بل إن فن الطباعة بهذه الحروف المتعارفة لم تثبت قدمه إلا بمجيء الإرساليات والرهبنات الدينية من الغربيين، وإلى اليوم لا تزال المطبعتان العظيمتان في بيروت

بل في الشام كله هما لتلك الجمعيات (الأميركانية أسست سنة ١٨٣٤م واليسوعية ١٨٤٨م) التي كان الغرض الأول منها نشر الكتب المقدسة والدعاية إلى إنجيل المسيح في هذا الشرق القريب بين أبناء العرب، ثم خدمة التهذيب والثقافة الإنكليزية والفرنسية وبعد ذلك تعليم شيء من العربية. والكتب العلمية الحديثة التي ظهرت في هذه المطابع باللغة العربية شاهد عدل على أنه لا يتأتى نشر المبدأ الذي يريدونه قبل أن يخدموا القطر بلغته.

ربما بلغ عدد المطابع في الشام ثمانين مطبعة من أهمها المطبعة الأدبية في بيروت، وقل جدًا فيها المطابع التي طبعت الكتب النافعة ولاحظت نفع جمهور الناس قبل منفعتها الخاصة. طبعت قصصًا معربة وأشعارًا ودواوين قديمة وحديثة وكتبًا دينية ورسائل علمية في المعارف العامة وقليلًا من كتب العرب التي لا يزال ألوف منها محفوظًا في خزائنا وخزائن الغرب مما يقبل الغريب على طبعه ويجود العناية به من حيث التصحيح والتعليق. ونحن قلما كتب لمطابعنا أن تتأسى بهم وتتعلم منهم. ولولا ألوف من كتبنا طبعت في مصر والأستانة والهند وأوربا لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغناء في العلوم والآداب القديمة؛ ذلك لأن بعض من يرجى منهم خدمة الطباعة بنشر الكتب النافعة لا يجدون من يطبع لهم ما يريدون إحياءه من كتب القدماء، أو ما يؤلفونه هم على النمط الحديث؛ لأن الطابعين ينظرون إلى أرباحهم أولاً، وأرباحهم موقوفة على كثرة ما ينصرف من مطبوعاتهم، والجمهور بالطبع كما هو في كل بلد لا يقبل على الجد إقباله على الهزل، ولا يقدر أن المنفعة له في الصعب قبل السهل، وأكبر الظن أن كثيرًا من أرباب المطابع هم من العامة أو يقربون منهم في الفكر والتعلم.

ولقد شاهدنا أناساً من الغُير على العلم طبعوا مصنفاتهم بأنفسهم فافتقروا إذ لم يعرفوا تصريفها، والمؤلف غير التاجر، ثم هم لم يجدوا في الأغنياء والحكومات من ينصرهم ولو بابتياح نسخ معدودة من كتبهم. ورأينا أناساً طبعوا كتباً سخيصة من تأليفهم فروجوها هم أو أحبابهم بالتجبية والقحة فدرت عليه أرباحاً لا يستهان بها. فلا عجب إذا أصبح الطابعون والمصنفون يهتمون لمنافعهم الخاصة ولو كان في الطابعين من يخاطرون بطبع كتب العلم والأدب التي لها قراء مخصوصون لزداد عدد الراغبين في المسائل الجدية أكثر من الآن ولارتفع ميزان العقل أكثر مما ارتفع.

نعم لم يطبع كثير من الكتب الخالدة سواء كانت للمعاصرين أو لمن قبلهم في عهد ارتقاء العلم في العرب، وقُلَّ أن طبع كتاب بذاك الإتقان الذي تطبع به الكتب في أرض المدنية اللهم إلا في بضع مطابع لا يهتم أهلها ربحت أم خسرت لأنها لجماعات لا لأفراد. وما عدا عشرات من الكتب التي طبعها في بيروت خاصة علماء المشرقيات أو من أخذوا عنهم طرائقهم في الطبع والنشر. لم يكد يطبع في سائر مدن الشام كتاب يعد نموذجاً في إتقانه ووضعه وتأليفه. وغاية ما نشره كتب قصص وكتب مدارس ابتدائية أو شعار أناس تهجموا على التأليف تهجماً، ولما يستعدوا له الاستعداد الكافي، ولم يجودوا مصنفاتهم بإنضاجها بالبحث والتنقيب، وإيراد الطريف من المباحث.

فالشام مقصر في هذا الشأن من وجوه كثيرة، ولولا مئات من المجلدات خلفها لنا أجدادنا، وما زالت تطبعها مطبعة ليدن في هولاندة منذ أكثر من ثلاثة قرون بمعرفة أفاضل علماء المشرقيات في الغرب، ولولا ما طبعته جمعيات المستشرقين في ممالك أوروبا وأميركا لفاتنا الوقوف على أمور كثيرة في مدينة العرب وتاريخهم، وإلى اليوم لم تبلغ

مصر على كثرة ما يطبع فيها من الكتب، وبعضها بإتقان زائد في الطبع، كمطبوعات المطبعة الأميرية ودار الكتب المصرية ومطبعة جمعية التأليف والترجمة والنشر مبلغ مطبعة ليدن وليبسيك في الإجازة، ولا سيما في الفهارس والشروح والهوامش والأمانة في النقل الذي أصبحوا به قدوتنا وعنهم يجب أخذه.

تأملنا مليًا فيما تصدره المطابع من الكتب فرأيناها مصنفات هوائية مؤقتة إلا قليلًا، تخدم فكرًا خاصًا ولا يتوقع منها إلا الشهرة على الأغلب لا عموم الفائدة، ومعظم من يعدونهم من المؤلفين هم في الحقيقة مترجمون، ومنهم من لا يجيد الترجمة، وكم من تأليف نظرت فيه فانقبضت نفسك مما في تضاعيفه من ضعف التأليف ورداءة الطبع. ومع هذا كان الناس يؤلفون على عهد النهضة الأدبية الأولى أي في أواخر القرن الماضي أكثر من اليوم، ولقد تسربت روح التفرنج إلى طائفة ممن تلقنوا اللغات الأجنبية، وغدوا لا يهتمون إلا بالأخذ من كتب اللغة التي يحسنونها من لغات الغرب، وفي الغالب تكون الفرنسية أو الإنكليزية وقلما رأينا رجلًا كفوءًا من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير كتب الإفرنج أن نقل، لمن حرموا معرفة اللغات الغربية من بني قومه، موضوعًا نافعًا لهم في اجتماعهم وصناعتهم وتمدّهم؛ لأن الأثرة زادت بزيادة المدنية.

وقد زاد في رداءة التأليف المطبوعة كون المؤلفين، ومنهم الوسط في علمه وتأليفه، يخافون نقد الناقلين عليها، وكون بعض الصحف والمجلات تصانع في الأكثر هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم موضع المؤلفين، وتدهن دهانًا عجيبًا لمن كان من أهل دين صاحب الجريدة والمجلة أو على مشربه السياسي! أو يكون ممن يتوقع منه أن يكتب له ذات يوم مقالة أو يعاونه أدنى معاونة مادية. ولذلك استشرى الفساد وظن

كل من طبع شيئاً أنه خدّم الأمة خدمة صالحة. والنقد الذي هو من أهم الذرائع في السير نحو الكمال إلى بحايح المدنية مما لا يؤبه له، وربما تعرض صاحبه لمقت هؤلاء الطابعين والمؤلفين. قسم السيد أسعد داغر من يعرضون في سوق الأدب بضاعتهم من ترجمة وتأليف وتصنيف إلى فريقين فريق المحترفين وفريق الهواة، فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم ليتقوا شر المتربة، ويعيشوا من شق تلك القصة، والهواة هم الذين يشتغلون بالعلم والأدب لأن لهم فيهما حفاوة صحيحة مجردة عن المآرب، ورغبة حقيقية منزهة عن حب الأرباح والمكاسب، ومعظم هؤلاء هواة كانوا أم محترفين يشق عليهم أن تنقد كتبهم ومؤلفاتهم وينظرون إلى الانتقاد والمنتقد بعين الشانئ الكاشح.

ليس في كل ما طبعته المطابع الشامية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو عصر النهضة عندنا، سوى كتب قليلة تستحق العناية وتستوقف القارئ للأخذ منها مثل كتب محمد عابدين، أحمد فارس، فاندليك، ورتبات، بوست، بورتر، لامنس، شيخو، مشاق، إبراهيم اليازجي، إبراهيم الحوراني، طاهر الجزائري، عبد الرحمن الكواكبي، سعيد الشرتوني، جمال الدين القاسمي، رفيق العظم، شبلي شميل، شكيب أرسلان، نجيب الحداد، يعقوب صروف، عيسى المعلوف، إسعاف النشاشيبي، إبراهيم الأحذب، يوسف الأسير، بطرس وسليمان وعبد الله البستاني، أحمد حمدي الخياط، مرشد خاطر، جميل الخاني، شفيق جبري، سليم الجندي، خليل مردم بك، أمين الريحاني، خليل سعادة وأضرابهم ممن أبرزوا تأليف منقحة، وفي بعضها إبداع وإيجاد؛ وذلك لأنهم هضموا العلوم التي عُرفوا بها، وجاءوا بالجديد، وفيها أفكار علمية أو مدنية أو دينية صحيحة.

الفنون الجميلة

تعريف الفنون الجميلة

الفنون الجميلة أو الصنائع النفيسة، وأسمائها بعضهم نواضر الفنون وقيل: إن العرب أطلقوا عليها اسم «الآداب الرفيعة» هي الصنائع التي من شأنها إدخال السرور بجمالها وجلالها على النفوس البشرية، وتربي ملكة الذوق والشعور، وهي سبعة أقسام: الموسيقى، الغناء، التصوير، النقش، البناء، الشعر والفصاحة، الرقص. وأرجعها بعضهم إلى ثلاثة فروع فقط: التصوير والشعر والموسيقى. ولقد كان لهذه الديار حظ كبير من هذه الفنون بقدر ما ساعدتها بقعتها وطاقاتها، وربما تمّ فيها أشياء لم تصلنا أخبارها، أما الدول التي تعاقبت على الشام بعد الإسلام، فإن ما وصلنا من أنباء هذه الفنون فيها قد تعرض له كاتبوه بالعرض كأن يكون المشتغل بالموسيقى أو التصوير مثلاً ذا مشاركة في فنون أخرى من أدب وشعر، وطب وفلك، وحديث وفقه، أو أن القوم دونوا عامة سير الموسيقيين والمغنين والمصورين والنقاشين مثلاً فضاع ما دونوه في جملة ما ضاع من أخبار حضارتنا.

الموسيقى والغناء

نشأت الموسيقى مع البشر ولازمتهم في جميع ما عرف من أدوارهم في حياتهم الخاصة والعامة، وفي مظاهر سلمهم وحربهم، وسعادتهم وشقائهم، وأفراحهم وأتراحهم، وسفرهم وحضرهم، وتعبهم وراحتهم، ودينهم ودنياهم، والمرء من طبعه أن لا يستغني عن رفع صورته، ليظهر

نفسه وجليسه، وقلبه يصبو بالفطرة إلى سماع أوتار تهزه وتطربه. فالموسيقى تجمع الحواس وتنشط لها النفوس، وبها يجسر الجبان، ويعطف اللثيم، ويرق الكثيف، ويلين القاسي، ويقوى الضعيف، ويكف الظالم، ويعتدل المائل، فهي مدعاة السرور، مجلبة الطرب، مسلاة الحزين، مفرجة الكروب، مهونة الخطوب، عنوان الحياة الداخلية، مظهر الأخلاق القومية، مصورة الانفعالات النفسية، أصدق عامل على التحمس، أقوى دافع إلى النهوض والتحسس، معلمة أنفع الدروس الشريفة مذكرة بالمطالب العالية، فيها يتجلى العقل البشري بإشارات وحرركات، تعمل عملها في الأفئدة والوجدانات.

ولقد ثبت أن العنصر السامي من أكثر العناصر ولوعًا بالطرب والخيال، وقيل: إن الحثيين من أقدم شعوب الشام كانوا أقل عناية بالموسيقى والغناء من جيرانهم البابليين والآشوريين والآراميين؛ ومع هذا كان لهم من الغناء ما ابتدعوه بفطرتهم، ومنه ما أخذوه من مجاورينهم. وكان الآراميون مولعين بالغناء والضرب بالإيقاع على آلات لهم ييقون بها ويزمرون، ويضطربون بها فيضطربون، وهي بالطبع على حالة ابتدائية على مثال الشعوب التي سبقتهم إلى سبقتهم إلى سكنى هذا القطر. ومثل هذا يقال في الفينيقيين الذين اقتبسوا مدنية الفراعنة، وهم من أصل سامي، فإنهم كانوا يعرفون الموسيقى، ومنها ما نقلوه عن المصريين لتمازج مدنية السلاسل المصرية بمدينة فينيقية الصغيرة، وإذ كان للمصريين عناية فائقة في معابدهم بالموسيقى على ما ظهر من تماثيلهم التي مثلت بها الضاريين والمغنين، تعلم جيرانهم أهل فينيقية بعض هذه العناية، ولكن على طريقة الاحتذاء لا إبداع فيها، ويقال ذلك في الكنعانيين والإسرائيليين فقد أولعوا بها وظهرت آثارها في معابدهم وبيعهم، وأمام أربابهم ومعبوداتهم، وفي حروبهم وغاراتهم وأعيادهم ومآتهم واجتماعاتهم،

على ما فهم من نصوص التوراة. ومزامير داود مشهورة مذكورة، والآلات التي اشتهرت عند الشعوب القديمة وعانت استعمالها، ترجع في الأكثر إلى شابة وبوق وصنج وطبل ودف.

ولقد دلت بعض النقوش التي عثر عليها في وادي موسى وجرش وتدمر أن العمالقة والنبط والعرب لم يكونوا أقل من الشعوب التي سبقتهم إلى نزول هذه الديار ولو غا بالتلحين والإيقاع والضرب على القيثارة والنفخ بالمزمار، وقد نقل اليونان والرومان إلى هذا القطر موسيقاهم وأصول غنائهم على الأرجح كما نقلوا أربابهم، واقتبسوا أرباباً مع أربابهم، وإذا طال عهد دولتيهم كثيراً تأصلت موسيقاهم، وثبتت مصطلحاتهم، وربما نقلوا بعض مصطلح الأمة التي حكموا عليها، في غنائها وموسيقاها. ولما انتشرت النصرانية في الشام في القرن الثالث للميلاد غني متحلوها بالموسيقى في كنائسهم عناية اليهود بها من قبل في بيعهم، وإذا اقتبست النصرانية كثيراً من عادات الروم ومصطلحاتها لم تقصر في اقتباس الموسيقى والتلحين والغناء لثبوت فوائدها الروحية.

ولما جلت بعض القبائل العربية إلى الشام يوم سيل العرم وقبله وبعده، حملت معها ما ألفت أن تفرع إليه من اللحن، وتضرب عليه من الآلات، حتى إذا كان الإسلام، وكانت مدينة الفاتحين إلى السذاجة والفطرة، وكان غناؤهم لا يتعدى الحدا والإنشاد يوم الغارة والحفل، وفي ظل الخيام والآطام، أخذت موسيقاهم تقتبس من الموسيقى الشامية الرومية كما تقتبس من الموسيقى الفارسية. وقال بعض العارفين: كان اقتباسها من الموسيقى الفارسية فقط. وزعم بعضهم أن أخذها كان من الرومية أكثر. ولا يعقل أن يتأخر العرب في نقل الموسيقى إلى القرن الأول للهجرة واستعدادهم لها كاستعدادهم لغيرها من الفنون، ولهم من فطرتهم ومناخ أرضهم أعظم دافع للولوع بها، وهم المعروفون بحب

الارتحال وكانت لهم صلوات مع جيرانهم من الأمم الأخرى منذ الزمن الأطول «ولم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب».

ومع هذا فنحن مضطرون أن نشايح القائلين بأن أول من غنى هذا الغناء العربي بمكة ابن مسجح، نقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم كثر الموالي من الفرس فكانوا يتعلمون في مكة والمدينة، ومنها ينتقلون إلى الشام والعراق ومصر وغيرها من الأصقاع التي استظلت براية الإسلام. وفي الأغاني أن سعيد ابن مسجح أبو عثمان مولى بني جُمح -وقيل إنه مولى بني نوفل بن الحارث بن عبد المطلب- مكي أسود مغنٍ متقدم، من فحول المغنيين وأكابرهم، هو أول من وضع الغناء منهم، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم رحل إلى الشام، وأخذ ألحان الروم.

وقيل: إن أول من أخرج الغناء العربي جراحة، جارية ابن جدعان وفيه نظر فإن الغناء معهود من عهد عاد، حتى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال: غنته الجرادتان. وكان النظر بن الحارث بن كَلْدَة أول من ضرب على العود أخذه عن الفرس وعلمه أهل مكة فانتشر في الحجاز وكان يتغنى أيضًا. وفي القصة التي ساقها صاحب الأغاني في الدعوة التي دعي إليها حسان بن ثابت في آل نُبَيْط وقد أتوا بجاريتين إحداهما راققة والأخرى عزة فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضربًا عجيبًا وغنتا بقول حسان:

انظر خليلي يباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد

ورواية حسان نفسه أنه كان في الجاهلية مع جبلة بن الأيهم، وقد رأى عنده عشر قيان: خمس يغنين بالرومية بالبرابط (الأعواد) وخمس يغنين غناء أهل الحيرة، أهداهن إليه إياس بن قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من

العرب من مكة وغيرها. في ذلك كله إشارة إلى أن الغناء العربي في الشام أقدم من الإسلام.

موسيقى كل أمة ملازمة لها كروحها، وهي مظهر من مظاهر حياتها، فلا يعقل أن تخلو أمة من روح حتى تجئ أمة أخرى فتقبسها روحها. ولكن الأمة إذا اختلطت بأخرى، وكان عند الثانية فضل على الأولى في شيء، وفي الثانية طبيعة الاقتباس ومرونة على الاحتذاء والتشبه، قد تحمل الأولى إلى الثانية ما ينمي فيها ذاك الروح فتعدله على أسلوبها ومناحيها.

ولقد زعم بعضهم أن الإسلام لم يُحلّل الموسيقى محلها اللائق بها، وادعى بعضهم أنه حرمها، فكان الحظر أسهل من الإطلاق في نظرهم، بيد أن الإسلام وهو دين الفطرة لا يخرج عن حد قيود العقل، إلا أنه لا يقول بالإفراط في شيء حتى ولا بالعبادة؛ لأنه يكون قد دعا إذ ذاك إلى البطالة واللهو، وهما مخالفان للشرع، وبذلك تكون الموسيقى وبالأعلى من يأخذ نفسه بها، ومصيبة على من ينصرف إلى سماعها، ولو صح ما قالوا فلماذا رأينا جلة من الصحابة والتابعين لحنوا وتغنوا، وسمعوا الألحان وطربوا لها، ولو لم يجزها الشارع الأعظم في أوقات معينة وحوادث وقعت، هل كان يجزأ أحد من أصحابه ومن بعدهم على الجلوس في مجالس الطرب، والدين غض والعهد بصاحبه غير بعيد، قال عبد الله بن قيس: كنت فيمن يلقي عمر مع أبي عبيدة مَقْدَمُ الشام، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر: امنعوهم. فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنتهم، أو كلمة نحوها، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم فقال: دعوهم. والتقليس الضرب بالدف والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم

المصر بأصناف اللهو. وقيل: المقلس هو الذي يلبس القالس أو القلنوسة وهي أشبه بقبعات الروم.

ولما استقر الملك لأمية في الشام ودخلت الحضارة كان في جملة ما دخل إليه الغناء على صورة لا خنا فيها ولا تبذل، ولقد روى المبرد أن معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه، فلما أصبح قال ليزيد: من كان مُلهيك البارحة فقال له يزيد: ذاك سائب خاثر، قال: إذا فأختر له من العطاء. وقالوا: إن معاوية قال لما دخل على ابن جعفر يعوده فوجده مُفريقاً وعنده جارية وفي حجرها عود: ما هذا يا ابن جعفر؟ فقال: هذه جارية أرويه رقيق الشعر فتزیده حسناً بحسن نغمتها قال: فلتقل، فحركت عودها وغنت وكان معاوية قد خضب.

ليس عندك شكر للذي جعلت ما ابيض من قادمات الريش كالحمم
وجددت منك ما قد كان أخلقه ريب الزمان وصرف الدهر والقدم

فحرك معاوية رجله فقال له ابن جعفر: لم حركت رجلك يا أمير المؤمنين؟ قال: كل كريم طروب.

ورأينا بعض خلفاء بني أمية في دمشق وأمرأهم وساداتهم، يضعون ألحاناً ويسمعون الغناء ويولعون بالموسيقى، ويجيزون أربابهم ويواسونهم من غير نكير: ومنهم عمر بن عبد العزيز، وناهيك به من كامل، في جميع الفضائل. فقد دونت له صنعة في الغناء أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها، وكان أحسن خلق الله صوتاً. قال أبو الفرج: وأما الألحان التي صنعها فهي محكمة لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة وحذق في الغناء. وممن صنع في شعره غناء يزيد بن عبد الملك الأموي وممن غنى وله أصوات صنعها مشهور وكان يضرب بالعود ويوقع بالطلبل ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز، الوليد بن يزيد. وقد

ذكروا أنه كان للخلفاء من بني العباس غناء، ومنهم من كان يضرب بالعود، ومن خلفاء العباسيين السفاح والمنصور والواثق وابن المعتز والمعتضد وكثير غيرهم من أبناء الخلفاء، دع سائر الطبقات من أهل الرفاهية والسعة، ممن كانوا في كل زمان ينشطون إلى سماع الأغاني، ويبرون الرجال والنساء من أرباب الموسيقى والغناء، ويغالون بابتياح الجواري اللائي حذقن الغناء، وبرعن في الموسيقى وشدون شيئاً من الأدب.

وكانت تغلو في العادة قيمة مثل هذه الطبقة من الجواري. والسواذج منهن أي غير المثقفات دون من عُنِي أولياؤهن بثقافتهن في الرتبة والقيمة مهما بلغ من جمالهن، والموسيقى والشعر في مقدمة ما كان يطلب منهن. وذكر المسعودي أن كثيراً من الجواري اشتهرن بالغناء بالمدينة، وكان يقصدهن بعض الناس من بغداد، وربما وافى الواحدة وجوه أهل المدينة من قریش والأنصار وغيرهما، ومنهن القارئة القوّالة، ولم تكن محبة القوم إذا ذاك لريبة ولا فاحشة. وكان لبعض الموسيقيين والموسيقيات والمغنين من أرباب النباهة والفضل، يد في إصلاح بعض الأحوال وتخفيف النوازل عند العظماء، ولطالما ارتجلوا ألحاناً وأبياتاً ظاهرها طرب وگرام وسلوى، وباطنها وعظ وعبرة وتعريض؛ ذلك لأن الموسيقى عندهم كانت على الأغلب مرافقة للشعر والأدب، وكم من شاعر تدفقت الحكمة على قلبه، وجاش بها صدره، فهذب نفساً بل نفوساً بأبيات يقولها.

جاء أبو النصر الفارابي الفيلسوف إلى الشام على عهد سيف الدولة بن حمدان فأدهشه ومن عنده من الموسيقيين على إتقانهم لها، وأقام في دمشق ومات فيها، قال ابن أبي أصيبعة: إن الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها إلى غاياتها، وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه، وإنه صنع آلة غريبة يسمع عنها ألحاناً بديعة، يحرك بها الانفعالات،

ويحكى أن القانون الذي كان يضرب عليه للطرب هو من وضعه، وأنه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم. وقد ذكر المؤرخون من تنافس سيف الدولة بن حمدان مع الوزير المهلبى للاستئثار بمغنية أديبة مشهورة اسمها الجيداء ما يدل على ولوع القوم بالموسيقى، وكان لجيداء في مجالس سيف الدولة من ارتجال الألحان والأدب البارع ما اشتهر أمره، وفي عصره اشتهرت في أنطاكية المغنية المشهورة «بنت يُحنا».

ولم تبرز الشام تخرج من رجال الموسيقى والغناء رجالاً كانوا بهجة عصورهم، ومنهم أبو المجد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين من أهل القرن السادس، كان يعرف الموسيقى ويلعب بالعود، ويجيد الإيقاع والغناء والزممر وسائر الآلات، عمل أرغناً وبالع في إتقانه^(١) وحاول أيضاً عمل الأرغن واللعب به أبو زكريا يحيى البياسي من أطباء الناصر صلاح الدين.

وكان من البارعين في هذا الفن من العلماء قسطاً بن لوقا البعلبكي وعبد المؤمن بن فاخر ونجم الدين بن المنفخ المعروف بابن العالمة وفخر الدين الساعاتي. وكان رشيد الدين بن خليفة أعرف زمانه بالموسيقى واللعب بالعود، وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى إنه شوهد من تأثير الأنفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابي، فكثير إعجاب المعظم به جداً وحظي عنده. ومنهم علم الدين قيصر أخذ الموسيقى عن الفيلسوف كمال الدين بن يونس في الموصل.

(١) الأركان آلة لليونانيين والروم تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها إلى بعض، ويركب على رأس الزق الأوسط زق كبير ثم يركب على هذا الزق أنابيب صفر لها قصب على نسب معلومة، يخرج منها أصوات طبيعية مطربة مشجبة على ما يريد المستعمل (الخوارزمي).

وكان أحمد بن صدقة طنبوريًا مقدمًا حاذقًا حسن الغناء ومحكم الصنعة، وكان ينزل في الشام فاستدعاه المتوكل إلى بغداد وأجزل صلته. وكان خلفاء بني العباس كلما سمعوا بنابغة في هذا الفن حملوه من القاصية وأغدقوا عليه الهبات ذكراً كان أم أنثى، ولهم في ذلك نوادر إن لم تصح كلها ففي بعضها إشارة إلى ما كانوا فيه من حب هذا الفن.

ومنهم الجمال البستي كان يلعب بالجفانة (الأصل الصغانة وهي القيثارة) ولي خطابة جامع التوبة بدمشق على عهد الملك الأشرف، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ وكان يتهم باستعمال الشراب، وصاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين إسماعيل. فكتب إليه عبد الرحيم المعروف بابن زويتينية الرحي أحياناً، يعرض بها الرجلين ويرجو أن يعاد جامع التوبة إلى ما كان عليه محله من قبل، وهو خان للفسق والفجور؛ لأن حظه حتى بعد أن صار جامعاً أن يتولاه موسيقار، وشريب عقار، فقال:

| | |
|---------------------|--------------------|
| يا مليكاً أوضح الحق | لسـدينا وأبائـه |
| جامع التوبة قد | قلـدني منه أمانـه |
| قال قل للملك الصا | لح أعلى الله شأنه |
| يا عماد الدين يا من | حمد الناس زمانه |
| كم إلى كم أنا في ضر | وبـؤس وإهانـه |
| لي خطيب واسطي | بعشق الشرب ديانـه |
| والذي قد كان من قبـ | ل يغني بي جفانـه |
| فكم نحن فما زلـ | ننا ولا أبرح حانـه |
| ردني للـنمط الأو | ل واسـتبقِ ضـمانـه |

وكان محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٣١ شاعراً موسيقياً ملحناً قانونياً دهاناً، وكان الكمال القانوني من المشهورين في عصره بقانونه، وصفه عبد الرحمن بن المسجف (٦٣٥) الدمشقي فقال:

لو كنت عينت الكمال وجسه أوتار قانون له في المجلس
لرايت مفتاح السرور بكفه الـ يسرى وفي اليمنى حياة الأنفس

وذكر ابن حجر في أخبار سنة (٧٧٩) أن دنيا بنت الأقباعي المغنية الدمشقية اشتهرت بالتقدم في صناعتها، فاستدعاها الناصر حسن على البريد إلى مصر فأكرمها، ثم وفدت على الأشرف فحظيت عنده، وهي كانت من أعظم الأسباب في إسقاط مكس المغاني، سألت السلطان في ذلك فأجابها إليهن واستمر إبطاله في الدولة. واشتهرت في القرن الثامن بدمشق فرحة بنت المخيلة المغنية كما اشتهرت المغنية المعروفة بالحضرية وهي التي كانت مع عرب آل مرا يوم وافوا دمشق لحرب التتر في زهاء أربعة آلاف فارس، فكانت تغنيهم من الهودج سافرة وكانوا يرقصون بتراقص المهاري وتقول:

وكنّا حسبنا كل ييضاء شحمة ليلي لاقينا جُذامًا وحميرا
لما لقينا عصابة تغليية يقودون جُردًا للمنية ضمرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبست عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأسًا سقونا بمثله ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

ومنذ الزمن الأطول إلى أيامنا ما خلت الشام من عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة وزفانة، ولم يخل عصر بعد زهو الشام على عهد الأمويين والعباسيين ومن بعدهم من المماليك وغيرهم من مبرزين في الغناء والموسيقى. واشتهر في دمشق بضرب القانون وكان أستاذًا فيه أحمد التلعفري (٨١٣) كان كاتب المنسوب. ومن النابهين ابن

القاطر الدمشقي من أهل القرن الحادي عشر كانت له شهرة عند أرباب هذا الفن، فإذا حضروا معه مجلسًا عظموه وتراخوا في العمل حتى يشير إليهم، ذكر ذلك المحبي وترجم له ولرجب بن علوان الحموي وقال: إن هذا كان يعرف الموسيقى على اختلاف أنواعها وهو أعرف من أدركه وسمع به، وله أغان صنعها على طريقة أساتذة هذا الفن. ومنهم برسلوم الحلبي رئيس أطباء الدولة العثمانية ونديم السلطان محمد بن إبراهيم كان حسن الصوت عارفًا بالموسيقى. واشتهرت أسرة بني فرفور في القرنين الماضيين بدمشق بالشعر والآداب وقد أخرجت رجلين من أبنائها عارفين بالموسيقى وهما جمال الدين وعبد الرحمن.

وفي تراجم أهل الغناء الذي كتبه الكنجي المتوفى سنة ١١٥٠هـ ترجمة ستة وعشرين مغنيًا من معاصريه في دمشق وفيهم المؤذن والمنشد في الأذكار والمغني على الآلات الموسيقية، مما يدل على الإقبال على الموسيقى حتى في عصر الظلمات فإذا كانوا في عصره على هذا القدر في دمشق فقط فكيف كان في حلب وغيرها من المدن، وحلب مشهورة من القديم بغرام أبنائها بالموسيقى منذ عهد سيف الدولة بن حمدان، دع الموسيقىات والمغنيات ممن غفل المؤرخون عن ذكرهم أمثال علوة محبوبة البحري في حلب التي ذكرها كثيرًا في شعره الخالد.

ومن الموسيقيين من كانوا يمارسون الموسيقى للتكسب وهم المحترفون، ومنهم من كان يخدم هذا الفن المهم حبًا به وهم الهواة، ومن هؤلاء طبقة من الرجال والنساء لا يُستهان بها ولكنها كانت ولا زالت متكئة، ومنهم من تستعمل من الموسيقى أو تسمع منها ما لا يعبث بوقارها إن كانت من أرباب المظاهر الدينية أو الدنيوية مخافة أن ترمى بما يثلم الشرف؛ لأن بعض الفقهاء شددوا على الغناء والموسيقى، وكان بعضهم يعد ساقطًا من العدالة كل من يغني بأجرة من الموسيقيين

والمغنين، ويتسامحون مع من يغني في جماعة من أصحابه، ويعدون الغناء فنًا يفقر صاحبه، وجاء في الأمة مثل شيخ الإسلام عبد العزيز ابن عبد السلام (٦٦٠) وكان على نسكه وورعه يحضر السماع ويرقص ويتواجد والناس تقول في المثل: «ما أنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام». وصناعة الغناء كما قال ابن خلدون: آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية، وأول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعته.

ولقد أدركنا وأدرك أجدادنا أن الشام كلها كانت لا تخلو معظم طبقاتها من موسيقيين، وكل مجلس من مجالسهم أو سهرة من سهراتهم، أو نزهة من نزهااتهم، كانت تضم أناسًا أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة، فكان السرور يملأ القصور والدور، والموسيقى والإنشاد من الأمور المألوفة لا يُستغنى عنها بحال، أما في القرى والبوادي فكان لهم الغناء والحدا، وضرب الرباب والقيثارة والمزمار والدف والكوبة؛ أي أن لهم ما يطرب آذانهم وترتاح إليه أرواحهم وتسهل معاناته وممارسته، ومن مشاهير الموسيقيين في النصف الأول من القرن الماضي محمد السؤالاتي الدمشقي أخذ عنه أرباب الموسيقى في عصره من المصريين والشاميين ذكره في سفينة الملك.

ومن أهل المظاهر الذين عُرفوا بالموسيقى في أوائل هذا القرن الشيخ أبو الهدى الصيادي من حلب وعبد الرزاق البيطار من دمشق وكانا من أساتذة هذا الفن الجليل، ومنهم من عُثوا بالموسيقى فبرزوا فيها من أبناء هذه الديار مثل محمود الكحال، أحمد السفرجلاني، علي حبيب، عمر الجراح، عبد القادر الحفني، محيي الدين كرد علي، سامي الشوا، رحمون الحلبي، توفيق الصباغ، علي الدرويش، باسيل الحجار، محمد الشاويش، نجيب زين الدين، مصطفى سليمان بك، شفيق شبيب، محمد علي

الأسطه، رضا الجوخدار، مصطفى الصواف حمدي ملص، رجب خلقي، يوسف الزركلي، محمد الأنصاري، محمد محمود الأتاسي، ميشيل الله ويردي، مدحت الشربجي، اليكسي بطرس، اليان نعمة، إسكندر معلوف، بولس صلبان، نصوح الكيلاني، تحسين يوقلمه جي، عباد الحلو، طلعت شيخ الأرض، حسن التغلبي، جميل البرير، أحمد التنير، أمين النقيب، محيي الدين بعيون، وديع صبرا، عزت الصلاح، قسطندي الخوري، أحمد الشيخ، محمد الجراح، إبراهيم شامية، فريد الأطرش، وغيرهم ممن جعلوا الموسيقى حرفة أو للتسلية في خلواتهم ومنهم من كانوا صلة بين الموسيقى القديمة والموسيقى الجديدة. ومن المنشدات المطربات: فريدة مخيش، رمزية جمعة، خيرية السقا، نادرة، فيروز، أسمهان الأطرش، ماري جبران، ماري عكاوي، لور دكاش.

ولقد أنبغت بيروت وحلب كثيرين من المغنين والغالب أن في هاتين المدينتين خاصية حسن الصوت. سألت صديقنا الشيخ كامل الغزي من أساتذة حلب عن المغنين والموسيقيين في بلده فكتب لي رسالة قال فيها:

إن حلب لا تخلو في أكثر أوقاتها من الشداة والمترنمين الذي يعدون بالمئات ويعرف عند الحلبيين من يأخذ على غنائه أجرة باسم ابن الفن، ومن رجال أواسط القرن الماضي مصطفى يشبك، فتح ناديا لممارسة الفنون الموسيقية دعاه بقاعة بيت مشمشان، كان يختلف إليه في أوقات معينة كثير من المولعين بالموسيقى ليتلقوها عن أستاذها. وما زال الحلبيون يضربون المثل بالمكان الذي تتوفر فيه دواعي الطرب فيقولون: (ولا قاعة بيت مشمشان). ومن رجال أواسط القرن الماضي عبد الله البويضاتي ومن رجال القرن الماضي وأوائل القرن الحالي محمد بن عبده، إسماعيل السيخ، جبرا الأكشر، آجق باش، طاهر النقش، محمد الوراق، الدرويش صالح قصير البذيل، محمد غزال، باسيل حجار، أحمد

سالم، بن عقيل. وممن أخذ عن هذا بعض فصول الرقص المعروف بالسماح السيد أحمد أبو خليل القباني الممثل الموسيقار الدمشقي والسيد عبده الجمولي المطرب المصري وهما من المشاهير. ومن تلامذته امرأة قنصل إيطاليا في حلب كانت تقول: إن السيد أحمد بن عقيل يقل نظيره في هذا الفن حتى في أوروبا قال: ومن الأحياء في حلب عبده بن محمد عبده وشرف الدين المعري، ومن قينات القرن الماضي وأوائل القرن الحالي الحاجة عائشة المسلمينية.

وقال: إنَّ العود المعروف بالبربط لم يكن معروفًا في حلب في القرن الماضي حتى جاء حلب سنة (١٢٩٣هـ) رجل من أهل دمشق اسمه سعيد الشامي فأخذ الناس عنه. ومن العازفين على الكمنجة أوائل هذا القرن شعيا الكمنجاتي وإسحاق عدس ونيقولاكي الحجار. ومن الأحياء سامي الشوا ووالده أنطوان موسيقار أيضًا. والعازفون بالناي المعروف عند العرب بالبراعة كان نابغة فيه أوائل القرن عبده زرزور وكل من في حلب اليوم خريجوه وتلاميذه اهـ. ومن الموسيقيين الحلبيين أيضًا عبد الكريم بلة وحبيب العبديني وأحمد مكانس وعمر البطش ومصطفى طمرق توفوا في أوائل هذا القرن.

ولقد بدأت الموسيقى التركية تنازع الموسيقى العربية في أواخر القرن الماضي لأنها خُدمت أكثر من موسيقانا، ثم جاءت الموسيقى الإفرنجية، فأصبحت الموسيقى الشامية مزيجًا لا يقام له وزن، لم يحتفظ بالقديم وهو من روحه وعاداته ولم يحسن اقتباس الجديد لأنه ليس من مصطلحه. ولا يفوتنا القول: إن الموسيقى في العصور المتأخرة كان لها في أذكار بعض أرباب الطرق الصوفية مقام رفيع. ومنهم من أتبعها بالصنوج والأوتار، ومنهم من شفعها برقص، وقد قام منهم مبرزون في صنعتهم، وماتت شهرتهم، يوم سكنت نأمتهم، والموسيقى في الكنائس

على اختلاف الطوائف المسيحية وتباين العصور، ما زالت شائعة معتبرة وكم من موسيقار عندهم تقلبت به الحال حتى رقي بفضلله إلى أرقى درجات الكهنوت.

التصوير

أخذ الحثيون التصوير على الأغلب كما أخذوا النقش والبناء عن جيرانهم من البابليين والأشوريين، وربما أخذوا عن المصريين أيضًا؛ لكنهم لم يجدوه كل الإجادة على ما رأينا من تصاويرهم المكتشفة، وخالفنا رأي بعض المشتغلين بآثارهم المعجبين بمدنيتهم، فإن الآثار التي اكتشفت للحثيين في جرابلس تدل على مبلغ تلك الأمة من الإتقان في النقش والتصوير. وقد قال لنا الأستاذ هروزني التشكي وهو أخصائي بآثار الحثيين إن عادياتهم مما يعجب منه، ولا تقل بجمالها عن بقية آثار الأمم الأخرى، وكذلك فعل الكنعانيون والفينيقيون والإسرائيليون، أخذوا عن آشور وبابل ومصر هذا الفن، ولم يعرف أنه كان لهم طرز خاص في التصوير، وكانوا على ما ظهر دون من اقتبسوا عنهم. أما التدمريين فأجادوا في تصويرهم وكانوا ينقشون على القبور صور من دفن فيها من الرجال والنساء، مثل أهل جنوة في إيطاليا في العصور الأخيرة، ومنها صورة جاريتين رأهما أوس بن ثعلبة التيمي في القرن الأول وقال فيهما أبياته المشهورة

فتاتي أهل تدمر خبراني الما تسأما طول المقام
قيامكما على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام

وفي دار الآثار بدمشق مجموعة تماثيل من قبور تدمر كأنها تنطق، ومنها صورة فتاة مزينة الرأس يستدل منها على صورة تصفيف الشعور في ذاك العصر، وكيف كانت أزياء نساء تدمر وبهجة رءوسهن وأقراطهن

وعصباتهن، وفيما ظهر مؤخرًا في مدينة تدمر من تماثيل صاحبها زينب ووصيفاتها وفي غير ذلك من الشخوص دليل على تبريز التدمريين في هذا الشأن.

أما التصوير عند الروم واليونان في الشام فإن منه نموذجات تأخذ بمجامع القلوب قال الثعالبي: لم يبدع التصوير إبداع الروم والرومان أحد من الأمم، فقد كان لهم إغراب في خراط التماثيل وإبداع في عمل النقوش والتصوير، حتى إن مصورهم يصور الإنسان ولا يغادر شيئًا إلا الروح، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكًا، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت، وضحك الخجل، وبين المتبسم والمستغرب، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ، فيركب صورة في صورة، وصورة في صورة.

والمصانع الشامية من العهد الروماني هي ذات أشكال معتادة في تلك الأعصر لها نقش ظاهر خاص بها من النقوش النباتية الكبيرة المنقولة عن نباتات القطر ولا سيما في فلسطين على عهد الملوك والقضاة ومنها ما يستعمل فيه صور الطيور. قال دوسو: إن في الكتابات التي وجدت في الصفا صورة فرسان مسلحين برماح طويلة على مثال بدو هذه الأيام، وأحيانًا تمثلهم وهم يطاردون غزالًا أو وعلًا أو يصطادون أسدًا، ومنهم الفرسان يحملون الرماح والمشاة مسلحون بالقوس والنشاب. ولقد غصت فلسطين على عهد الإمبراطور قسطنطين بالمصانع التي تذكر بالحوادث الخطيرة التي وردت في الإنجيل، وقد زينت هذه المصانع بالفصوص التي تمثل هذه المشاهد.

جاء الإسلام للقضاء على الوثنية وعبادة الأصنام، فحاذر المسلمون إذا أجازوا الرسم المعجسم أن يكون في عملهم مدرجة للعرب إلى

الرجوع إلى عبادة الأصنام، فجعلوا في التجويز بعض القيود الخفيفة، ولما ذهبت تلك الخشية أخذت مسألة التصوير تنحل شيئاً فشيئاً ويُعمد إلى ما فيه مصلحة منه. ذكر المقرئ أن الرسول عليه السلام أقر نقود العرب في الجاهلية التي كانت ترد إليهم من الممالك الأخرى والدنانير قيسرية من قبل الروم مصورة وأن عمر ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وبأعيانها وضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلداً سيفاً.

ورأينا زيد بن خالد الصحابي استعمل الستر الذي فيه صور ولم ينكر الناس عمله. قال صديقنا السيد محمد رشيد رضا في المنار: ومن الآثار في حكم التصوير وصنع الصور والتماثيل اتخاذ أحد أعظم أئمة التابعين القاسم بن محمد ابن أبي بكر (رض) الحجلة التي فيها تصاوير القندس والعنقاء، وهو ربيب عمته عائشة الصديقة وأعلم الناس بحديثها وفقهها، ومنها استعمال يسار بن نمير مولى عمر بن الخطاب (رض) وخازنه الصور في داره، ومنها صنع الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما ولي إمارة المدينة وكانا من التابعين قال: وعمل مروان يدل على أن التصوير كان مستعملاً في عصر الصحابة، فمن عرض مسألة التصوير واتخاذ الصور على هذه القواعد الشرعية علم منها أن دين الفطرة الذي قرن كتابه ووصف بالحكمة، ورفع منه الحرج والعسر عن الأمة، لم يكن ليحرم صناعة نافعة في كثير من العلوم والأعمال ويحتاج إليها في حفظ الأمن وفنون القتال، وإنما يجرم ما فيه مفسدة أو ما كان ذريعة إلى مفسدة اهـ.

ويعجبني ما كتبه أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في وصف رحلته إلى صقلية عام ١٣٢٢هـ (١٨٩٤م) في مجلة المنار، وقد ذكر تنافس الغربيين في حفظ الصور المرسومة على الورق

والنسيج فقال: إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوين والمبالغة في تحريره خصوصًا شعر الجاهلية، وما غني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المطبوعات من الرسوم والتماثيل، فإن الرسم ضرب من الشعر يرى ولا يُسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يرى. إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية. يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضى، والطمأنينة والتسليم، وهذه المعاني المرجة في هذه الألفاظ، مقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرًا باهرًا، يصورونه مثلاً في حالة الجزع والفرع والخوف والخشية، والفرع مختلفان في المعنى، ولم أجمعهما هنا طمعًا في جمع عيين في سطر واحد؛ بل لأنهما مختلفان حقيقة، ولكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفرع ومتى يكون الجزع، وما الحياة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك. أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك.

قال ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهي ما حُكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية وأوضاعهم الجثمانية، هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك إن الراسم قد رسم، والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصور قد محي من الأذهان، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، وإما

أن ترفع سؤالاً إلى المفتي فهو يجيبك مشافهة، فإذا أوردت عليه حديث ((إنَّ أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورون)) أو ما في معناه مما ورد في الصحيح، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسبيين الأول اللهو والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، والأول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الإسلام لمحوه، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة في نقش المصحف موضع النزاع، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر ... وبالجمله فإنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل اهـ.

لما جاء الفاتحون إلى الشام كانت في تصويرها عالة على الروم والفرس وبقيت على ذلك مدة قليلة؛ لأن التصوير لم يكن يعرف أنه كان في متفرق أقطار جزيرة العرب اللهم إلا في اليمن، برع فيه أهلها براعة أثبتتها الآثار والمصانع، وكانت الأثواب اليمانية المزركشة المبرقشة المصورة مما يحمل إلى الحجاز وسائر أرجاء الجزيرة وما إليها منذ عهد الجاهلية، وأول ما عرف التصوير في الشام على عهد المسلمي كان في زمن الوليد بن أبي الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى في القدس وغيرهما، وما نظن أن جميع من صوروا له ما أراد من الحيوان والنبات والشجر والمدن والأصقاع كانوا من أصول عربية بل كان فيهم الفرس والروم الذين دخلوا في خدمة الدولة العربية، ومنهم من بعثت به مملكة بيزنطية ليساعدوا الخليفة على عمله النافع، وقد وجد الأثري موسيل

التشكي في قصير عمرة على سبعين كيلو مترًا من قصر المشتى في البلقاء كتابات ونقوشًا تشير إلى فتح الأندلس في أيام الوليد وفيه من النقوش الزاهية والتصاوير العجيبة ما يأخذ بالآبصار. قال صاحبنا شيخو: وفي هذه القصور من الآثار الهندسية ومن التصاوير ومن تمثيل أحوال البادية كالصيد والغزوات والمآدب والمصانع ما أذهل العلماء لوجوده في البراري. ويقول ريسون: إن العرب قد نهجوا في الفنون الجميلة نهج البيزنطيين، ولم يخالفوهم إلا بعد تجسيم الحيوان، ولكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتي من تشبك أوراق وأقواس باهرة وفصفصة زاهرة وآكام ومعاهد ساحرة.

وفي التاريخ العام أن الإسلام حظر تمثيل الصور الأدمية ولكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من أن يكون في قصورهم صور وتمائيل. ومع هذا لم يخلف العرب في النقش ولا في الرسم آثارًا خارقة للعادة، وما بقي من آثارهم وعادياتهم الحجرية وأنواطهم المنقوشة، وعاجهم ومجوهراتهم، يشهد باستعدادهم الفني، فإنهم نقلوا عن غيرهم في هذا الشأن أولًا ثم أخذوا يمرنون أنفسهم على حسن الهندسة بالنقل عما عثروا عليه بادئ بدء ولا سيما عن الآثار البيزنطية، فكانوا يخشون أول أمرهم ثم أخذوا يجرأون فيعدلون ما يريدون احتذاءه بل يخترعون ويبدعون، فظهر لهم علم جديد مستقل على غير مثال، قال: ولا نعلم هل كان للعرب قبل الإسلام طرز من البناء الخاص بهم؛ لأنه لم يبق من الزمن السابق للإسلام سوى خرائب مبعثرة، ومن الهجرة إلى القرن العاشر كان عهد الطرز اليوناني العربي، وعلى مثاله جاء بناء المسجد الأقصى في القدس، والجامع الأموي في دمشق، والجامع الأعظم في قرطبة، والتأثيرات اليونانية ظاهرة فيها اهـ.

وبعد أن ترجم العرب كتب الفنون والصناعات عن الروم والفرس والقبط والسريان والهند، منذ أول النصف الثاني من القرن الأول، أخذوا يزينون كتبهم ببعض الصور، يصورونها لتمثيل المسائل العلمية للأبصار، ولا سيما كتب النبات والبيطرة والحيوان والجراحة والهندسة والفلك والجغرافيا وبعض كتب الأدب والمحاضرات والمقامات، فاستعملوها بحسب الحاجة وأجادوا بالنسبة لعصورهم، على ما ثبت ذلك بشهادة المحفوظ من مخطوطات العرب في متاحف الشرق والغرب، وأكثر من أثر عنهم التصوير والإجادة فيه وصنع التماثيل ووضعها في قصورهم خلفاء بني أمية في الأندلس، ومن جاء بعدهم من الملوك، والصور - كما قال ابن أبي أصيبعة - إنما جعلت لارتياح القلوب إليها واشتياق النظر إلى رؤيتها، والصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها، وكذلك نقشت اليهود هياكلها، وصورت النصراني كنائسها ويبيعها، وزوق المسلمون مساجدهم.

نعم زوّق المسلمون مساجدهم، وكانوا أوائل الإسلام يكتفون بالصلاة مساجد أشبه بالأرض القفراء، ويفضلون السجود على الحصا ويعدون فرشها بالبوارى بدعة، وذلك لئلا تشتغل العين بشيء يبعد النفس من الخشوع لبارئها، ثم أخذوا يتأنقون في مساجدهم، ويفرشونها بالطنافس والزرابي، ويصورون حيطانها، وينقشون فيها آيات ثم مشجرات وأماكن جميلة، ومعظم ما انتهى إلينا أو بلغنا خبره في العصور العشرة الأخيرة في الشام تصوير المسائل العلمية، والأمصار والشجار، والسفن تمخر في البحار، ثم تصوير الحيوان والإنسان ولكن على قلة.

لا جرم أن التصوير في هذه الديار كان ضعيفاً بعض الشيء لأن مسأله كان فيها نظر عند بعض الفقهاء الذين جمدوا على ما فهموه من الشريعة، والتصوير عارض على الملة غير مغروس في فطرتها، ولكن

المسلمين تطوروا بطور الأمصار التي نزلوها. ولم يتوقف ملوكهم وأمرأؤهم على فتاوى الفقهاء لإقامة المعالم واقتباس الحضارة، فقد ذكر ابن بطريق أن بطريق الروم في قنشرين طلب إلى أبي عبيدة بن الجراح المودعة على نفسه سنة حتى يلحق الناس بهرقل الملك، ومن أقام فيها فهو في ذمة وصلاح، فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك، فسأله البطريق وضع عمود بين الروم والمسلمين، وصور الروم في ذلك العمود صورة هرقل جالساً في ملكه فرضي أبو عبيدة، ومُرَّ بالصورة أحد العرب، ووضع زج رمحه في عين تلك الصورة ففقاً عين التمثال عن غير قصد، فأقبل البطريق وقال لأبي عبيدة: غدرتمونا يا معشر المسلمين، ونقضتم الصلح، وقطعتم الهدنة، فقال أبو عبيدة: فمن نقضه؟ فقال البطريق: الذي فقاً عين ملكنا. فقال أبو عبيدة: فما تريدون؟ فقال: لا نرضى حتى نفقاً عين ملككم. فقال أبو عبيدة: صوروا بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بي ما أحببتكم وما بدا لكم، فقال: لا نرضى إلا بصورة ملككم الأكبر، فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود، وأقبل رجل منهم ففقاً عين الصورة برمحه فقال البطريق: قد أنصفتُمونا.

وذكر المقرئ أن خمارويه بن أحمد بن طولون أمير مصر والشام المتوفى سنة (٢٨٢هـ) عمل في داره في القاهرة مجلساً برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المجال باللازورد، المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته وصورة حظاياه، والمغنيات اللاتي يغنيهن بأحسن تصوير وأبهج تزويق، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين والكراذن^(١)

المرصعة بأصناف الجواهر، وفي آذانها الأخراس^(١) الثقال الوزن، المحكمة الصنعة، وهي مسمرة في الحيطان ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة؛ فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا.

كانت هذه القاعة المصورة في القرن الثالث. وظهر في عصر الأيوبيين والمماليك مصورون شاميون أبدعوا في التصوير على الجدران وعلى الكتب، ومنها ما كان إلى القرن السابع في دير باعتل قرب حمص، كان فيه على رواية ياقوت عجائب منها آرج (بيت مستطيل) أبواب فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة فيها، وصورة مريم في حائط منتصبة، كلما ملت إلى ناحية كانت عينها إليك. ومنها ما كان في هيكل دير مران في سفح قاسيون بدمشق من صورة عجيبة دقيقة المعاني. وذكر ابن جبير أنه كان في كنيسة مريم بدمشق في القرن السادس من التصاوير أمر عجيب، وكان مثل ذلك في كنيسة القيامة وغيرها من كنائس فلسطين.

كان اليازوري من وزراء الفاطميين يفضل كثيرًا على المصورين الشرقيين وكانوا من المسلمين. وقد جعل الظاهر بيبرس رنكه أي شعاره الأسد، وجعل دراهمه على صورته، وجعل أقوش الأفرم رنكه في غاية الظرف وهو دائرة بيضاء يشقها شطب أخضر كأنه مسن عليه سيف أحمر يمر من البياض الفوقاني إلى البياض التحتاني وقال فيه نجم الدين هاشم البعلبكي:

سيوف سقاها من دماء عداته وأقسم عن ورد الردى لا يردها
وأبرزها في أبيض مثل كفه على أخضر مثل المسن يحدها

(١) جمع خرص: الحلقة من الذهب والفضة أو حلقة القرط.

قالوا: وقد كان الخواطي ينقش رنكه على معاصمهن وفي أماكن مستورة من أجسامهن.

ومن أجمل ما أبقّت الأيام وإن لم يتم لها إلى الآن قرنان، الصورة الباقية في دار أسعد باشا العظم في حماة من أبدع ما حوت من النقوش العجيبة وغيرها، وهي صورة رسمت على قطعتين من الخشب جعلتا في حائط القاعة الكبرى ونقشت عليهما صورة حماة في ذلك العهد بجوامعها ومدارسها، ونواعيرها وقصورها، ظهر منها أن حماة كانت أعمر مما هي عليه الآن عرفنا ذلك بفضل التصوير.

أخذت العرب نقوش الفسيفساء عن الروم وبالغت فيها ولا يزال إلى اليوم قطع في الدور وغيرها، وأهمها ما لا يزال في كنيسة مادبا في البلقاء من مصور فلسطين ونهر الأردن يشقها من وسطها والأسماك تعوم فيه، والمدن التي كانت عامرة لعهد واضعها، ولا يزال القسم الأعظم منها بحاله لم يصب بأذى الأيام. وآثار الفسيفساء كثيرة مبعثرة في دور مادبا لم تزل على بريقها، وفي دار سليم الصانع في مادبا بركة ماء معمولة بالفسيفساء الملونة أيضًا تخال ما فيها ماء حقيقيًا وعلى جوانبها الثلاثة الباقية رسوم بالفسيفساء تمثل الحيوانات والطيور البرية والداجنة، تشرح في جنية زاهرة والطيور المائية واقفة في وسط الماء على آنية تشبه الزهرية، وفي كل زاوية من زواياها صورة إنسان تخالف الأخرى. وفي هذه البلدة عدة قاعات فرشت أرضها بالفسيفساء يطلق الماء عليها لتغسل كما يُغسل بلاط القاعات وأفنية الدور.

قال في مسالك الأمصار: والفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق عليه زجاج رقيق، ومن هذا النوع المسحور (المسجور) وأما الملون فمعجون وقد عمل منه في هذا الزمان (٧٤٠-٧٥٠) شيء كثير برسم

الجامع الأموي وحصل منه عدة صناديق وفسدت في الحريق الواقع سنة أربعين وسبعمائة وعمل منه قبل للجامع التنكري ما على جهة المحراب؛ غير أنه لا يجيء تمامًا مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة المنظر، والفرق بين الجديد والقديم أن القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد والجديد قطعه مختلفة، وبهذا يعرف الجديد والقديم اهـ.

ووصف ابن فضل الله هذا يمكن أن يستتج منه أن الفسيفساء كانت تعمل في الشام، وأن هذه الصناعة اللطيفة وإن اقتصت بها القسطنطينية قد نقلت إلى الشام وجود عملها. وكان الوليد بن عبد الملك يحمل الفسيفساء على البريد من القسطنطينية إلى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدينة. وكانت الفسيفساء في الجامع الأموي قبل حريقه الأول في القرن الرابع ملونة مذهبة تحوي صور أشجار وأمصار وكتابات، على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة، وقل شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان قاله المقدسي، وقال غيره: إنه مثلث في صور الجامع صفات البلاد والقرى وما فيهما من العجائب وأن الكعبة المشرفة صورت فوق المحراب كما قال فيه بعض المحدثين:

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| إذا تفكرت في الفصوص وما | فيها تيقنت حلق واضعها |
| أشجارها لا تزال مثمرة | لا ترهب الريح في مدافعها |
| كانها من زمرّد غرست | في أرض تبرّ يغشى بفاعها |
| فيها ثمار تخالها ينعت | وليس يخشى فساد يانعها |
| تقطف باللحظ لا بجارحة الـ | أيدي ولا تجتنى لبائعها |
| وتحتها من رخامه قطع | لا قطع الله كف قاطعها |
| أحكم ترخيمها المرخم قد | بان عليها إحكام صانعها |

قال صديقنا أحمد تيمور في رسالته التصوير عند العرب بعد كلامه على محاسن الجامع الأموي وما فيه من التصاوير: ولا نعلم إن كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه، أو من عمل صناع الروم الذين استعان بهم الوليد بن عبد الملك عند بناء المسجد. وقد علل المقدسي زخرف الجامع الأموي فقال: قلت يومًا لعمي: يا عم لِمَ يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون، لكان أصوب وأفضل. قال: لا تغفل بُني، إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل، وذلك أنه رأى الشام بلاد نصارى، ورأى لهم فيها بيعًا حسنة قد افتن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعة لذ والزها فاتخذ للمسلمين مسجدًا شغلهم به عنهن، وجعله أحد عجائب الدنيا، ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة وهياتها خشي أن تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى اهـ. ولذلك حرص المسلمون في كل دور على السير على قدم الوليد في الاحتفاظ بنقوش الجامع وتحاسينه وتزايينه وتزويقه، ومما أبقتة الأيام من نقوش الفسيفساء أو الفصوص حيطان قبة الظاهر ببرس في دمشق، فإنها الأثر الباقي من هذه الصناعة في هذا الصقع، بعد أن دثرت فسيفساء الجامع بما تعاقب عليه من الحريق في أدوار كثيرة ولم يبق منها إلا ما كشف مؤخرًا في الحلظ الغربي من صور الأشجار وغيرها. ومن القصور المصورة الجدران دار الملك رضوان بحلب وفيها يقول الرشيد النابلسي من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ ويذكر ما على جدران الدار من الصور:

| | |
|-----------------------------|--------------------------|
| دارٌ حكّت دارينَ في طيب ولا | عطّرَ بساحتها ولا عطار |
| رفعت سماءَ عمادها فكأنها | قطبٌ على فلك السعود يدار |
| وزهت رياضَ نقوشها فبنفسج | غض ووردٌ يانغ وبهار |

نُور من الأصباغ مبهج ولا نور وأزهار ولا أزهار

ومنها:

صور ترى ليث العرين تجاهه فيها ولا يخشى سطاه صوار
وفوارسا شبت لظى حرب وما دعيت نزال ولم يُشَنّ مغار
وموسدين على أسرة ملكهم سكّزا ولا خمر ولا خمّار
هذا يعانق عوده طربا وذا أبدا يقبل ثغره المزمّار

ثم لما تزوّج بضيّفة خاتون ابنة عمه العادل واسكنها في هذه الدار
وقعت نار عقب العرس فاحترقت واحترق جميع ما فيها، فجددها
وسماها دار الشخوص لكثرة ما كان من زخارفها.

ومن القصور المصورة القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس في
مرجة دمشق أوائل النصف الثاني من القرن السابع، وعلى أنقاضه بنيت
التكية السليمانية، وكان على واجهته مائة أسد بمنزلة صورها بأسود في
أبيض، وعلى الشمالية اثنا عشر أسدا بمنزلة صورها بأبيض في أسود،
وهذه الصور أجمل من صور الأسود والنمورة وغيرها من الحيوانات التي
كانت في قلعة حلب، ومن الحمامات المصورة حمام سيف الدين بدمشق
عثر أحمد تيمور على قصيدة في ديوان عمر ابن مسعود الحلبي الشهير
بالمخار في وصف هذا الحمام جاء فيها:

وخطّ فيها كل شخص إذا لاحظته تحسبه ينطق
ومثل الأشجار في لونها ولينها لو أنها تورق
أطيّارها من فوق أغصانها بدها تنطق أو تزعق
وهيئة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يحرق

هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق

ومن التصوير على النسيج على ما ذكره البدرى من تصوير «الأبيض القطني المصور لأحياء القصور وأموات القبور» وكان يصنع في دمشق. ومن التصوير في الكتب ما ذكره أبو الفداء في حوادث سنة (٦٤٢) في ترجمة المظفر صاحب حماة قال: استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف وكان مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية فعمل له كرة من الخشب مدهونة، ورسم فيها جميع الكواكب المرصودة. وذكر ابن قاضي شهبة أن علي بن محمد بن صالح الرسام عالم صفد المتوفى سنة (٧٤٩هـ) كان في أول أمره يرسم القماش وقال: إن عنده كتاباً في علم الفلك صورت فيه جميع الأبراج والنجوم بليقتي الكتاب أي بالأحمر والأسود تحت كل صورة أرجوزة بتعريفها. قال القاضي جمال الدين ابن واصل: وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضع دقيقة منها. وقد اطلع مؤلف كتاب نهر الذهب على مخطوط في وصف شجرة الإفادة التي كانت في الجامع الأموي بحلب وتعد من الذخائر النفيسة العلمية قال: إنها كانت عظيمة الرواء مصنوعة من حجر ونحاس وحديد ذات خطوط وجداول في أصول العلوم الرياضية شبيهة بشجرة ذات جذع وأغصان وأوراق عظيمة في كل ورقة منها أصل من أصول تلك العلوم. وكان الطلبة يقدمون حلب من القاصية للاشتغال بالعلوم الرياضية المرسومة في هذه الشجرة. واسم غارس شجرة الإفادة خليل بن أحمد غرس الدين على ما في در العجب.

ويدخل في باب النقش والصنائع الغريبة ما رواه المقدسي في حوادث سنة (٩٩٠) يوم عمل ختان ابن درويش باشا والي دمشق، فإنهم صنعوا شيئاً يسمى النقل بجامع المصلى و بجامع ايلخان خارج محلة

القراونة وبجامع التوبة، وهو يشتمل على أربع عشرة قلعة من الورق المحشو بالبارود وأربع عشرة فرسًا وأربعة عشر عفرينًا كذلك، وعلى صور طيور ووحوش وكلاب وغير ذلك، وعلى قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل على صورة أنواع الفواكه والبقول والأزهار والأطياف وغيرها، كل ذلك من الشموع المصبغة والتذهيب والتفضيض، وكان ارتفاعه على علو الجملون الذي بجامع المصلى بحيث لم يتأت نقله منه وإخراجه إلا بعد فك الجملون المذكور، وهدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور وهدم مواضع متعددة في طريقه إلى دار السعادة، وهدم الحائط الشرقي من باب دار السعادة أيضًا حتى أدخل، وكان لهذا النقل يوم مشهود خرج للفرجة عليه جميع أهل دمشق رجالًا ونساء لم يتخلف أحد. ثم في اليوم الثاني منه نقل النقل الذي صنع بجامع محلة القراونة وبجامع التوبة وهو يشتمل على قصرين عظيمين من الشمع أيضًا أحدهما أطول من القصر المقدم بنحو أربع أذرع والآخر دونه مشتملين على ما تقدم وعلى صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل والجمال والفيلة والسباع والطيور وغيرها، كل ذلك من السكر المعقود وعلى النقول والملبسات بالسكر أيضًا.

وكان رشيد الدين بن الصوري يستصحب مصورًا ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها، فكان يتوجه إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات، فيشاهد النبات ويحققه ويؤريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها. ثم إنه سلك في تصوير النبات مسلكًا مفيدًا، وذلك أنه كان يُري النبات للمصور في إبان نباته وطرأوته فيصوره، ثم يريه إياه أيضًا وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه أيضًا في وقت ذواه ويبسه فيصوره، ومن ذلك

نستدل أنه كان في القطر أكثر من مصور في ذاك العصر، وأن ذلك التصوير بالأصباغ كان مألوفًا، وقد بلغ من خدق المصورين أن يصوروا النبات على أنحاء شتى، أما عنايتهم بالنبات نفسه فمسألة ينظر فيها علماء النبات يستخرجون منها ما يريدون، وهذا كان في الثلث الأول من القرن السابع للهجرة أي في القرن الثالث عشر للميلاد.

ولا شك أن كل هذه البدائع كانت من صنع ضُنع الأيدي من الشاميين، فمن المصورين على الخزف ومن المصورين على الخشب ومن المصورين على النسيج ومن المصورين على النحاس والحديد، فمن المصورين على الخزف «الغبيي» قال تيمور: إن له قطعًا بدار الآثار العربية بمصر، عثروا عليها بأطلال الفسطاط وقد كتب عليها اسمه فكتب على بعضها «الغبيي» فقط وعلى بعضها «الغبيي الشامي» وإن في دار الآثار العربية أيضًا لوحًا من القاشاني «لمحمد الدمشقي» عليه صورة مكة المكرمة والكعبة المعظمة صورها سنة (١١٣٩هـ) وكتب عليها اسمه.

وبعد فهذا القليل الذي قرأناه واستأنسنا به يدل على ذوق وإبداع، وإن مشاركة الأمة في هذا الفن كانت على حصة موفورة. وفي هذا العصر نبغ في الشام مصورون لا بأس بهم أخذوا عن إيطاليا وفرنسا وغيرهما وكادوا يجارون مصوري الغرب بإبداعهم، ومنهم من يصور بالأصباغ، ومنها بدونها أي بالسواد، ومنهم من يصور التماثيل من المرمر والرخام والصفير، ومنهم من ينقش فييدع على الخشب والنحاس، ومن المصورين باليد توفيق طارق، علي رضا معين، نديم بخاش، مصطفى الحمصاني، مصطفى فروخ، عبد الحميد عبد ربه، عبد الوهاب أبو السعود، بشارة السمرة، داود القريم، حبيب سرور، خليل صليبي، سليم عورا، جبران خليل جبران، خليل الغريب، نقولا الصائغ.

النقش

ويصح أن يعد في باب التصوير نقش البيوت والتماثيل، فإن المعروف أنه كان

للشام حظ منه، ولم نر للنقش على الحجر براعة وإبداعاً عند الأمم القديمة بقدر ما رأينا عند اليونان والرومان، فإن النقوش التي عثر عليها في شمالي الشام من أصل حثي مثل الأسود التي كانوا يرسمونها على أبواب مصانعهم وجدرانها وأبي الهول المجنح برأس إنسان أو ثور وهو من نقوش الآشوريين، والنقوش التي عثر عليها في الجنوب من أصل سامي كالكنعانيين والإسرائيليين وما عثر عليه في الساحل من نقوش الفينيقيين وأربابهم ومعظمها منقولة عن المصريين الفراعنة - كل هذه النقوش ليست من جمال الوضع وحسن الذوق بحيث يرتاح إليها النظر مثل نقوش الرومان واليونان، ومثال منها الناووس الذي عثر عليه في صيدا من القرن الرابع للميلاد وجعل في دار الآثار في الأستانة وهو يمثل نساء باقيات تمثيلاً كأنك تراهن.

أين جمال نقوش بعلبك من نقوش جبيل، أين نقش الناووس البديع المنسوب للإسكندر المقدوني أو لأحد قواده، وهو مما كان عثر عليه في صيدا أيضاً وحفظ في دار الآثار بالأستانة، من نقوش قبر أحيرام الذي عثر عليه في جبيل وجعل في دار الآثار في بيروت، أو قبر حيرام الذي عثر عليه قرب صور ونقل إلى متحف اللوفر في باريس سنة ١٨٦٠ م.

آثار تدمر وتماثيلها تنم عن ذوق وفضل صناعة أكثر من أرباب الفينيقيين والحثيين، والغالب أن تماثيل الشبه كانت تعمل في قبرس والروم وتحمل إلى تدمر لتزين بها رحباتها وساحاتها، وصناعات جرش ومادبا أجمل من نقوش السهول في حوران والصفاء؛ كأن للإقليم وللعنصر

الذي ينزله دخلاً كبيراً في إجادة النقش والتصوير. ومعظم العناصر التي نزلت الشام منذ عهد التاريخ من العناصر السامية، والساميون كما قال بعض علماء الإفرنج ما زالوا ينفرون من الرسم والنقش والتصوير. ولا غضاضة إذا قلنا: إن الآريين أفرطوا في الاشتغال بالرسم والنقش إفراطاً شوهدت آثاره في أمم أوربا التي خلفتهم، فكل شيء إذا لم يرسم الآن عندهم لا يفهم ولا يدرك، فأضعفوا بذلك قوة التخيل وقوا الباصرة.

ومما يستدل به على أن التماثيل قبل الإسلام كانت تعمل وتنقش في الشام وأن العرب نقلوا عنها في جزيرتهم ما رواه ابن الكلبي من أنه كان لقضاة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم في مشارف الشام يقال له الأقيصر كانوا يحجونه ويحلقون رءوسهم عنده. وقال ربيعة بن صُبغ الفزاري:

وإنني والذي نغم الأنام له حول الأقيصر تسييح وتهليل

قال: ووجد عمرو بن لحي أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها فغفلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة. ولا شك أن هذه الأصنام تعد من الصناعات الشامية.

ولم يخل عصر في الشام من نقاشين أبدعوا النقش على الحجر والنقش بالأصباغ على الجدران وعلى الخشب يتناقلون ذلك خلفاً عن سلف، والنقش بالجبس على الجدران، ومنها مقرنصات جميلة ذات تعاريف وكتابات حفظت في مدفن أحد الوزراء من القرون الوسطى في صالحية دمشق أمام دار الحديث الأشرفية البرانية وبينهما الطريق، وتسمى هذه المدرسة التكريتية. وفي بعض الدور القديمة الباقية من القرن العاشر وبعده في حلب ودمشق كثير من القاعات تدل على ذوق. وفي در الحبيب

أن أبا بكر بن أحمد النقاش الجلومي الحلبي خدم أساتذة النقاشين من الأعاجم واستفاد منهم ومهر في نقوش البيوت وكتابات الطرازات على طريقة القاطع والمقطوع، وفي نقوشه ما كان لكفّال حلب وغيرهم من الرماح والسروج بالمذهب واللازورد مع معرفة طريقة حله وصنعة التركاش وضعًا ونقشًا وصنعة اللوح الذي يكتب فيه وصنائع أخرى تتم عشرين صنعة، ولا يعقل أن يعمل ذلك مثل هذا المفنن ولا يكون حوالياً عشرات من المتعلمين والعاملين.

ومن النقوش الكثيرة التي بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش باب أنطاكية وباب النصر، وعلى هذا قطعة من إفريز تمثل كرمة معرشة يركض إلى جانبها أرنب. ومن أجمل آثار قلعتها المحراب المنقوش على الخشب من عمل نور الدين زنكي والجزء الثاني الذي أنشأه الظاهر غازي يدل على صورة الهندسة المألوفة في عصر الأمويين: مثلث قائم الزوايا تعلوه قبة بين حنايا واسعة.

ومن المنابر العجيبة الصنع ما عمله نور الدين محمود بن زنكي في حلب برسم المسجد الأقصى عمله حميد بن ظافر الحلبي وسليمان بن معالي من خشب مزصع بالعاج والأبنوس وعليه تاريخ سنة (٥٦٤هـ)، وقد وضعه صلاح الدين في محله عند فتح القدس وقد عمل في حلب أيضًا محراب الجامع الكبير بحماة صنعه ذاك الفنان الحلبي. ومن أجمل المنابر منبر الحرم في الخليل من صناعة الفاطميين ومنبر جامع الحنابلة بدمشق من الخشب. ومن المحاريب محراب جامع الحلاوية بحلب من الخشب ومحراب الأقصى من الرخام. ومن المحاريب الجميلة محراب جامع الفردوس بحلب الذي أنشأته ضيفة خاتون وهو من عمل حسان بن عنان. وجامع الظاهر غازي في قلعة حلب الذي بناه سنة (٦١٠). فيه أجمل ضروب الهندسة من النقوش المعروفة في المصانع الجميلة. ومن أهم

الآثار العربية تابوت من الخشب وضع على قبر السيدة سكيئة بنت الحسين في مقبرة باب الصغير بدمشق عمله أحمد بن محمد بن عبد الله سنة (٥٦٠هـ)، وقد نقش بخطوط كوفية وجعل داخل الحروف نقوش وحروف صغيرة أخرى بالكوفية أيضًا. وتابوت ومحراب ومنبر جامع خالد بن الوليد بحمص من أجمل الآثار العربية. وكذلك تابوت مدفن أبي الفداء صاحب حماة. ومن الآثار العربية ما نقش بالحروف الكوفية على تابوت من الحجر دفنت تحته السيدة فاطمة الصغرى بنت الحسين من

القرن الرابع. ومن التوابيت المهمة تابوت سيدي صهيب في حي الميدان بدمشق (من القرن السادس) ومنها تابوت بخت خاتون المعروفة عند العوام بالسيدة حفيظة في طريق عين الكرش المؤدي إلى حي الأكراد بدمشق.

وذكر القزويني سوق المزوقين في حلب وقال: إن فيه آلات عجيبة مزوقة، وذكر ابن جبير أن أكثر حوانيت حلب خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش. وقد عُرف الحلبيون من القديم بحسن الذوق في هذه الصناعة كما عُرفوا بحسن الذوق في الخطوط العربية المتنوعة الأشكال، وكلها نقوش معرشة تأخذ بمجامع الأبصار، وتعد في باب النقش، وقد كان عدد الخطاطين الذين أنبغتهم حلب على اختلاف العصور أكثر من غيرها من مدن الشام.

ذكر الغزي أن النقاشين في حلب أصناف منهم من ينقش على الحجر وهم نوابغ البنائين وفي المباني القديمة كثير من النقوش الحجرية تشهد ببراعة البنائين الحلبيين في القرون الماضية وتدل دلالة واضحة على نبوغهم بصناعة النقش، من ذلك صورتا وجهي أسدين في حجرين

مرصوفين في جانبي أحد أبواب قلعة حلب لا يفرق الناظر إليهما في أول وهلة بين ملامحهما، فإذا أمعن النظر فيهما تبين له أن وجه أحدهما يضحك ووجه الآخر يبكي مما دل على براعة النقاش.

وقال: إن من النقاشين من يعاني النقش على المعادن كالذهب والفضة والنحاس، ومنهم من ينقشون المنازل ويعرفون بالمدهنيين ينقشون صور أشخاص وأزهار وطيور وأشجار، وإن هذه الصنعة انحطت في حلب أواخر القرن الماضي حتى سافر جماعة من أهلها إلى أميركا وتلقوا هذه الحرفة من أربابها وعادوا فنشروها بين الناس. ومن أشهر النقاشين يوسف سعد الله الحوئك، ومن الحفارين والنقاشين يوسف الزغبى وبشارة عيسى الزغبى، وهذا حفر صورة آل رومانوف في قطعة صدف من أنفس التحف.

واشتهر في دمشق وحلب وبيروت خطاطون كثيرون في العهد الأخير ومنهم أمين زهدي، مصطفى السباعي، مراد الشطي، مصطفى القباني، محمد علي الحكيم نجيب هواويني، حسين البغجاتي، ممدوح الشريف، سليم الحنفي، محمد علي الخطيب، زكي المولوي، حنا علام، يوسف علام، نسيب مكارم، مشكين قلم، محمد يحيى، صادق الطرزي، موسى الشلبي.

وكان فن الخط إلى عهد بعيد صناعة يتنافس بها، وكثير من البارعين فيها كانت مدار معاشهم ينسخون الكتب وغيرها فلما جاءت الطباعة ثم الآلات الطباعة بطل التنافس بالخط العربي الجميل وقُلِّ الراغبون فيه.

البناء

قالوا: إن علم المباني فن من الفنون الجميلة بل هو أحسنها، إذا قارنا بينه وبين الموسيقى نجد أن كليهما مطرب للإنسان، فالأول مكوّن من نغمات غير متنافرة منتظمة الأوقات، والثاني مكوّن من تراكيب وأوضاع غير متنافرة الأجزاء، يظهر الأول مذيبيات العدد والأوتار يحملها الهواء إلى الأذان فيطرب بها الإنسان، ويظهر الثاني الظل والضوء والألوان فتراها العين في أتم ما يكون موضوعة بنسب محفوظة ما بين مزخرف وبسيط تظهر عليها المتانة والراحة فتشتاق إليها النفس، فكلما الفنين جميل غير أن الأول تذهب محاسنه في الهواء وبعد ذهابها لا يشعر بها، وتبقى محاسن الثاني ما دام لها ظل.

مواد البناء الحجر والتراب والخشب والحديد قد توجد كلها في قطر ولا يوجد إلا بعضها في آخر، فمصانع بابل تداعت لأن معول البانين كان على الأجر لا الحجر، ومصانع الشام بقيت لأن الحجر فيه كثير مبذول، وإن كان أقدم ما عُرف من آثارنا يُرد إلى زهاء ألفي سنة، وأقدم ما عُرف في بابل وآشور ونيوى من الأجر المكتوب يرجع إلى أربعة آلاف سنة. وما عمل عندنا من الخشب والتراب دثر بعد مدة ليست بطويلة من عهد بانيه.

ولقد ظهر أن الشام في القديم لم يكن له طراز خاص بالبناء، وكان بناؤه بحسب روح الدولة التي تحكم فيه والأمة التي تتغلب عليه: مصرًا أيام الفراعنة، آشوريًا على عهد الآشوريين، بابلًا في أيام بابل، فارسيًا في دور فارس، روميًا في دولة الروم، رومانيًا في عهد الرومان. ولم يكن للحثيين والإسرائيليين هندسة خاصة؛ بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الآشوريين أصول بنائهم، وليس مما اكتشف منه حتى الآن ما هو

خارق للعادة في أشكاله ووضعه بل هو محرف عن الطراز الآشوري تحريفًا كثيرًا، وما اكتشف من الصور النصفية وغيرها من عهد الحثيين لا ينم عن ذوق وإبداع على الأكثر. ومصانع الحثيين في الجملة مقتبسة من مصانع الآشوريين والبابليين اقتباسًا رديئًا لا يخلو من جفاء وسذاجة على ما قال الباحثون. وسار الإسرائيليون في صنع مصانعهم على تقليد الآشوريين والمصريين وقلدوا المصريين في الأكثر لقرب فلسطين من مصر، ولاستيلاء المصريين زمانًا على فلسطين. وكذلك فعل الفينيقيون والكنعانيون. وعلى عهد الإسكندر دخل الشام طرز جديد في البناء؛ أي أصول الهندسة اليونانية.

غصت جبال الشام بالمغاور الطبيعية والصناعية، ومنها ما كان لسكنى أهلها قبل أن عرف التاريخ، ومنها ما جعلوه قبورًا لموتاهم في الأمم التي عرف بعضها التاريخ، وقد ثبت بهذه المغاور أن الشاميين استعملوا منذ الزمن الأطول آلات من المعادن لقطع الحجر ونحته. ولا يمكن تحديد العصر الحجري في الشام، ويمكن أن يردَّ العصر المعدني إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح. وفي غربي الأردن آثار كثيرة من ذلك، وكلها ذات صلة بعبادات الأقدمين. واحترام الأحجار المقدسة كان قديمًا منتشرًا في جميع أرجاء الشام. ومن المغاور مغاور عدلون بين صيدا وصور ومغاور نهر إبراهيم في لبنان، ومغاور بيروت وجبيل وأنطلياس، ومن مصانع فلسطين الصهاريج ومعاصر الزيت والخمر. وبناء الفينيقيين من هذا النوع أجمل من بناء العبرانيين.

وقد اقتبس العبرانيون في أصول مبانيهم مباني الفينيقيين، وهؤلاء أخذوا على ما يظهر من المصريين، وقد قيل: إن بنائين فينيقيين هندسوا معبد داود وسليمان. ويقول سنيوبوس: إن القدس كانت بالنسبة لبابل وثية عاصمة أقاليم فقيرة، وما كان العبرانيون يتعاطون البناء ويميلون إلى

العمران، بل كانت ديانتهم تحظر عليهم إقامة المعابد، ولم يكن في القدس إلا قصر سليمان وهو أول معبد عبراني.

وأخذت الشام أصول الهندسة اليونانية وتناغت بها قبل أن يفتحها الإسكندر. ولم يبق من الآثار اليونانية على كثرتها في الشام بقدر ما بقي من الآثار الرومانية؛ فإن الرومان أنشأوا مدناً برمتها خططوها على أصولهم. وكان من هذه المدن ما بني على نفقة أباطرة رومية. ومعلوم أن الرومان تفتنوا في البناء وخلفوا في كل مكان امتد سلطانهم عليه آثار الهندسة من طرق وقنوات وأسوار ومسارح وملاعب وحمامات، مما شهد لهم باتساع الفكر ومعرفة الهندسة والمتانة في العمل وجمال الأسلوب. لا جرم أن علاقة الشام بإيطاليا أقدم من الإسلام، علاقتها بأرضنا مذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الأمة العظيمة.

وأخذ النصارى في بناء كنائسهم عن فارس والشرق، ثم اقتبس منهم الرومان أصولهم في البيع، وما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية أن اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية. وأجمل هذه الصناعات على ما قال هوار الجوامع والقصور، والتقليد محسوس ولكنه تقليد غير أعمى؛ لأن تأثيرات الأساتذة الأقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث، كما أن مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن ولطافة الإبداع والاختراع. قال: وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق إحدى مراكزها.

وقال جلابرت: ومن المصانع المتنوعة في الهندسة الشامية شيثان يلفتان النظر خاصة؛ وهما البيع والأبنية ذات السطوح. وكان المهندسون الشاميون فيها عالة على الشرق يسترشدون بآراء مهندسي فارس. وقد أثرت الهندسة الشامية إذ ذاك في هندسة كثير من الأمم ولا سيما في

بيزنطية، وأخذت بيزنطية عن الشام أو من طريق مصر عن الشام، أصول كثيرة من الأبنية، وقال لامنس: إن الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة أخذت تسير في طريق مستقلة عن النماذج اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة، وأنشأ المهندس الشامي يرفض استعمال الملاط بين الأحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازية تقوى بها بدون لحمة بين أجزائها، واستعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان واليونان بالحجر النحيت، وبنى الكنائس ذات القباب فكثرت البيع البديعة التي يعجب الأثريون بخرائبها العظيمة اليوم وعنها أخذ بناء الكنائس الرومانية اهـ.

كان أساتذة العرب في البناء لأول أمرهم أناساً من الروم، فكان بين أبنيتهم الأولى وأبنية النصارى وجه شبه، فقد بني المسجد الأقصى على مثال كنيسة القبر المقدس، ونقل استعمال القباب من الشرق إلى الغرب، ولم تكن معروفة إلا في هذا الشرق، وقد أفرط العرب كالروم في استخدام الفسيفساء في الجدران والقباب، وزادوا في هذه الفصوص ما ابتدعوه من عندهم، وكان محبباً إلى نفوسهم، جميلاً في عيونهم. ويقول بعض العارفين: إن الشام لا يحوي كثيراً من المصانع الخارقة للعادة من صنع العرب؛ لأنهم اكتفوا بما وجدوه في القطر من المباني القديمة، فاستعملوها على ما يشاءون، ولطالما بنوا بمواد أخذوها من أبنية قديمة.

أمّا هندسة الصليبيين فأكثرها حصون وقلاع، ولا يعرف إذا كانت في الأصل من بناء العرب أو الإفرنج، المرجح أن هؤلاء طبعوها بطابعهم، وقالوا لم يخترع العرب أبنية خاصة بهم، بل تجلّى في هندستهم حبهم للزخرف واللفظ واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين، وكان تفننهم في هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار، مما جعل لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها، ودلت

كل الدلالة على إيغالهم في حب النقوش والزينة، كأن أبنيتهم ومصانعهم ثوب من ثياب الشرق تفنن حائكه في نقشه ونقشه.

نعم إن العرب لم يخترعوا ولكنهم اقتبسوا بادئ بدء، فإن ابن الزبير لما عمر الكعبة دعا إليها بنائين من الفرس والروم، والوليد لما بنى أموي دمشق وأقصى القدس دعا إليهما بنائين من الفرس والروم والهند. ولا جرم فقد برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الأبنية وهي ما يتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية وكيفية شق الأنهار وتقنية القني وسد البثوق وتنضيد المساكن. ولو لم يبرعوا في كيفية إيجاد الآلات الثقيلة الرافعة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والأسوار والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يبهشنا اليوم أثره.

ومالت الهندسة الشامية إلى السذاجة لأول انتشار النصرانية، فكانوا يجتنبون كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة، وجمال الحجم وترتيب الأجسام. ونشأت بين القرن الرابع والسادس للميلاد هندسة متينة تختلف عن الهندسات الأخرى، منها بعض أمثلة في الشام العليا وحوران. ويقول جلابرت: إنه كان لأهالي الشام الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي أشاعه الرومان في الشام، وهو بناء قديم يدعى بالطراز الشامي لا أثر فيه للطرق الرومانية والشرقية المحضنة في البناء، وعلاقته ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في أنطاكية، وقد نشأ عنه طرز مركب شاع في القرون الأخيرة، وطرق البناء في حوران تختلف عن الهندسة الشمالية فتألف طرز وطني مباين للطرز اليوناني الذي أدخله السلوقيون.

ومن أهم أبنية القرون الوسطى وتدل على ذوق جميل في البناء، المدارس الكبرى في حلب ودمشق والقدس وغيرها من البلدان، والقليل الباقي منها إلى الآن شاهد على وجه الأيام بما صار للمهندس الشامي من حسن الذوق، ومنها في دمشق مدخل المدرستين العادلية الكبرى والظاهرية والمستشفى القيمري، وفي حلب مستشفى أرغون شاه ومدرسة الفردوس إلى غيرها من الأبنية الكثيرة في القرون المتأخرة.

ومن أهم أبنية القرون الإسلامية بدمشق المأذنة الغربية في الجامع الأموي المعروفة بمأذنة قايتباي، وهي من أهم المآذن العربية من حيث الهندسة والنقش

والأصول المعمارية قامت على قسبتين من الأرض (٤٨ مترًا مربعًا) بارتفاع ٦٦ مترًا هندسها معمار عربي اسمه سلوان بن علي وقد تمت عمارتها سنة (٨٨٥هـ) وبانيها السلطان الملك الأشرف قايتباي كتب اسمه في جهاتها الأربع. وقد أجرى ترميمها وإرجاعها إلى أصلها وإكمال نواقصها المهندس الرسام توفيق طارق سنة (١٣٤٢هـ) وكان على رفرف شرفتها الأولى آية: {إنا فتحنا لك فتحًا...} الآية، وكتبها موسى شلبي وبقي قسم من الحروف القديمة.

وقد دخلت إلى الساحل منذ عهد الحروب الصليبية أصول الهندسة الطليانية في الدور والقصور، وما برحت ترسخ مع الزمن، ولا سيما في طرابلس وبيروت بحيث أن جميع ما نراه في مدن الساحل من الدور هو مما أنشئ في القرن الأخير وفي هذا القرن هو طلياني الصبغة، وهندسته عارضة على هذه الديار. هذا في الساحل أما هندسة البيوت في الداخل فإنها قديمة لا يعرف زمن الاصطلاح عليها، فقد نقل الرومان هندسة بيوت دمشق القديمة إلى شمالي إفريقية، ثم نقلها العرب بعد قرون إلى

الأندلس، ولا تزال هناك إلى اليوم يفاخر بطرازها ويُطرَس على آثارها، كأن تكون الدار ذات مدخل أو دهليز يؤدي إلى فناء واسع فيه حوض ماء وإيوان، وعلى جوانبه أماكن لتربية بعض الأشجار والزهور، والدار ذات طبقتين فقط: السفلى للصيف والعليا للشتاء. وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس أن البيوت في طرابلس كانت ذات أربع وخمس وأحياناً ست طبقات. وكثرة الطبقات في الدور لم تعهد إلا في الغرب، وما نظن الشام زادت طبقات بيوتها على ثلاث في معظم أدوار التاريخ.

الشعر والفصاحة

ظهر كثير من الشعراء والبلغاء في هذه الديار ولا سيما من السريان واللاتين والروم، اشتهروا في العالم وخلدوا آثار نبوغهم، ولطالما أخرجت مدرسة نصيبين والزّها ومدرسة الفقه في بيروت ومدرسة أنطاكية خطباء هزوا النفوس وعلموها بخطبهم وأشعارهم ومجادلاتهم، وقد كثر سواد هذه الفئة في عهد الدولة العربية الإسلامية أيضاً. والشعر والخطابة مما امتازت به العرب في الجاهلية والإسلام وغالت في الولوع بهما، ولقد أثر القرآن في هداية العرب ببلاغته وفصاحته، تأثيره بحكمه وهدايته. ولطالما كان شعراء العرب يصفون الشام ويتغزلون بها منذ أول يوم عرفوها، حتى إذا كان الإسلام وتبسطوا في أرجائها، أوحى إلى قرائحهم من أساليب الشعر ما يتألف من مجموعته أعظم ديوان بل خزانة عظيمة في الأدب تدل على فضل قرائح، ونبوغ في فنون القول، وتوسع في مجال الخيال، وما هم إلا مبدعون وضعوا ما وضعوه من بنات أفكارهم على غير مثال.

لا جرم أن الشام كانت أول الأقطار التي أخذت الفصاحة عن العرب في جزيرتهم، وبقيت فيها على اختلاف العصور وتعاقب الدول محفوظة

في الجملة، فما انقطع منها من ينظمون ويجدون حواليتهم من يطرب
لنغماتهم ويصفق لنبراتهم وإن لم يعرفوا صحاحها من زيوفها. كان الشعر
مبدأ دخول العرب في الحضارة، والأدب مقدمة النهوض في العلوم،
ولذلك رأيناهم لم يحرصوا على شيء حرصهم على روايته ودرايته.
وأكثر ما يجيد الشعراء في أرض صح إقليمها، واعتدل نسيمها، وطابت
تربتها وأديمها، وصفت أمواها، وساغ نميرها، وكثرت ظلالها بأشجارها،
وغردت أطيارها في أسحارها، وفغم أريج نوارها وأزهارها، وهذا على
حصّة موفورة في القطر الذي يتاخم جزيرة العرب من شمالها. وقد أنعم
عليه الخالق بضروب البدائع والروائع، فكان شعراء عرب الشام وما
يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام
كما قال الثعالبي. وما زالت بعض قصائد شعراء ذاك الدور مضرب
الأمثال في البلاغة، وما برح عرب المدن يتغنون بشعرهم ويعجبون به
ويترنمون، ويتوفرون على حل ما استعجم عليهم من ألفاظه ومعانيه. قال:
والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريبهم
من خطط العرب؛ ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم،
وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس
والنبط ومدخلتهم إياهم ... انبعثت قرائحهم في الإجادة، فقادوا محاسن
الكلام، بالين زمام، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا، وكان أبو بكر الخوارزمي
قد دوّخ الشام في صباه ولطالما قال وهو أحد أمراء النظم والنثر: ما فتق
قلبي، وشحذ فهمي، وصقل ذهني، وأرهف حد لساني، وبلغ هذا المبلغ
بي إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علفت بحفظي،
وامترجت بأجزاء نفسي.

حكى المازني المتوفى سنة ٢٤٩ قال: دخلت دير بصرى فرأيت في
رهبانه فصاحة وهم متنصرة من بني الصارد وهم أفصح من رأيت فقلت:

ما لي لا أرى فيكم شاعرًا مع فصاحتكم؟ فقالوا: والله ما فينا أحد ينطق
بالشعر إلا أمة لنا كبيرة في السن فقلت: جيئوني بها فجاءت فاستنشدتها
فأنشدتني لنفسها:

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| أيا رفقةً من دير بُصرى تحملت | تؤم الحمى لقيت من رفقة رشدا |
| إذا ما بلغتكم سالمين فبلغوا | تحية من قد ظن أن لا يرى نجدا |
| وقولوا تركنا الصاردي مكبلًا | بكل هوى من حبكم مضمرا وجدا |
| فيا ليت شعري هل أرى جانب | وقد أنبتت أجراءه بقلًا جعدا |
| وهل أردن الدهر يومًا وقيعة | كأن الصبا يسدي على منته بردا |

وما برحت الديارات في الشام تقدر الفصاحة كما تقام فيها للموسيقى
أسواق.

وظهر الضعف في الشعر خلال القرون الأخيرة، ونسبت عليه القرون
إلى أن خلع في أوائل هذا القرن الثوب البالي القديم ولبس ثوبًا جديدًا
فيه من جلال الحديث وعز القديم ما جمع فيه الجسم والروح. بدأ هذا
من لبنان وبيروت ثم تناول عامة مدن الشام. أما القرى والبوادي فقد
اكتفت بالأزجال، والزجل نوع من الشعر محدث يصفون فيه أيامهم
ومفاخرهم وهو أشبه بالرجز الذي كانت العرب تترنم به في عملها
وسوقها وتحذو به في بواديها. وكان للزجالين في القرن الماضي وفي هذا
القرن منزلة عند أهل الزرع والضرع، يدعون الزجال إلى الأفراح ليحمل
البهجة إليها، وإلى الأتراح ليسري عن النفوس ما نزل بها، ولهم ضروب
من المواليا يسمونها العتابي والإبراهيمي يطربون بها ولا تخلو من معانٍ
شعرية قال صديقنا الشيخ إبراهيم الحوراني وكان شاعرًا مجيدًا بالفصحى
والعامية: والنصارى واليهود يعتقدون أن بعض الشعر إلهام إلهي ووحى
حق كشعر أيوب وداود وسليمان وأشعيا وعدة من كتبة الأسفار الإلهية

والشعر بقسميه الفصيح والعامي المعروف عند العامة بالمعنى يعمل على ثلاثة أبحر الرجز والوافر والسريع، أما أغانيهم التي يسمونها بالقراديات وهو اسم خشن سميت مؤخرًا بالعديات وبالقويلات كما يقولون لمن يعانيتها (القوَال) فبعضها لا ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف، ووزن بعضها المتدارك مع تغييرات أيضًا. وجاءت أغانيهم المعروف بالموالات البغدادية والمصرية والزلاغيط على بحر البسيط اهـ.

ولا يزال إلى اليوم لكل قبيلة في الشام شاعرها ينشدهم من حفظه أو نظمه من شعر شعراء البادية على نغمات الرباب قصائد يسليهم بها، ولشعر البادية عندهم أوزان خاصة، وإذا قيس على علات لفظه على أبحر الشعر يرى بعضه موزونًا وفي بعضه عيوب بسيطة، ومن أشهر شعراء البادية نمر بن عدوان في عبر الأردن كانت له امرأة اسمها وضحاء تتيم بها كما تتيم قيس بليلاه فرثاها بعد موتها بعشرات من القصائد ومنها ما فيه معانٍ جميلة -قاله أديب وهبة.

وإذا انتشرت المدارس في المدن والقرى على حد سوى، وجعل التعليم في كل درجاته باللغة الفصحى يتأصل الغرام في الناس أكثر مما نراه بالفصاحة والشعر فلا تلبث الشام أن تحسدها جاراتها كما كانت في القديم على اختصاصها بذلك، وكما تحسد هي مصر اليوم على تفنن شعرائها وخطبائها وسريان الفصاحة إلى ألسن من ليسوا من الأدب العربي في العير ولا في النفير.

الرقص

ربما ينفر بعضهم من سماع هذا اللفظ ونحن لم نتعرض له هنا إلا مجازاة للفرنج في إدماجهم له في الفنون الجميلة. عدّ «طاشكيري» الرقص من أنواع العلوم فقال: إنه علم باحث عن كيفية صدور الحركات

الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهده، وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والأغنياء والأمراء ومن يجري مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي اهـ. وذكروا أن الرقص قديم كقديم العالم وأن أقدم شعوب الأرض كان لها رقص على أوزان معلومة. فالرقص مرتبط بالموسيقى والإيقاع، وكثيراً ما كانوا يتبعون الرقص بالتصدية والضرب بالأيدي، ثم عرفوا الشبابة حتى جاءت المزاهر والمعازف، وكان الرقص على نوعين: رقص مقدس من توابع الحفلات الدينية، ورقص عالمي لتسلية العامة؛ أي أن الرقص رقصان رقص ديني أو رقص المآتم ورقص الحبور والابتهاج. وفي التوراة أن الرقص كان شائعاً عند العبرانيين، وقد رقص داود أمام تابوت العهد، ولما خرج بنو إسرائيل من مصر كان لهم نوعان من الرقص، الرقص المقدس المنظم ورقص سرّي له اتصال بالتعبد على نحو ما كانوا يرقصون في التيه حول عجل الذهب. وكان للعبرانيين نوع من الرقص الشريف يرقصه العذارى في الحفلات العامة احتفاءً بذكرى حوادث سعيدة من مثل انتصار على عدو أو تكريم مجد أبطال الوطن. وهكذا كان الرقص شائعاً عند المصريين، ثم شاع عند اليونان وهم المشهورون بتفنتهم فبلغ عندهم أقصى درجات رقيه وانتقل إلى الرومان، وإذا كانوا شعباً قاسياً غليظاً فقد عندهم بهاء ورواء وما يقصد منه. ولكل شعب رقصه الخاص به، عليه صبغة أخلاقه القومية الثابتة. ولجميع شعوب الغرب والشرق رقصهم الخاص أو رقصات عرفت بهم وأثرت عندهم. والإنكليز أكثر الأمم انحطاطاً في الرقص لم يبرزوا فيه تبرزهم في معظم مظاهر الحياة القويمة.

وكان الرقص عند العرب كالغناء من الفنون الطبيعية استعملوه في كل دور عرف من أدوارهم. والرقص أو الزفن كان عند العرب على ما يظهر على الطراز الذي هو عليه اليوم عند العرب سكان القرى والعرب الرحالة

ومنه ما يعرف بالدبكة، فإن وفد الحبشة لما قدم إلى الحجاز جعلوا يزنون أي يرقصون. وفي حديث فاطمة أنها كانت تزفن للحسن؛ أي ترقص له وفي رواية ترقصه. ومن غريب تفنن العرب في مسائل الظرف والذوق أنهم عرفوا علمًا سموه «علم الغنج» عده صاحب الموضوعات من فروع علم الموسيقى وقال: هو علم باحث عن كيفية صدور الأفعال التي تصدر عن العذارى والنسوان الفائقات الجمال والمتصفات بالظرف والكمال إلى آخر ما نقله صاحب كشف الظنون.

والغالب أن رقص الشام اقتبس مع الزمن من أوضاع كثيرة، والأمم تقتبس عن غيرها ما يتلاءم مع مزاجها. وكذلك تقبس غيرها بعض ما ألفته في هذا الشأن؛ من ذلك أن الرقص الإسباني إلى اليوم لم يبر بعد خمسة قرون من مغادرة العرب أرض الأندلس على الطراز العربي، وكذلك موسيقاهم إلا قليلًا. وقد أصبح الرقص في الغرب علمًا بذاته ولكن العرب لم يقصروا فيه، ولا سيما في عصور البذخ والرفاهية. وبعض المحققين من علماء المشرقيات من الأسبان والبرتغال (مجلة الزهراء) يبرهنون الآن على أن موسيقى الأوربيين وشعرهم انتقلا من فارس إلى أوروبا بواسطة العرب، ومنهم من ينشر منذ سنين قطعًا قديمة ويبين ما فيها من آثار الروح الشرقي، وكان لنا في الشام نوع من الرقص يسمونه بالسماح (ولعله السماع) يرقصه عدة أشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار وترديد جميل من الموشحات فقط، وهو أشبه بالأوبرا أو الأوبريت opera / operette عند الإفرنج؛ أي القصائد الملحنة التي تمثل على نغمات الموسيقى فقط، ويزيد رقص السماح على الأوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بأنغام مألوفة.

وفي كتاب مفرح النفس: واعلم أن من الرياضيات البدنية التي تختص بالنفس اختصاصًا كثيرًا إلى الغاية الرقص، وهو عبارة عن حركة متناسبة

من اليدين والرجلين بضرب من الضروب المعروفة في الموسيقى بإرادة النفس وشوقاً إلى محل طلبها الأصلي، قال: إن الرقص مندوب إليه في ترويح الأرواح ونفي كدورة النفس وحصول الإشراق لها، ويجب أن يكون مع سكون وتجمع من الذهن والعقل فتحصل اللذة والبهجة، فالرقص له في إحداث راحة النفس وسرورها قوة عظيمة يعجز اللسان عن وصفها والذهن والعقل عن تصورهما اهـ.

التمثيل

ويدخل في باب الرقص أو في باب الموسيقى (فن التمثيل) وهو وإن كان مشهوراً في الشام على عهد الرومان واليونان، بدليل ما نراه من الملاعب الخاصة به ويعرض الحيوانات والصراع في البتراء وعمان وبعلبك وأفامية ولدّ وقيساوية وغيرها من المدن القديمة؛ إلا أنه لم يعهد على الصورة المعروفة حديثاً، اللهم إلا على الندرة عند عرب الأندلس، وهذا في بعض الروايات. ولقد قالوا: إن أنطاكية أيام عزها ارتقى فن التمثيل فيها حتى كانت تجلب الممثلين من صور وبيروت والمغنين من بعلبك. وقال بعضهم: إن السبب في عدم العناية بالتمثيل في الإسلام حجاب النساء. والتمثيل لا يتم بدون مشاركة الجنس اللطيف. ولما لم يعهد التمثيل عند الجنس السامي لم تخرج العرب عن هدي جنسها. والتمثيل ما عرف إلا عند الجنس الآري فقط. ومن ذلك الفرس وهم آريون خلفوا للعرب كتاب ألف ليلة وليلة، وهو اختراع آري فيه شيء من التمثيل.

وكان العرب في الجاهلية والإسلام يرون من سقوط المروءة أن يمثل مجلس الأمير أو الوزير، وإن كان لا يخلو تمثيله من حكمة، فكيف بمجلس صباية، ومعظم التمثيل يدور عليها، لا جرم أنهم قصروا في

التمثيل، وتقاعسوا عن اقتباسه عن الأمم الآرية، وإن عرف من حالهم أنهم لم يأخذوا عن الأمم الأخرى إلا ما اشتدت حاجتهم إليه من أنواع العلوم، أدمجوه في حضارتهم ومزجوه بأجزاء نفوسهم. وإذا كان التمثيل لا ينطبق مع عادات العرب ولا عُرف به مجتمعهم أعرضوا عنه، وجاء الإسلام موافقاً لمصطلحهم وعاداتهم وأخلاقهم في بعض الأحوال.

بيد أن العصر الأخير لم يضمن على الشام بتجلي الآداب الرفيعة فيه، فقام فيها سنة (١٢٨٢هـ) في دمشق أيضاً رجل من أبنائها هو السيد أحمد «أبو خليل» القباني من المبرزين في الموسيقى المشود لهم بالإجادة فأنشأ داراً للتمثيل، وبدأ يضع روايات تمثيلية وطنية، من تأليفه ونظمه وتلحينه، ويمثلها فتجيء دهشة الأسماع والأبصار، لا تقل في الإجادة من حيث موضوعها وأزيائها ونغماتها ومناظرها عن التمثيل الجميل في الغرب. واعتاض لأول مرة عن النساء بالمرد، ولما انتقل إلى مصر لنشر فن التمثيل العربي هناك، عاد إلى الطبيعة واستخدم في كل دور من يصلح له من الجنسين، ووجه الفخر في أبي خليل أنه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية، ولم يذهب إلى الغرب لغرض اقتباسه، بل قيل له: إن في الغرب فناً هذه صورته فقلده، وقيل: إنه شهد رواية واحدة مثلت أمامه في إحدى المدارس الأجنبية، ولما كانت عنده أهم أدوات التمثيل وهو الشعر والموسيقى والغناء ورأى أنه لا ينقصه إلا المظاهر والقوالب، أوجدها وأجاد في إيجادها، ولذلك كان أبو خليل مؤسس التمثيل العربي، وناطقة العرب في الموسيقى والتمثيل، ورواياته التي ألفها ما زالت منذ زهاء ستين سنة وإلى يوم الناس هذا، موضع إعجاب الأمة، تمثل في دور التمثيل وتلذذ الجمهور مثل رواية أنيس الجليس وغيرها.

هذا وإن سبق لمارون النقاش في بيروت فعرب في سنة (١٨٤٨هـ) من إحدى اللغات الأوروبية بعض الروايات التمثيلية ومثلها بالفعل.

والإبداع في التأليف والوضع، لا في النقل والاحتذاء، وإن عدّ الناقل صاحب فضل أيضًا.

ولما كان التمثيل كما قلنا عارضًا على مدنيتنا رجع القهقري بعد أبي خليل، وظل إلى يومنا هذا يمشي مشيًا ضعيفًا، فلم تقم إلى الآن جوقه تمثيل وطنية تبث في الأمة روح الفضائل والآداب، وتأخذ من الناس بعض أوقاتهم تصرفه فيما يفيدهم فيلهون بما يجلب السرور إلى قلوبهم، والنور إلى عقولهم، وتهذب في مدرسة التمثيل اليومية عقول الكبار، كما تهذب في الكتائب عقول الصغار، فقد قال فولتير: إن المرء يتعلم بالتمثيل أحسن مما يعلمه إياه كتاب ضخيم.

ولعل أبناء الشام إذا قويت فيهم أساليب الثقافة الحديثة، ترتقي فيهم سائر الفنون التي انحطت ولا تزال منحلة، فتكون من العوامل في نهوضها إلى المستوى اللائق بها في سلم الحضارة والهناء. والتمثيل الراقي أنفع لمجتمعنا من ذاك التمثيل الساذج الذي ما زال في أكثر مدن الشام مألوفًا للعامة، ونعني به خيال الظل أو الخيال الراقص المعروف أهله بالمخايلية وعرف هذا الضرب من التمثيل عند الترك، وإن لم يكن من اختراعهم باسم (قره كوز). والتمثيل أجدى على أبنائنا وبناتنا من القصصين أي الحكوية (الحكواتية) الذين يلهون العامة بغرائب الوقائع في المقاهي ويبثون فيهم سخائف وخرافات.

ومن غريب شأن هذه الأمة أننا رأينا كثيرًا من نجباء أبنائها برعوا في التمثيل، ومنهم من يعرف الأدب وما ينبغي له، قد زهدوا في فنهم، وكتموا نبوغهم فيه، شأن كثير من أرباب الصوت الرخيم والغرام بالموسيقى، والضرب على آلات الطرب المتعارفة، يخافون أن يعرفوا بها ويعمدون إلى التقية كأن من العار التلبس بهذه الفنون الجميلة.

وممن عرفنا منهم نور الدين حقي، حكمة المرادي، صالح الحيلاني، أحمد عبيد، سليم عطاء الله، أمين عطاء الله المعروف بكش كش بك. واشتهر أيضًا حمزة الأصيل، صالح شهنندر، حسن الساعاتي، إبراهيم المنجد، إبراهيم نفس، راغب السمسمة، جرجي نفس، درويش البغجاتي، أبو الخير الغلاييني، يوسف مردم بك، خالد السمسمة.

متى ترتقي الفنون الجميلة؟

لا جرم أن ارتقاء الشام في هذه الفنون على اختلاف فروعها، موقوف على ظهور نوابغ من أبنائنا يرحلون إلى الغرب لنقلها والتشبع بأدائها، ثم يعودون فيلبون على إحياء ما اندثر أو كاد من هذه الصناعات النفيسة في القطر، وينشرونها على النظام الغربي الحديث على صورة مقبولة، وإذا نشأت بعد ذلك مدرسة واحدة راقية في كل فن من هذه الفنون لا يأتي جيل ثانٍ بعد جيلنا هذا حتى يكون عند أهل القطر العدد الذي يحتاجون إليه من الأعيان الذين لا غنية للمجتمع الشامي عنهم في إنهاضه. ويشترط في من يريدون الإخصاء في هذه الفنون أن يكونوا ممن يحبون أن يُعرفوا بما اختصوا به، أو يسعوا طاقتهم لنشره، ومن لا يحب صنعته ولا يفاخر بها لا يبرز فيها، وعندئذ نعد شيئًا مذكورًا بين أمم الحضارة في باب هذه الفنون كما كان أجدادنا.

يقول الجاحظ: إن الضحك في موضعه كالبكاء في موضعه، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه، وإنما تشاغل الناس ليفرغوا، وجدوا ليهزلوا، كما تذللوا ليعزوا، وكدوا ليسترىحوا، وقد قسم الله الخير على المعدلة، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة، وعلى الإعلان والتقية، فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة، وجوز المعارضن كما أمر بالإفصاح، وسوغ المباح، كما شدد

في المفروض، وجعل المباح جِمامًا للقلوب، وراحة للأبدان، وعونًا على
معاودة الأعمال اهـ.

obeyikandi.com

الزراعة الشامية

العامر والغامر

حياة الشام بزراعته ثم بصناعته وتجارته، والقرى والبوادي أوسع بقعة وأوفر سكاناً من المدن والحوضر، ولا نعلم مقدار سكان الشام في القرون التي سبقت الإسلام ولا في القرون التالية، وقال بعضهم: إن سكان الشام عند دخول العرب كانوا ستة ملايين على وجه التخمين، ولكن الظاهر من مصانع أهلها وطرقهم القديمة التي كانت تربط أجزاء القطر كالشبكة وآثار عمرانهم مثل حنايا بعض الجسور الكبرى، وخرائب القصور الفخمة، والذمن التي تشاهد الآن في أواسط الفلوات الخالية، والعاديات والآثار الجمة، يدل على ارتقاء زراعتهم وكثرة ثروتهم ونفوسهم. فقد كانت حوران أنبار الشام على عهد الرومان لوفرة حبوبها ولا تزال هي والبلقاء على كثرة ما تعاقب عليهما من الأيدي الظالمة في الأكثر، معروفة بهذه الصفة وجودة حنطتهما التي لا مثيل لها، وما يقال عنهما يقال عن جميع الأصقاع الشامية. ولا سيما ما كان بقرب المياه والأدوية فإنه عامر بطبيعته لا يحتاج إلا لأمن ونظام حتى يفيض لبناً وعسلاً.

ومغل حوران كسيل دافق يأت من أرجاء جلق موجلا

ومما أقامه الرومان لحفظ زراعة البلقاء وحوران وما كان على سيف البادية من مرج الغوطة وأداني جبل قلمون وتدمر فحلب فما وراءها، مخافر مجهزة أحسن جهاز لمنع البادية من التسلل إلى المعمور؛ لأن داء

الغارات على الزروع والعيث في العامر من الأدواء القديمة. واعتداء الرحالة من أهل الظعن، على المقيمين من أهل الدساكر والمزارع، النازلين في الدور والمساكن، داء قديم عُقَام على ما يظهر. وما اتخذ الروم من الغسانيين في الجنوب، والتنوخيين في الشمال عمالاً لهم إلا ليقوموا بإنفاذ هذا الغرض، ويأمنوا بسلطانهم عيث البادية على أرض الشام الجميلة.

وليست البادية التي تحد أكثر هذا القطر من الشرق كما قال الدكتور بوست بادية حقيقية؛ لأنه يقع فيها بعض المطر في فصل الشتاء، ونبت فيها عشب ترعاه المواشي، وتسكنها قبائل شتى من العرب، وتندرج هذه البادية إلى جهة شمالي الشام، في السهل المتسع الممتد من نواحي حلب إلى ما بين النهرين، وكان هذا السهل مسكوناً في قديم الزمان، ولم تزل فيه آثار عظيمة تدل على كثرة الذين سكنوه ووفرة ثروتهم، إلا أنه أمسى الآن قليل السكان تجول فيه العرب والأكراد. وقد أكد موسيل أن البلاد الواقعة في شرقي الأردن كانت قبل مائة وعشرين سنة عامرة بالسكان وهي اليوم تكاد تكون خالية لعيث البادية.

وأهل الوبر الذي يشتون منذ القديم بمواشيهم فيما وراء بادية الشام من الفلوات تشتد حاجتهم في الربيع إلى أن يدخلوا المعمور، فإذا حصدت الزروع يضطرون إلى رعي أنعامهم وأغنامهم في أرض الحصيد، ومراعي دير الزور والجولان طلباً للماء، والتماساً لبيع حاصلاتهم واستبضاع ما يلزمهم. وإذا كانت أرض السقي أقل من أرض العذي بالشام، ومعظم الأنهار لا يستفاد من سقيها اليوم كما كانت الحال عند الأقدمين، زاد اعتداء البادية على مهاجمة البلدان الخصبة.

قلة العناية بالأمار

نقول هذا وأهم أنهارنا الفرات وهو نهر يتاخما من الشرق، ولا نستفيد منه الاستفادة المطلوبة لأنه منحط عن مستوى أرضنا، ولم يكن كذلك في الدهر السالف بما كان يعهد به من السدود والسكرور التي كانت سبب غنى العراق، وبالطبع غنى الأقاليم المتاخمة له من أرض الشام. ولا يستفاد من الأنهار التي تشق قلب القطر الفائدة المطلوبة في الري. فالردن مثلاً يشق بعض أرجاء فلسطين والعاصي الذي يجري من سفوح لبنان ماراً بحمص فحماة فأنطاكية حتى السويدية لا ينتفع بهما على ما كان الحال قديماً، فقد انتهى إلينا من عمل القدماء سد قدس بالقرب من قرية قطينة بجوار أرض حمص، وكان أعلى مما هو الآن بحيث يتأتى أن يسقي العاصي بواسطته وما اخترع له من النواعير، جميع الأرض العالية في وادي نهر المقلوب كما كانت العرب تسمى العاصي. ولا تزال إلى الآن آثار السدود والقني في غور الفارعة بادية للعيان، تدل على أن القدماء كانوا ينتفعون من مياه نهر الأردن أكثر منا اليوم. ويقول صديقنا الأمير شكيب أرسلان: إن الأراضي التي لها حظ من الشرب في هذه الغيران (جمع غور) إنما تسقى من أودية جارية من الجبال مثل سيل الزرقاء، والسائل من جهة عجلون إلى الغرب، ومثل مياه بيسان المنحدرة من صوب مرج بني عامر إلى الشرق، ومثل ماء الفارعة النازل من الغرب إلى الشرق، ومثل عين السلطان التي تسقي جنان أريحا، ومثل غور نمرين المنحدر من وادي شعيب أسفل الصلت إلى الغرب وماء حسان وغيرها من المياه، وهذه الجداول كلها لو اجتمعت ما ساوت معشار الأردن الذي أصبح عاطلاً من كل عمل اهـ.

وحالة الإرواء في أكثر الأنحاء البعيدة ما زالت على الفطرة القديمة، فالقريب من الماء يروي أرضه أو بستانه بالقرب أو المدار كأهل الزور وجزيرة ابن عمر في أقصى الشام، فإن هذه الأنحاء في وسط المياه كالفرات والخابور وغيرهما من كبار الأنهار وقلما تستفيد منه، وقد خربت السدود القديمة ولم يعمل غيرها؛ ذلك لأن الأنهار الكبيرة ولا سيما الفرات قد تتحول عن مجراها في معظم السنين لأنها خالية من الجوانب المتينة المحددة، وهي في أرض رخوة خبار، فإذا فاضت طغت على الأرض اللينة.

وكان نهر بردى ونهر الأعوج يستفاد منهما أكثر من جميع الأنهار التي تعطش الأرض التي حفافيهما، وهي من مجراه على قيد أشبار، أو يترك للبحر يصب فيه على هيئته وهواه، كنهر عفرين والأسود وقاديشا والأولي والأزرق والعوجا وإبراهيم والمقطع والقاسمية وغيرها. وكم في هذه الديار من آثار قنوات عجيبة مثل قناة بسيمة في سنير، وربما كان ماء عين الفيحة يسيل منها إلى بلد بعيد كما هو المأثور، ومثل قناة منين التي جرهما المأمون إلى معسكره في أعلى قاسيون بدمشق. وكم من قناة طمت بتهاون الفلاح فهلك مع أرضه عطشاً؛ لأن الحكومات قلما التفتت في الأدوار الأخيرة إلى العناية بأمرها، والأعمال المشتركة قلما تجد لها نصيراً في هذه الأرض، ولو كانت مياه الشفة فكيف بمياه الري ري الأرض.

خراب الزراعة والمزارع

ويمكن أن يقال: إن القطر خرب بنزول الفاتحين المخربين والعاهات الطبيعية ثم من فساد النظام في الدولتين الجركسية والتركية في القرون الوسطى إلى هذا العهد، وقد كان مسرح الظلم، وميدان حروب وغارات،

يهلك الفلاح فيه كما يهلك النمل تحت الأقدام، وقبل أن يهلك ابن المدن الذي له من اجتماعه بأخيه، واعتصامه وراء حصنه وسوره بعض الوقاية، وكانت القرى التي على جوانب الطرق تخرب قبل غيرها، وعلى نسبة قرب القرية من المدينة أو من الطرق الموصلة أو طرق الغزاة والفاثحين، كان الخراب إليها أسرع من الماء إلى الحدور. وكان من دلائل القوة في تلك الأعصر أن تخرب القرى وتلقى النار فيها إذا غضب الملك أو الأمير أو المقدم أو صاحب الإقطاع على ذاك الإقليم أو تلك القرية. وكان قطع الأشجار من أبلغ أنواع النكاية في الخصم ولذلك أمثلة كثيرة في القديم والحديث إلى زمن كتابة هذا الفصل. وما أصيبت به الشجار في غوطة دمشق خلال الثورة الشامية الأخيرة مثال مما عمله الحكومات حتى باسم الحضارة، فكأن طبائع الحكومات واحد يوم تغضب من شعب أو تريد أن تكره التناء على النزول على إرادتها.

وأهم ما أثر في حالة الفلاح نظام الحكومات؛ لأن أصول الإدارة لم تؤسس في هذه المملكة على ما يجب، وكانت المظالم الأرضية والمفاسد البشرية أشد تأثيراً في أهل الفلح والكرث والقائمين على تربية الماشية والضرع، من الآفات السماوية، كالزلازل والأوبئة والقحط من قلة أمطار أو فيضان أو انتشار جراد أو ديدان وجرذ وفيران.

هذه العوامل هي جماع الخراب الذي أصاب العامر فدمر القرى والأقاليم، ومنها ما لا تزال دمنه ومياهه شاهدة على ماضيه الزاهر، فقد ذكر الظاهري من أهل المائة التاسعة للهجرة أنه كان على عهده نيف وألف قرية ومدن صغار في حوران، وأنه كان في إقليم غوطة دمشق نيف وثلاثمائة قرية وبه مدن صغار وبلدان تشابه المدن، وأنه كان في وادي التيم وما إليه ثلاثمائة وستون قرية، وإذا أحصيت قرى هذه الأقاليم الثلاثة اليوم لا تجدها في حوران تزيد على أربعمائة قرية ومنها الخرب، وفي

الغوطة على ثنتين وأربعين، وفي وادي التيم على ثلاثين إلى أربعين، وهكذا سائر الشام؛ فإن حلب كان فيها قبل العثمانيين ٣٢٠٠ قرية فأصبحت ٤٠٠ في القرن الحادي عشر، ومنها ما ظل خراباً إلى النصف الأخير من القرن الماضي؛ لأن معظم عهد العثمانيين انقضى في مظالم ومغارم، وكان من جندها ولا سيما الإنكشارية في آخر عهدهم أدوات تخريب لم يشهد الناس أفظع منها، لذلك خربت حتى الضواحي والأرباض من المدن الحافلة أمثال حلب ودمشق وحماة وحمص وما شاكلها. وكانت رجل الإنكشاري بل الجندي التركي على الإطلاق حيث دبت يدب الدمار والبوار، ولذلك لا نكاد نرى عمراناً إلا على طول الطرق العامة الكبرى وما إليها من اليمين والشمال، ونشاهد المدينتين العظيمتين حلب ودمشق مثلاً ينقطع في الحال أو على ساعات قليلة عمرانهما الذي كان وارف الظلال إلى القاصية، وكان هذا بفعل البادية وفعل الجيوش المدمرة.

عوامل الخراب

ولولا ذلك الظلم المتسلسل قرونًا في أعقاب الفلاحين المساكين، وأسواط النقمة التي انهالت على رقابهم الجيل بعد الجيل، لما تيسر اليوم لأحد أن يملك المزرعة والمزرعتين بل ربما العشر والعشرين قرية، وبعض الأسر الحديثة تملك الخمسين والثمانين، والإنسان قد تكفيه المائة دونم أو جريب إذا أحسن تعهدها، فكيف له أن يعمر ألوفًا من الأفدنة، ويتسع وقته وماله لحمايتها وترقيتها؟

نقول حمايتها لأن كثيرًا من القرى تنازل عنها مُلاكها لأرباب النفوذ ليحموهم من ظلم الحكام والمرايين، وأخذوا ثمنها بضع عباات وغلايين، أو قفة من البن أو رطلًا من الدخان أو أقة من الحلوى المعروفة

بالقلاوة، ومن الأراضي ما توسل أهلها إلى أرباب المكانة أن يسجلوها في دائرة التملك بأسمائهم لما شرعت الدولة العثمانية ١٨٨٢م بتسجيل الأملاك على أصحابها؛ وذلك فرازا من ظلم عمال تلك الحكومة ومن وضع الرسم المعتاد، ومنهم من تخلوا للأعيان عن أراضي عانوا مع آبائهم زراعتها زمنا طويلا، تخلصا من تسجيل نفوسهم لما حررت النفوس، ومن أهل القرى من خرجوا عن ملك أراضيهم لأنه وجد فيها قتيل، وكانت العادة ولا تزال إلى اليوم أن يلزم أهل الأرض بدية من يقتل فيها أو تفرض غرامة ثقيلة عليهم، فمنهم من تركوا أرضهم مخافة أن يلزموا بمال لا قبل لهم بأدائه. ومن القرى ما خرج عن ملك أهله كما وقع لأهل مرج ابن عامر في القرن الماضي لما عجزوا عن دفع الأموال الأميرية فباعته الحكومة التركية بالثمن البخس صفقة واحدة لرجل واحد مقابل رشوة قبضها الوالي.

ومن المرابين من اقتنوا قرى كثيرة في الديار الشامية؛ لأنهم كانوا لا يشفقون على الفلاح باشتطاطهم عليه بأخذ الربا الفاحش. وما زلنا في كل دور نرى الفلاح في أكثر الأقاليم يقترض المائة بمائة وخمسين من الخريف إلى البيدر وأحيانا ترتفع الفائدة إلى أكثر من هذا القدر، فإذا أضيف إلى ذلك ظلم الأعشار^(١) وتعدد الضرائب على الفلاح حتى كاد يهلك بسببها، لا نستعظم إذا رأينا خرابا، بل نقول: لماذا نرى هذه الرشاشة من العمران قرب المدن والثغور، وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات.

(١) جربت الحكومة في الشام في سنة ١٩٢٥م طريقة الترييع فجمعت مقدار أعشار ستين قبل الحرب وستين بعدها وأخذت ربعها وأنشأت تقاضى مالا مقطوعا، وألغت بذلك الأعشار فألغت بإلغائه نظاما سيئا من نظم القرون الوسطى.

ولقد كانت الأوقاف من جملة ما أخرج الزراعة؛ ذلك لأن الأراضي الموقوفة تجمد على حالة واحدة في أشجارها وغلاتها ومجاريها وسكورها وزرائبها، وكل جسم لا ينمو يصيبه الفناء. وعلى كثرة ما وقف المسلمون على أعمال البر وغيرها لا يمضي القرن والقرنان حتى يعود الوقف ملكًا صرفًا، ولولا ذلك لكثير الخراب أكثر مما هو الآن في القرى والحدايق. ولو دام حكم إبراهيم باشا المصري إلى اليوم لأصبحت أرضنا عامرة كمصر لأنه نشط الزراعة وأمر بنشر دود الحرير ودود القز وعلم الأهالي كيفية قطف الزيتون بالأيدي حتى صار شجره يعطي ثمرًا في كل سنة فاستعادت بعمله أكثر القرى عمرانها القديم.

كتب قنصل بريطانيا في دمشق سنة ١٨٥٩م بمناسبة زيادة الضرائب على الأهالي وتوكيل الجنود بجبايتها بالعنف: إن الحكومة تأخذ مال الشعب ظلمًا وعنفًا، ولا تحميهم من البدو الذين يزدادون جرأة واعتداءً، وعملهم قائم بابتزاز أموال الفلاحين التمساء لما فيه مصلحتها، على حين لا تأتي بدليل على إدراكها وجوب حماية الذين يجب عليهم أن يدفعوا الأموال اللازمة لتحسين حال الولاية، وسد حاجات الحكومة المركزية، وإنما تهمل الاحتياط للأمر. وقال أيضًا: «إن جو الشام صاف وهواءها جيد وأرضها خصبة حسنة الري، ففي مكنتها أن تصبر على هذه الحالة أكثر من غيرها من الولايات الأقل خصبًا، ولكن لا بد في آخر الأمر من أن تفرغ هذه الموارد».

آفة الهجرة على الزراعة

ومما أصيبت به الزراعة من الآفات آفة دونها الآفات كلها، بدأت تدب في جسمها أواخر القرن الماضي بركوب الفلاحين غوارب الاغتراب عن الوطن في التماس الرزق وطرق الغنى؛ وذلك منذ دهش

الناس لأرباح المهاجرة الأول من الشاميين إلى أميركا، أرباح لم يكن لابن هذه الأرض عهد بها وكان ثلاثة وعشرون قيراطاً من أربعة وعشرين قيراطاً منهم يعيش، ولا سيما في الأرض القاحلة، عيش القلة الشديدة. فلم يلبث الناس في الجبال أن حذوا حذو أولئك المهاجرين، فأخذ الناس ينزحون إلى أميركا الجنوبية والشمالية وإلى أستراليا وجنوبي إفريقيا وغيرها من البلاد المفتحة حديثاً، حيث يسهل جني المال، وتزيد أجرة العامل على نفقته كثيراً.

وهاجر ألوف أيضاً إلى مصر والسودان عقبى الاحتلال الإنكليزي سنة (١٨٨٢م) فحرمت الشام في أربعين سنة نحو سبعمائة ألف يد عاملة، كان ثلثهم يستوطن في الأصقاع التي نزلها، تمسك بتلابيبه لكثرة علاقته وطيب العيش فيها، والثلث الثاني يهلك، والثلث الثالث يرجع. ولم تلبث الهجرة أن عمت جميع السكان، اقتصرت على أبناء الجبال أولاً، ثم تناولت ابن السهول، وانتقل الغرام بها من ابن القرية إلى ابن المدينة. ومن جملة ما زاد في عدد المهاجرين سهولة السفر وتأليف شركات للتفسير تسلف المهاجر أجرة طريقه ونفقاته الأولى ريثما يجد عملاً حيث ينزل.

وهذه الهجرة من أعظم ما أخر حال الزراعة في هذا القطر، فأصبحت بضربة مهمة أهمها ارتفاع أجور العملة فيها؛ لأن من عاد منهم يحمل مالا ولو قليلاً استنكف عن العمل في الزراعة كما كان هو وأبوه، ومنهم من بنوا القصور الغناء والدور القوراء في مزارعهم، وأخذوا ينعمون بطيب العيش، ويبحثون أوقات فراغهم في أمور ما كانت لهم ولا كانوا لها، ويلهون ويلعبون على الطرق التي اقتبسوها في مهاجرهم. وقد كانت جبال لبنان وعامل والعلويين وقلمون والخليل والسامرة من أشد الأصقاع التي تأذت بالهجرة فتأخرت زراعتها فوق تأخرها، ولقلة اليد العاملة رأينا بعضهم في البقاع يقرن امرأته إلى ثوره تعمل مع فدانها، ورأينا الحوارنة

يستكثرون من الأزواج يتخذونهن أجيرات في أعمال الحقل وعلف الدواب واستخراج الدرّ وعمل السمن واللبن. ولئن دخلت القطر أموال طائلة بسبب الهجرة فثروة أمة لا تعد بكثرة نقدها بل بكثرة ما يعمل أبناؤها في أساليب الرزق المختلفة، وقُلْ أن أنفق مال يذكر على تحسين الزراعة وإقامة الشركات النافعة، ونحن لم نبرح نشد مع حافظ إبراهيم:
أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على أرض من الذهب

خصب الأراضي ومعالجتها وما يزرع فيها

يضرب المثل بزكاء منابت الشام واعتدال أهويتها، وجودة مناخها، وكثرة مياهها، على كثرة حزنونها وجبالها، وإن أرضاً تعطي حبتها في بعض الجهات مائة حبة، كأرض الرحبة بالقرب من جبال الصفا، لتعد من أخصب بقاع الأرض؛ وذلك لأن أرضها مستريحة منذ العصور المتطاولة. فإذا كان بنو إسرائيل قد جعلوا عادة لهم أن يريحوا أرضهم مرة كل سبع سنين، فإننا قد أرحناها منذ قرون، ولذلك لا تضمن علينا بخيرات سطحها كلما حرثناها وزرعناها.

وما زالت زراعتنا كما عرفها الأجداد بل كما عرفها الإنسان منذ آلاف من السنين، ليس فيها شيء من العلم إلا التجارب، ولا من التغيير إلا ما تضطر إليه الأحوال وتهدي إليه الفطرة، ولذلك يعوزها كثير مما يوجد في غيرها من النباتات والأشجار. قال الرحالة فولني في كلامه على مناخ الشام: إن الأرض يجود زرعها على شواطئ بحيرة تاحولة، والثيلة تنبت بلا عمل على ضفاف نهر الأردن في بيسان وهي لا تحتاج إلا قليل من العناية حتى تستوفي الشروط المطلوبة. وبعد أن أفاض القول على مدن الشام قال: إن دمشق تفاخر وحق لها بالفخر بأن فيها كل الثمار التي تحصل في ولايات فرنسا. ثم ذكر أن البن الذي يزرع في تهامة اليمن

تلائم زراعته أرض الشام، ومناخها يلائم طبائع الثمار كلها فينبت النخل كما ينبت الصنوبر والسرو.

وقال «هوار»: لئن كان القطن زرع في أوربا فإن ضواحي هاتين المدينتين (دمشق وحلب) كانت خاصة بزراعة شجيرة القطن، وهذه الحقول البديعة توجب حيرة السياح، والقطن الصغير الطول ينبت في ضواحي دمشق، وكانت عكا واللاذقية وقبرس تعطي صنفًا ثالثًا من القطن، وكانت أرجاء نابلس إلى عهد قريب تصدر من القطن ما قيمته مئات الألوف من الدينانير.

وقال «بوست»: تقسم فلسطين باعتبار الفلاحة إلى أربعة أقسام: السواحل كساحل غزة ويافا وشارون وهي صالحة لنمو مزروعات المنطقة تحت الحارة، ووادي الأردن (العربة) وهي تناسب مزروعات المنطقة الحارة والجبال، وفيها أودية كثيرة مخصصة كمرج ابن عامر «يزرعيل»، والأودية المجاورة كالناصرية ونابلس والخليل «حبرون» وهي تناسب مزروعات المنطقة المعتدلة، والسهول الداخلية وهي تناسب في الأكثر الحنطة والشعير والسمسم. قال: ولا شك بأن هذه البلاد كانت ذات أشجار برية وبستانية أكثر مما هي الآن. وكان التراب على جوانب الجبال أكثر مما هو اليوم، وكذلك العيون فإنها كانت أكثر عددًا وماءً فضلًا عن أن مياه الشتاء كانت تجمع في مساقى وصهاريج. وقال «ورن»: إن فلسطين «شرقي الأردن وغربيه» كافية لسكنى خمسة عشر مليونًا من الجنس البشري إذا اعتنى بها الاعتناء الواجب. قلنا: إذا كانت الشام على هذه الصفة من الخصب والسعة فكيف لا تسع العشرين مليونًا من الناس وكل إقليم من أقاليمها كالبلقاء أو الجولان مثلاً يعد الصالح من تربته أكثر من مملكة من الممالك الصغرى في أوربا، ولكن السر بالسكان لا بالمكان.

تقسيم السهول والجبال

قسم صاحب كتاب الزراعة العملية الحديثة أقاليم الشام الزراعية إلى خمسة أقاليم يتركب كل منها من عدة مناطق تكاد تكون واحدة في درجة الارتفاع عن سطح البحر وهي:

١- إقليم الغور أي شواطئ الأردن، وهو يمتد من بحيرة الحولة شمالاً إلى بحيرة لوط جنوباً، أي أراضي جنوب بحيرة الحولة وأراضي البطيحة والغوير وسمخ والقسم الشرقي من بحيرة طبرية وأرض جسر المجمع وبيسان وجنوب بيسان وغور الصلت ومنطقة أريحا وشواطئ بحيرة لوط. ومن جملة نباتات هذا الإقليم البردي والأسل والقصب الفارسي والأكاسيا الشوكي والسوسن وزنبق الماء على شواطئ بحيرة الحولة والسدر الكثير في الأراضي المجاورة لبحيرة طبرية كأرض الغوير والمجدل والبطيحة وغيرها والغار والطرفاء والقصب وأنواع النخيل وسفط السيال والرتم والبان والصلة والغرقد والعوسج والعشر وغيرها على شواطئ الأردن في منطقة بيسان وشرق الشريعة والصلت وأريحا.

٢- إقليم السواحل التي تمتد من شبه جزيرة العقبة إلى خليج الإسكندرونه ويشتمل على السهول الساحلية من غزة ويافا وحيفا وعكا وصور وبيروت وطرابلس واللاذقية والإسكندرونه ويدخل فيه مرج ابن عامر وأراضي جنين وشمال بحيرة الحولة ويجود فيه الليمون والبرتقال والموز والرمان. ومن جملة نباتات هذا الإقليم الطبيعية البلان والصنوبر البحري والقندول والوزال والطرفاء وأنواع البرسيم والشقائق والدقلى والأقحوان والقصب الفارسي وأنواع مختلفة من البلوط.

٣- إقليم السهول وتدخل فيه سهول الكرك والبلقاء وحوران وسفوح حرمون والبقاع والجولان والغوطة والمرج والسهول المرتفعة في

فلسطين وحمص وحماة وحلب وما شاكلها من السهول المتقاربة في إقليمها، وتوجد في هذا الإقليم الأشجار المثمرة والخضر والتوت واللوز في الأرض البعلية والحدود والصفصاف والدلب في شواطئ الأنهار.

٤- إقليم الجبال ويدخل فيه جبال الكرك والصلت وعجلون وقلمون وجبل الشيخ ولبنان ولبنان الشرقي والنصيرية والأقرع، ويوجد فيه الزيتون والكرم والتين واللوز والصنوبر والسرو والفسق البري والميس والحبوب وكثير من الأشجار المثمرة، وفيه من النباتات الطبيعية البطم والقَيْقَب والجنستا والخرنوب والزعرور والعليق والشذاب والدردار والزيتون والسنديان والدلب والصنوبر والديشار والآس والسرخس، وفي أقسام الجبال المرتفعة بعض أنواع البلوط ثم الأرز والدفران.

٥- إقليم الصحراء وتتناول ما نسميه بادية الشام أي الأصقاع الواقعة شرق المعمور من دمشق تنبت فيه بعض النباتات والأعشاب منها ما يزول في الربيع ومنها ما يبقى في الصيف. وليس في هذا الإقليم سكان إلا البدو الضاربون في أرجائه.

من الذين أدخلوا الطرق الجديدة

أدخل ثلاثة أصناف من الناس في الشام روحًا جديدًا في زراعتها، ومنهم مهاجرو قافقاسيا وغيرهم ممن سكنوا قرى كثيرة في عمل حلب ودمشق وعَمَّان، فإن هؤلاء أدخلوا أصول الزراعة على طريقتهم وهي أرقى من طريقة من نزلوا عليهم في حمص والبلقاء والجولان مثلًا، ثم إن الألمان الذين أقاموا لهم مستعمرات في حيفا ويافا منذ (١٨٦٨م) قد كانوا مثال الفلاح النشط، وكان على فلاحنا المجاور لهم أن يتعلم منهم ويعتبر بما يأخذه الفلاح الجرمانى من وافر الغلات، ويتعلم منه تنظيم داره وإصطبله وحديقته ومزرعته وتعليم أولاده وغير ذلك مما يعود عليه

بالنفع والراحة. وأهم من أدخلوا التجدد في الزراعة في ربوع الشام
الصهيونيون من مهاجرة ألمانيا ورومانيا وروسيا وبولونيا وغيرهم، فإنهم
والحق يقال قد أنشأوا بأموال روتشلد وبركم وفيرو وفيتيفوري وغيرهم
من أغنياء الإسرائيليين الذين ابتاعوا الأراضي في فلسطين لأبناء نحلتهن،
وأمدوهم بالمال ليتوفروا على استثمارها، مزارع حرة بأن تكون
نموذجات الحقول، وقد قامت الجمعيات الصهيونية مثل الجمعيات
الصهيونية اليهودية وجمعيات ايكا وفاعوليم والأليانس وغيرها بأعمال
مهمة لنشل أبناء دينهم من سقطتهم، وأنشأوا لهم قرى كسارونا وزمارين
والخضيرة وفلبس والجاعونة والشجرة وغيرها هي كالقرى الأوربية
باتقان أعمالها الزراعية. وممن ساعد على إنجاح الزراعة بعض مهاجري
البنانيين الشرقي والغربي، فإن منهم من وضع مما اقتصد من المال أمواله
في الزراعة وأدخل طريقة الأمريكان في أرضه.

درس الزراعة

وكان من أثر مدرسة الزراعة العملية في نيتز قرب يافا التي أسست
منذ نحو خمسين سنة، وكان يتخرج فيها في السنة على الأقل عشرون
تلميذاً يستطيع تطبيق علمه الزراعي على العمل - أن نشرت أصول الزراعة
الحديثة بين أبناء إسرائيل، وغدا فيهم الكفاة للقيام على الحرث والتسميد
والبذر والغرس والتعهد والتقليم والتطعيم، وأصبحت مستعمراتهم تخرج
أصنافاً جيدة من الخمور واللوز؛ وغيرها لا تخرجها القرى المجاورة لها.

ومن مدارس الزراعة التي نفعت بعض أبناء سورية وفلسطين مدرسة
اللاطرون بين يافا والقدس أنشأها الآباء البيض، ومدرسة تعنايل بين
بيروت ودمشق أنشأها الآباء اليسوعيون. وقد أنشأت الحكومة السابقة
مدرسة زراعية في سلمية لكنها ضعيفة في تلقين العمليات والنظريات،

وقد ألغتها مؤخراً بحجة أن تلاميذها لم يعملوا في الصناعة التي اختصوا بها، وآثروا التوظيف في أعمال الحكومة، وذلك على شرط أن تؤسس مدارس عملية أخرى ومشاتل في كل قصبة فلم يتم شيء من ذلك.

ومن الغريب أن الزراعة وهي تكاد تكون في هذا القطر المحبوب مورد عيشة الأول، لم يدرسها إلى اليوم سوى أفراد قلائل، ولا أذكر سوى بضعة شبان ممن يملك آبائهم مزارع واسعة تعلموا فن الزراعة على الأصول في مدارس فرنسا وإنكلترا وتونس ومصر والأستانة، وجاءوا فعنوا بتطبيق ما تعلموه، وكان الواجب أن يكون لكل بضع قرى مهندس زراعي، يعلمها من علمه ويمدها بتجاربه ويدير شئونها كما يدير أهل البصر في الغرب مزارعهم.

نقص كبير

إلى اليوم لم تدخل على ما يجب أرضنا الأدوات الزراعية الحديثة التي تقلل عمل الأيدي وتزيد النماء كآلة الحرث والبذر والدرس والتذرية دع غيرها، وما أبقاه لنا بعض علماء العرب من الكتب الزراعية التي طبع بعضها بلغتنا في أوروبا دليل كبير على ترقى هذا الفن أيام لم يكن في الأرض من يحسنه. سبق العرب الغرب في كل شيء، وسبقهم هو اليوم ويا للأسف في كل شيء، والدهر دول يوم لك ويوم عليك.

سبق الأجداد في كل شيء، وتأخر الأحفاد في كل شيء، والفلاحة التي هي أشرف الأعمال وضيفة في نظر كثيرين حتى إن بعضهم قال: وقد رأى السكة في دار: ما دخلت هذه السكة دار قوم إلا ذلوا، ولو قال: ما خلت هذه السكة من دار قوم إلا ذلوا لكان أقرب إلى الصواب. شعار الغرب اليوم «الأرض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه». وإذا كانت الفلاحة عندنا ينظر إليها نظر احتقار فمن باب أولى أن ينظر

إلى الفلاح كذلك وهو خادم الوطن الحقيقي. وإذا كان الفلاح كالسلطان في مزرعته عند الأمم الممدنة، فهو هنا عبد رق لصاحب الأرض وللحكومة وللمرابي.

وبينا نرى أرباب المزارع في الممالك الراقية، ومصر منها، يُعنون براحة فلاحهم وتعليم أبنائهم وبناتهم، وتوفير قسطهم من الصحة والهناء، ويجعل لهم حتى في قراهم مدارس ومعابد ودور تمثيل وصور متحركة للتسلية، نجد أكثر المزارعين هنا يجدون في أن يبقوا فلاحهم جهلاء أغبياء حتى يخضعوا لهم بزعمهم أبد الدهر خضوعاً أعمى، وقل أن سمعت بأن مزارعاً أنشأ لفلاحه عندنا مدرسة بسيطة أو مسجداً وأتاهم بخطيب يعلمهم أو بطبيب يطبهم، ولذلك تجد القرى التي يملكها أفراد صفراً من هذه الوجهة؛ لأن صاحب القرية لا يهتم إلا لتكثير الدخل السنوي وإرهاق فلاحه، وابن البادية والقائمون على الزرع والضرع أقل الأمة ويا للأسف حظاً من التفكير بسعادتهم، كأنهم ليسوا مادة الثروة، إذا اختل نظامهم تطرق الخلل إلى سائر مذاهب المعاش، ومقومات الحضارة ومظاهر الرخاء والهناء.

ولا يزال يدور على الألسن في وصف الفلاحين أنهم «غبر الوجوه إذا لم يُظلموا ظلموا» ولكن تثقيف أودهم بالتربية قلما يخطر ببال، وقطع الجرثومة من أساسها لا نراه دواء عاجلاً!

التحسين الأخير

على أن من الواجب أن يقال أيضاً: إنه استفادت كثير من قرى الغوطة والمرجين ووادي العجم والبقاع وبعبك والحولة وجبال عامل وعكار والحصن ونابلس وعكا والخليل وغزة وسهول حمص وحماة وحلب وأنطاكية وإسكندرونة والسويدية عمراناً منذ ثمانين سنة بفضل بعض طبقة

الأعيان؛ لأنهم استطاعوا أن يحموها من عيث البادية وعبث الظلمة من العمال، وأن يمدوها بالمال وقت العسرة فغرموا على تحسينها أموالاً، وصرفوا قواهم إلى الانتفاع بها ما أمكن. وكان العربان يداهمون حتى القرى القريبة من الحواضر، ويطلبون منها «الخوة أو الخاوة» وهي مبلغ من المال يتقاضونه من الفلاحين البائسين يؤدونه لصعاليك البدو صاغرين، وإذا استنكفوا عن أداء ما يطلب منهم، محتجين بضيق ذات اليد أو رداءة الموسم، نهبوا دورهم وحرقوا عروضهم وغلاتهم واعتدوا على أرواحهم. وقد كانت معظم الأرياف مأوى الأشقياء وعصابات قطاع الطرق، فما كان الفلاح يجسر أن ينتقل من قرية إلى أخرى، أو يحمل محاصيله إلى المدن، ولا أن يعمل في حقله البعيد قليلاً عن القرية أو المزرعة.

فلما طبق قانون الولايات سنة (١٢٨١هـ) ثم أنشئت المحاكم النظامية كان من أثرها القضاء على عصابات من أرباب الدعارة، وقلّت الشقاوة، فانصرف الفلاحون كلهم إلى العمل؛ لأن الأسعار بدت بالارتفاع، فبعد أن كان الحوراني ينقل غلاته على الجمال إلى بيروت أو عكا فلا يتحصل منها غير أجرة النقل، أصبح الفلاح يحمل غلاته إلى الموانئ البحرية ولا سيما غزة ويافا وحيفا وبيروت وطرابلس واللاذقية والإسكندرية فتأتيه بأرباح طائلة؛ لأن الحبوب كالثمار أصبحت تسافر في البحار، ويدفع في ثمنها النصار.

وانتبه الفلاح لحاله بكثرة اختلاطه بابن المدن فعرف بؤسه، فلم يكن على ما كان منذ سبعين سنة مملوكاً لجهله الطبيعي، ولظالميه من المرابين وغيرهم من أدوات التخريب. وكان من تأسيس المصارف الزراعية، وإن كانت قليلة رءوس الأموال، ويجب أن يكون فيها التسهيل كثيراً، أن أنزلت معدل الربا إلى سبعة في المائة، فخففت من غلواء المرابين

والصيافة. ولو زيد في ترقية المصارف الزراعية وأنشئت مصارف عقارية تقرض أرباب العقارات أيضًا بفائدة معتدلة لزادت المنافع المطلوبة للزراعة.

وصادف أن قلت آفات الزراعة في العهد الأخير، فأصبحت الأوبئة في البشر والبقر لا تفعل فعلها الشديد كما كانت في الأدوار السالفة، وردمت بعض

المستنقعات الصغيرة التي كانت بجوار بعض القرى، وعني ديوان الصحة بفتح مستوصفات في القصبات ومستشفيات في المدن، فتحسنت الصحة بعض الشيء، وأصبح الفلاح يدرك فائدة التطب، وإن أعوزه الطبيب أحيانًا، وفتحت وزارة المعارف مدارس ابتدائية في بعض القرى الكبيرة فدخلت المدنية قليلًا وزادت النفوس زيادة محسوسة، وربما زادت عما كانت عليه منذ سبعين سنة سبعة أضعاف. وهذه الزيادة أفادت الزراعة أيضًا، ولم تصب بعض الأصقاع الزراعية بالضعف إلا مدة الحرب الأخيرة، وقد كلب عمال الترك فاستلبوا من الفلاح ابنه وبقره وغنمه وخيله وحميره وبذاره وحطبه وقطنه وصوفه وقشره، ولو طالت الحرب سنة أخرى لحصد الوباء البقري الأبقار من أكثر أنحاء الشام؛ لأن ما بقي سالمًا منها كانت الحكومة تأخذه للنقل أو للذبح، فتعطل بعضهم عن الحرث، ولكن من نجوا من هذه الغوائل ولو قليلًا استفادوا من ارتفاع الأسعار أرباحًا طائلة، فوفوا ديونهم وخرجوا وقد أغنتهم الحرب ولم تفقرهم.

وما زلت أعتقد أن أصحاب الحوانيت مقصرون جدًا في تعليم الفلاح، وتحسين حالته المعاشية والمنزلية والصحية، حتى كاد يصبح بطول الزمن شقيق البهائم لا يفرق عنها إلا أنه ناطق، وهذا النقص يحمل

عليهم وعلى الحكومة. فقد تجتاز إلى اليوم القرية والقريتين في الأرجاء البعيدة ولا تجد رجلين أو ثلاثة من أهلها يقرءون ويكتبون على ما يجب، فكيف لهم أن يعرفوا ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات. ولا يستقيم للزراعة حال فيما رأى إلا إذا علّمت كل أسرة يأتيها رزقها من الزراعة أحد أبنائها هذا الفن الجليل، ولا تمضي بضع سنين حتى تدخل الشام في طور الأقطار الزراعية الراقية، وعندها تتضاعف الثروة مرتين أو ثلاثاً، وينقطع دابر الهجرة ويغمر الغامر كما يزيد عمران العامر، ويعتقد الناس أن العز والغنى معقود بالأرض، وأن الشرف يستمدّه المرء من عمله الحر الحلال.

عناية الأقدمين بالزراعة

إنّ ما انتهى إلينا من الكلام القليل على الزراعة الشامية لا يشفي غلة الباحثين اليوم؛ لأنه مجمل يحتاج إلى تفصيل كثير. وإذا عرضنا له هنا فللاستئناس به في تاريخ الزراعة في الجملة، فقد علمنا أن الإسرائيليين كانوا يريحون الأرض سبع سنين ثم يزرعونها فتأتي غلاتهم مخصبة نامية. وعلمنا أن النبطيين وهم العرب الرحل في أرجاء البتراء في الجنوب كان من المحظور عليهم أن يزرعوا الحنطة ويغرسوا الأشجار المثمرة ويبنوا البيوت إذ كانوا يعتبرون أن الاحتفاظ بهذه الخيرات يحتاج إلى أن يفادي المرء بحريته. وعرفنا أن الفينيقيين كانوا لا يُعنون بالزراعة عنايتهم بالتجارة، فكانوا يجلبون من الداخل ومن السواحل القريبة منهم ما يلزمهم في غذائهم. حتى إذا جاء العرب وأبدوا ما أبدوا من حب التحضر كان قانونهم: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له» واطرد ذلك منذ الفتح، واغتبط العرب بما وجدوه من الخصب في هذه الربوع بعد قحولة الحجاز وبواديّه المحرقة فقال زياد بن حنظلة في فتح عمر مدينة إيليا من قصيدة:

وألفت إليه الشام أفلاذ بطنها وعيشًا خصيًّا ما تعد مأكله

حتى إذا تربعت أمية في دست الخلافة وأخذ آلهم ورجالهم يقتنون المزارع، ويبالغون في اتخاذ الغروس والزروع المثمرة المغلة، جعلوا القرى مستغلات لهم ونزازها وغنوا بعمرائها، وتنافسوا في ذلك. فقد ذكر المنبجي أن هشام بن عبد الملك اتخذ المستغلات الكبيرة في أكثر المدن التي في سلطانه، والخانات والحوانيت والحجر والضياع والمزارع، وهو أول من اتخذ الضياع لنفسه من العرب، واشتق أنهارًا كثيرة غزيرة، وهو الذي استخرج النهر الذي فوق الرقة، وغرس غرسًا كثيرًا بالجزيرة والشامات، فبلغت غلته أكثر من خراج مملكته.

ولطالما غني الخلفاء بأن لا تبقى أرض شاغرة لا تستغل، فقد أنزل معاوية قوماً من الفرس في طرابلس، وكان الرشيد لما انتشر ذاك الطاعون الجارف في فلسطين على عهده وكان ربما أتى على جميع أهل البيت فتخرب أرضوهم وتعطل، قد وكل بهذه الأرضين من عمرها فكان يتألف الأكرة والمزارعين إليها فصارت ضياعًا للخلافة.

وما زالت العناية بتعهد الأرض متوفرة حتى اغتنى العرب الذين استغلوا هذه الديار بذكائهم وبعد نظرهم. والعرب - كما قال أحد علماء الإفرنج - عمال زراعة ورجال براعة، برعوا في سقي الجنائن واخترعوا النواير العجيبة بل ووطنوا النباتات والأشجار الإفريقية والآسيوية في أوربا كالنخل والبرتقال والتوت والقطن وقصب السكر والذرة والأرز والحنطة السوداء والزعفران والهندباء والخرشوف والسبانخ والبادنجان والطرخون والبصل والياسمين... إلخ، وينسب إليهم اختراع طواحين الهواء ونواير الماء. وقال ميشو: ما من دار في أوربا إلا وتعرف اليوم البصل Echalote الذي جاء اسمه وأصله من عسقلان. ومعلوم أن

الأندلس ابنة الشام فتحها الشاميون ونقلوا إليها مدنيّتهم. وهذه الصنوف من الزراعة التي انتشرت في الأندلس ثم في سائر أوربا تكاد تكون خاصة بأرض الشام في تلك القرون.

لا جرم أن الحضارة التي أوجدها العرب كان من أول دعائمها الزراعة فاحتاجت الدول والأمة إلى الاستكثار من الغروس واستجادة الزروع من وراء الغاية. قيل لإسحاق بن يحيى الختلي من ولاية دمشق (٢٣٥): لِمَ سكنت دمشق وفلحت أرضها، وأكثرت فيها من الغروس من أصناف الفاكهة، وأجريت المياه إلى الضياع وغيرها؟ فقال: لا يطيق نزولها إلا الملوّك. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: ما ظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار!

ولطالما دهش العرب بغوطة دمشق لأنها كانت أول ما يقع عليه نظرهم من عمران الشام؛ فيعجبون للأشجار والزروع المنوعة التي لا يُعرف أكثرها في شبه جزيرة العرب، ويدهشون للخصب والمياه الدافقة من كل جهة.

أصناف الزروع والأشجار

ذكر المهلبى أنه تجلب من كور حلب وضياعها ما يجمع جميع الغلات النفيسة، فإن بلدة معرة مصرين وجبل السماق بلد التين والزيتون والزبيب والفسق والسماق والحبة الخضراء. وقال ابن شداد: وفي بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفاً من الغلات. وقال ياقوت: ويزرع في أراضيها القطن والسّمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عذياً لا يسقى إلا بماء المطر، ويجيء مع ذلك رَحْصاً غُضّاً رويّاً، يفوق ما يسقى بالمياه والسيح وقال: إن أكثر مستغل ضياع الغور السكر ومنها يحمل إلى الآفاق، وفي عسقلان نخل كثير

وصنوف من التمر والرمان يحمل إلى كل بلد بحبسه، وإنها معدن الجميز كثيرة المحارس والفواكه. واشتهرت نواز في جبل السماق بتفاحها الكبير المليح، وتل أعرن في حلب بعنبها الأحمر المدور. وقال ابن جبير: في بلاد المعرة وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفسق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين. وقال ابن حوقل: وما حول معرة نسرين من القرى أعذاء ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين، وكذلك أكثر ما بجميع جند قنسرين أعذاء ومياههم من السماء. وقالوا: اشتهرت الفرزل في البقاع بزبيبها الجوزاني، وكان يعمل به الملبن المسمى بجلد الفرس وهو من خصائصها، وأن بعلبك معدن الأعناب والحولة معدن الأقطان والأزهار، واشتهرت بيسان بالنخيل الكثير كما اشتهرت بيروت وآبل بقصب السكر، يطبخ بها السكر الفائق، وعراق الأمير بسفرجلها، والناعمة بخرنوبها الفائق. وقال المقدسي: إن عسقلان معدن الجميز وأريحا معدن النيل والنخيل كثيرة الموز والأرطاب والريحان. ومعان معدن الحبوب والأنعام، ويبنى معدن التين الفائق الدمشقي، وأن أشجار جبال فلسطين زيتون وتين وجميز وسائر الفواكه أقل من ذلك. وقال: خير العسل ما رعى السعتر بإيليا وجبل عاملة وأجود المري ما عمل بأريحا، وأن عنب القدس خطير وليس لمعنتها نظير.

وذكر ابن حوقل أن أهل زُغر يلحقون كرومهم وكروم فلسطين كما يلحق النخل بالطلع الذكر، وكما يلحق أهل المغرب تينهم بأذكارهم. وقالوا: إن لبنان كثير الأشجار والثمار المباحة يتعبد فيه أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتًا من القش يأكلون من تلك المباحات، ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك.

وقال شيخ الرتبة: ولجبل لبنان ولا سيما بقضييه وأذياله نحو من تسعين عقارًا ونباتًا نافعًا مباحًا بلا ثمن وله قيمة جيدة وثمرن يكتفي به

العجابي الجامع طول سنته له ولأهله، ومن ذلك الكثيراء والرياس والبرباريس والقاوينا وهو عود الصليب والقيسه والبقس والقبقب الذي يعملون منه المرامل والملاعق والآلات المموهة بالذهب والفضة ويحمل إلى سائر البلاد والأقاليم، وليس عملاً ألطف منه ولا أحسن، ومن النباتات أيضًا شجر المحموده والأشتوان والزراوند والحماما التي لا توجد إلا في إقليم دمشق وهو معلق في شقيف عالٍ ما يقدرّون على جنيه إلا أن يدلّوا جانبه بحبال من رأس جبل عالٍ، كما يدلّو الدلو في البئر، وهي لأجل الترياق الفاروق والراوندان واللوز المر والحلو والأبهل والقراصيا والزيفون، وأما الفواكه فكثيرة جدًا بلبنان اهـ.

وذكر الثعالبي أن التفاح اللبناني موصوف بحسن اللون وطيب الرائحة ولذاذة الطعم يحمل منه في القرابات إلى الآفاق، وكان يحمل إلى الخلفاء في بغداد منه من خراج أجناد الشام ثلاثون ألف تفاعحة. وقال المقدسي في الرملة: إنه ليس أطيب من حوارى الرملة ولا ألد من فواكهها، أطعمة نظيفة وأدمات كثيرة وأنها جمعت التين والنخل وأنبتت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل. وقال: إن ماء فلسطين من الأمطار والطل وأشجارها أعذاء وزروعها كذلك لا تسقى إلا نابلس فإن فيها مياهًا جارية. وقال ياقوت: إن ياسوف من قرى نابلس توصف بكثرة الرمان.

وقال أبو الفدا: إن جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين وخرنوب وسائر الفواكه أقل من ذلك. وذكر المقدسي أن على نحو نصف مرحلة من كل جانب من حبرون قرى وكروم وأعناب وتفاعح يسمى جيل نضرة لا يرى مثله ولا أحسن من فواكهه عامتها تحمل إلى مصر وتنتشر. وقال ابن حوقل في زغر: إن بها بسرًا يقال له الأنقلاء لم ير بالعراق ولا بمكان أغرب ولا أحسن منظرًا منه لونه كالزعفران ولم يغادر منه شيئًا ويكون في أربع منه رطل، وبها النيل الكثير المقصر عن صباغ نيل كابل، وفيه لهم

تجارة كبيرة واسعة ومقصد كبير. وقال الظاهري: إن غزة كثيرة الفواكه. وقال ابن بطلان في أنطاكية: إن أرضها تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون. وقال ياقوت: وبدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حَرَّان وما يقارب ذلك فتعم الكل. ولقد ذكروا في باب خصب أريحا أن الجفنة التي عمرها ٤٢ سنة تكون استدارتها على سطح الأرض مترين وثلاثين سنتيمتراً وتحمل في السنة ١٥٠٠ كيلو من العنب وأنه يضرب المثل بورودها وأزاهيرها، ويخرج منها الزقوم والسدر وهو أشبه بالزيتون الكبير يستخرجون منه زيتاً للجروح. وكذلك النبق وهو بمقام الصبار والزيفون في بلاد أخرى يستعمل حيطاناً للحوائط؛ أي للبساتين.

وذكر الثعالبي أن زيت الشام يضرب به المثل في الجودة والنظافة؛ وإنما قيل له زيت الركابي لأنه كان يحمل على الإبل من الشام، وهي أكثر بلاد الله زيتوناً وفيه ما فيه من البركة والمنفعة. وقال شيخ الربوة في نابلس: وقد خصها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة وهي الزيتون ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز والبراري مع العربان، ويحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي، ويعمل منه الصابون الرقي يحمل إلى سائر البلاد التي ذكرناها وإلى جزائر البحر الرومي، وبها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض. والظاهر أن هذه الشجرة المباركة شجرة الزيتون آخذة بالاضمحلال قياساً مع حالهم في القديم، فقد قلَّ عدده في فلسطين بعد الحرب العامة واستعيض عن بعضه بما بذلته الحكومة هنا من الجهد لغرس الزيتون والكرمة، أما في أرياض دمشق فهو آخذ بالقلّة منذ اشتهرت الفواكه وهي هيئة العمل سريعة الغلة، وكان في حمص على ما تبين من الحفريات التي أجريت زيتون كثير بدليل ما وجد من معاصره

التي لم يبق لها زيتون تعصر منه ولا تجد الزيتون اليوم في أرجاء حمص إلا في بقعة أو بقعتين. واشتهر في القديم زيتون الطفيلة والشوبك اشتهاهما بمشمشمهما وكمثرهما ورماتهما. سألنا أحد شيوخ الصلت عن السبب في إحجام القوم هناك عن غرس شجر الزيتون مع أنه يوجد كل الجودة فقال: لا تذكرنا بغاوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدن أحد متصرفي البلقاء على أن نغرس في هذه الأدوية التي تراها مائة ألف زيتونة، فوق في أنفسنا أن في الأمر دسيصة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل أراضينا على صورة لا نعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالأمر بالظاهر، وغرسنا ألوفًا من شجر الزيتون، ولكن أتدري كيف تخلصنا منه بعد؟ كان أحدنا يجيء إلى الغرسة فيحركها حتى لا يطلع جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون إلا ما تشاهده اليوم في جوار القصبة وقليل ما هو. قلنا: وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالأمس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار، ويزينون لهم اقتناء الأراضي للزراعة، واليوم يطلب الأهلون في هذا العمل وفي غيره الأرض الموات ليحيوها ولا يعطون طلبتهم! هكذا رأينا أهل الشراة والطفيلة ومعان، على حين يقضي قانون الأراضي بأن كل من يحيي أرضًا مواتًا تبعد عن القرى والدساكر مقدار ما يسمع الصوت فيها من أقصى العامر فهي له. ولقد رأينا كثيرًا من أهل القرى استأصلت أشجار التين والكرمة وغيرها؛ لأن العشارين كانوا يتقاضون منهم عشرين فاحشًا أثمرت أم لم تثمر، فعدمت بعض القرى شجرها المثمر بهذا الظلم!

وما قيل في كثرة الزيتون يقال في كثرة الأعناب واشتهرت بلدان كثيرة بذلك، وقد أكثر شعراء العرب من ذكر خمر بيت رأس ولبنان وغزة وجدر وصرخد وأذرعات والأندرين وبنات مشيع وبيسان ولد ومآب والخمر

المَقْدِيَّة وخمر الأحص وقاصرين (في أرجاء حمص وحلب) وكان يقال لجبل بيت المقدس جبل الخمر لكثرة كرومه. واشتهرت حلبون في جبل سنير بخمرها وكثرة كرومها. ويظهر أن الزعفران كان كثيرًا ما يوجد في الشام لأنه كان يدخل في الأطعمة والأشربة كثيرًا، ومزارع الزعفران التي كان يطل عليها من يدر مَرَّان في السفح الغربي من قاسيون جبل دمشق مشهورة، والغالب أنها كانت في أرض النيرب، وكان الزعفران يوجد في جادية في قرى البلقاء والجادي هو الزعفران. ولم تكن عنايتهم بالنخيل أقل من عنايتهم بالزيتون والكرم مثلاً؛ ولا سيما في جنوب الشام وشرقه.

ولا أثر اليوم لبعض الثمار مثل القراصيا والكستانة والبندق والبيسيم (المشمولة) وكانت كثيرة مبذولة هي والكراس حتى القرن الحادي عشر وكان القطن يوجد في ضواحي دمشق وحماة وحلب. ذكر القلقشندي زروع الشام وفواكهه ورياحينه فقال: إن غالب زروعه على المطر قال في مسالك الأبصار: ومنها ما هو على سقي الأنهار وهو قليل وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البُرِّ، الشعير، الذرة، الأرز، الباقلاء، البَسَلَّة، الجلبان، اللوبياء، الحلبة، السمسم، القرطم. ولا يوجد فيه الكتان والبرسيم، وبه من أنواع البطيخ والقلقاء ما يستطاب ويستحسن. وكذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس، الملوخيا، الباذنجان، اللفت، الجزر، الهليون، القُنَيْط، الرجل، البقلة اليمانية، وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة، وقصب السكر في أغواره إلا أنه لم يبلغ في الكثرة حد مصر.

وأما فواكهه ففيه من كل ما يوجد في مصر كالتين، العنب، الرمان، القراصيا، البرقوق، المشمش، الخوخ -وهو المسمى بالدراقن- والتوت، والفرصاد، ويكثر بها التفاح والكمثرى والسفرجل مع كونها أكثر أنواعاً وأبهج منظراً، ويزيد عليه فواكه آخر لا توجد بمصر، وربما وجد بعضها في مصر على الندور الذي لا يعتد به كالجوز، البندق، الأجاص، العُتَاب،

الزعرور، والزيتون فيه الغاية في الكثرة، ومنه يعتصر الزيت وينقل إلى أكثر البلدان وغير ذلك. وبأغوارها أنواع المحمضات كالأترج، الليمون، الكباد، النارنج؛ ولكنه لا يبلغ في ذلك حد مصر. وكذلك الموز ولا يوجد البلح والرطب فيه أصلاً. قال في مسالك الأبصار: وفيه فواكه تأتي في الخريف وتبقى في الربيع كالسفرجل والتفاح والعنب.

وأما رياحينه ففيه كل ما في مصر من الآس والورد والنرجس والبنفسج والياسمين والنسرين، ويزيد على مصر في ذلك خصوصاً الورد حتى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلى سائر البلدان. قال في مسالك الأبصار: وقد نسي به ما كان يذكر من ماء ورد جُور ونصيبين.

وبعد فقد دخلت الشام في العهد الحديث عدة ضروب من الزروع والغراس لم تكن له فيه من قبل مثل الشوح، الأوكالبتس، الأكاسيا، المشمش الهندي، البندورة (الطماطم أو القوطة) والبطاطا فكان منهما فائدة جلى وأصبحت البندورة والبطاطا من أهم أنواع التغذية، وسرعان ما انتشر الغرام بهما وعمت القاصية والدانية زراعتهما.

الأشجار غير المثمرة

كانت الشام مشهورة بسروها وصنوبرها وأرزها، ويقول الشجارون: إنه كان في غوطة دمشق ألوف من أشجار السرو انقرضت، وأدرك الغزي في حلب من شجر السرو الهرمي والصيواني أشجاراً قليلة ثم فقد عن آخره، وكان يوجد منها بكثرة، وأحسن الجبال في الشام التي احتفظت بغاباتها بعض الشيء جبل لبنان، فإن الصنوبر والأرز فيه كثير. وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام على تاريخ الأرز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات، ولأن من خشبه بني قصر داود وهيكلي سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد

هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم، وقالوا: إن الآشوريين والبابليين والفرس والمصريين استعملوه في قصورهم وبناء هياكلهم واستعمله الإسكندر المقدوني في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ من مدينة صور، وكذلك السلاسة أدخلوه في بناء دورهم. وكانت أخشابه تحمل إلى طرابلس وصيدا وصور وبيروت وتعمل منها السفن وفيها عمل معاوية أساطيله لغزو الروم. وما برح كثير من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الأرز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من مملكة إلى أخرى. وهو عطر الرائحة إذا وضع في النار ويحسن في المشم إذا مسسته ييدك، ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبت به الأرضة ولا يفعل فيه السوس. والغالب أن الحكومات السالفة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزيتها وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر وتسمح باحتكار غيره وبدأ النقص في هذه الأشجار منذ خمسة قرون، وقد احتاج اللبنانيون إلى الاحتطاب للدفع والعمارة، وكانوا يسمون رزق الرجل أشجاره، وإذا غضب الحاكم على أحدهم يقطع شجره فيقولون في أمثالهم الدارجة: (الله يقطع رزقه) أي: شجره، كما يقولون: (الله يخرب زوقه) أي: بيته، وربما أسرع اللبنانيون في احتطاب شجر الأرز وغيره لثلا تصدعهم الدولة العثمانية، كما أن كثيراً من القرى في القاصية كانت أيام الأعشار تقطع التين والكرم وغيره من شجر الشجر لتخلص من ظلم العشارين الذين يتقاضون العشر من الشجر أثمر أم لم يثمر على ما تقدم.

ولم يبرح شجر الأرز مشاهدًا في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق، فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الأهل، وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة النمو؛ لكثرة الأمطار والثلوج والعواصف في تلك

الأرجاء، ومنها ما غرس حديثاً، وثلاثة فوق قرية عين زحلتا، وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه، ورابعة بين أفقا والعاقورة في جرد جبيل من جبل كسروان، وخامسة بين قرية تنورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتهما نحو عشرة آلاف، وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح، وفيها أضخم أشجار الأرز، ويبلغ عددها ٣٩٧، وقيل: ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى، وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشرة متراً وارتفاع طولهما خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة. وفي تسريح الأبصار أنه لا أثر اليوم في الشام لشجر الأرز إلا في أعالي سير بالضنية في وادي النجاص، ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر. وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم، ويسمى عند أهله تنوب sapin على أن في جبال قره مورط إحدى شعاب جبل اللكام من عمل أنطاكية غابات من الأرز وغيره من فصيلته. ولو توفرت العناية بأمثال هذه الأشجار وقضت الحكومة على كل فلاح أن يغرس ويتعهد عشر شجرات منها، إذا لما مضى خمسون سنة حتى تصبح الشام كسويسرا بأشجارها الغضة الملتفة، تحسن المناظر والمناخ ويكون منها عموم النفع، كلما وقع القطع منها في ثلاثين سنة كما تجري فرنسا في غابة فونتنبيلو وغيرها من غاباتها البديعة المشهورة. ولا تكون في جمالها أقل من شجر الأرز الذي يكسو نجاد جبال طوروس (الدروب) ووهادها فترى فيها تلعة مستطيلة إلى جانبها تلعة هرمية وأخرى ذات شكل بيضوي وغيرها المحدودب والمربع أو قائم الزوايا ومنفرجها وكلها مزينة بالأشجار.

يقول كاتب جلبي من أهل القرن الحادي عشر: إن غابات الشام كثيرة أشهرها غابة عسقلان وهو حرج كبير يمتد إلى نواحي الرملة. ومن

الغابات غابة أرسوف بالقرب من نهر العوجا تمتد إلى عكا، وكان يقال له غاب قلنسوة، وهذا الحرج يمتد من قاقون إلى عيون التجار، ومن الحراج حرج القنيطرة، وفي أطراف حلب عدة غابات وخصوصاً الغاب الكبير ويقال له الزور وأكثر شجره التوت اهـ. ولقد ثبت أن الغابات كانت في القرون السالفة أكثر من اليوم وأن معظم جبالنا التي نراها اليوم جرداء كانت خضراء وأن التجريد من الغابات وقع في أدوار مختلفة، فقد ذكر ابن حوقل أن جبل قلمون وجبل المانع وجبل الشيخ المحيطة بدمشق كانت منذ القرن الرابع مجردة من أشجارها قال: إنك إذا كنت في دمشق ترى بعينك على فرسخ وأقل جبلاً قرعاء من النبات والشجر وأمكنة خالية من العمارة.

وتجريد الشام من غاباته دعا إلى زيادة مساحة عدد البطائح والمستنقعات وتأليف صحار من الرمال فقد قالوا: إن الظلال كانت تمتد شرقي قيسارية على ستة أو ثمانية كيلو مترات، فأصبحت اليوم عبارة عن كثبان من الرمل. وهكذا سواحل فلسطين بل معظم سواحل الشام طمت عليها مياه البحر فأبقت فيها الرمال وألفت منها بطائح ومغايض وأفسدت الأراضي العامرة. ولهذا النظر قل ولا شك مساحة المزروع من أرض الشام سنة عن سنة والمستنقعات معروف ضررها بحياة الفلاح، وإن كانت أقل من الكثبان والحرار. وضرر المستنقعات يتناول الأنفس لما ينبعث عنها من الحميات التي كثيراً ما رأيناها تقفر قرى برمتها من سكانها. وقد قال الزراعي أرزنون: إن أهم الآفات التي ابتليت بها الغابات ثلاث: الرعي المتبادل وحق المرعى في الأراضي الخالية والحيوانات الصغيرة؛ ولا سيما الماعز وفأس الحطاين. ونسب خراب الغابات في فلسطين - وسائر الشام تتصرف عليها - إلى إصدار الخشب والتبن والسماذ إلى

الخارج، وقال: إن الربح من إصدارها لا يوازي خراب الغابات وقلة غذاء الحيوانات وبوار الأراضي بقلة السماد والسباخ.

الأشجار المثمرة وغيرها

وكانوا يتفنونون بتسمية الفواكه والبقول والورود. قال البدرى: والعنب في دمشق فقط أصناف: البلدي، خناصرى، عاصمي، زيني، بيتوموني، قناديلي، إفرنجي، مكاحلي، بيض الحمام، حلواني، بوارشي، جبلي، قصيف، إبزاز الكلبة، قشلميش، كوتاني، عبيدي، شحماني، جوزاني، دراقني، مخ العصفور، عرايشي، رومي، شبيهي، ينطاني، عصيري، رناطي، ورق الطير، سماقي، حرصي، مجزع، شعراوي، دربلي، قاري، علوي، عينوني، مورك، مشعر، مسط، مرصص، محضر، مقوس، حمادي، تفاحي، رهباني، زردي مبرد، مخصل، مغاربي، شحمة القرط. وقسم المشمش إلى أحد وعشرين صنفًا وهي: حموي، سندياني، أويسي، عرييلي، خراساني، كافوري، بعلبكي، لقيس، لوزي، دغمشي، وزيري، كلابي، سلطاني، حازمي، أيدمري، سيني، بردي، مُلُوح، قرط البخاتي، جلاجل القلوع ... إلخ. ووصف العماد الكاتب المشمش الدمشقي فقال: طلعت في أبراج الأطباق كأنها كرات من التبر مصوغة، وبالورس مصبوغة، صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية، حلا منظرًا وذوقًا، ولو نظم جوهره لكان طوقًا، كأنما خرط من الصندل، وخلط بالمندل، وجمد من الثلج والعسل، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس، والتناجي بما في النفوس.

وقال البدرى: ومن خصوصيات دمشق «الطرخون» من بقول المائدة وكان يخرج فيخا السذاب والرشاد وبقلة الحمقاء والماش والهندباء والكرأويا والتوت الأسود والشامي. وكان يكثر فيها الكراز والوشنة وهو

فيها سبعة أنواع. وذكر أن الورد جنس تحته ستة أنواع بدمشق ومنه الجوري والنسريني، والنرجس جنس تحته أنواع منها اليعفوري والبري، والمضعف وذكر منشورها وزنبقها وأذريونها وآسها وحبه وريحانها ونيلوفرها وبانها وخيلانها وزنزلختها وتمر حنائها وقراصيها وكمثرها (ثلاثة وعشرون صنفاً)، وتفاحها ودراقها (ستة عشر صنفاً)، وخوخها (ثلاثة عشر صنفاً) إلى غير ذلك مما كان في القرن التاسع.

الصناعات الزراعية القديمة

وكانت الزهور والورود من أهم فروع الزراعة، وللطيوب والعطور ومستقطرات الزهور، شأن وأي شأن منذ الأزمان المتطاولة. وكان للأقدمين على ما يظهر غرام شديد بالملاب العطر المائع والكباد اليابس، ويستعملون المسك والعنبر والزعفران كثيراً، ويولعون بالعرف والأريجة، وكان لهم طيب يقال له الغالية؛ وهي مسك وعنبر يعجنان بالبان؛ قال ابن سيده: ويقال إن الذي سماها غالية معاوية بن أبي سفيان؛ وذلك أنه شمها من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فاستطابها فسأله عنها فوصفها له فقال: هذه غالية. وقد حفظ لنا شيخ الربوة من أهل القرن الثامن شيئاً من الإشارة إلى كثرة الورد والزهر في دمشق فقال: إن العطر وغيره كان يستخرج في المزة من ضواحي دمشق من زهورها وورودها حتى إن حراقتة تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل، فلا يكون لرائحته نظير ويكون ألد من المسك إلى مدة انقضاء الورد. وذكر صفة إخراجها في الكركات والأنبيق ورسم صورها - والقرع والأنبيق آلتان لصنع ماء الورد السفلى هي القرع والعليا على هيئة المحجمة هي الأنبيق - قال: وغير هذه الكركة كركة أخرى يستخرج منها الماورد وغيره من المياه بلا ماء بوقود الحطب، وذلك بعد حشو القرع بالورد وبلسان

الثور وبزهر النوفر أو البان أو زهر النارنج والشقيق والهندباء أو بورق القرنفل المزروع بدمشق.

قال: ويحمل الورد المستخرج بالمزة إلى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك، وكذلك يحمل زهر الورد المزي إلى الهند وإلى السند وإلى الصين وإلى ما وراء ذلك، ويسمى هناك الزهر. ومما أرخوه أنه كان لقاضي القضاة الحنفية ولأخيه الحريري قطعة بأرض تسمى شور الزهر طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطارًا باثنين وعشرين ألف درهم، وذلك سنة خمس وستين وستمائة وهذا لم يسمع بمثله اهـ.

وكانت حلب في القديم مختصة بماء الورد النصيب الذي يستخرج بالباب من أعمالها قال ابن الشحنة: إنه لا يقاربه شيء مما يجلب إلى الديار المصرية من الشام ولا يدانيه مع أن المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية العظمة بحيث يصفه أطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامي. وينبت في أرض حلب زهر القرنفل وكان يستقطر ماؤه. واشتهرت في القديم زهور لبنان وما إليه من الجبال كجبل الشيخ فإنها كثيرة مبذولة في الربيع شأنها في مراعي الجولان والعمق والبقاع والبقية كما اشتهرت طيوب البلقاء وصموغه وكانت تحمل إلى مصر. وقل اليوم من يلتفت إلى هذه الصناعات الزراعية.

ومن صناعاتهم الزراعية في القديم السكر، وكان يعمل في القديم على ضفاف الأردن ولا تزال معاملته في جنوبي الغور تدعى إلى اليوم مطاحن السكر، وكان السكر أكثر مستغل تلك الناحية يحمل إلى الشرق والغرب. وكان يصنع السكر في أنطاكية وطرابلس وعكا ويافا ويحمل منها إلى الآفاق. قال القلقشندي من أهل القرن التاسع: في الشام يعمل

السكر الوسط والمكرر. وكانت زيوت الشام كخمورها تصدر إلى القاصية. ويعصر السليط - أي دهن السمسم - في دياف من حوران وبه اشتهرت. وكان الصابون الحلبي والنبلسي وغيره مما يفيض عن حاجة القطر يباع منه في الأقطار الأخرى. وكان الجبن الكركي مشهوراً يصدر إلى مصر. وقد قامت الحكومة العثمانية إبان الحرب العامة بعمل بعض المحفوظات والمرببات في دمشق فتعمل الحساء ذروراً ثم يذاب في ماء حار وقت الاستعمال فيأتي كأنه طبخ الساعة واستخرجوا من العظام مرقاً معقماً. وأخذوا يعملون من الثمار والبقول مجففات ومحضرات على طريقة لا تنقص من تغذيتها وتكون عند الاستعمال كأنها طرية حديثة عهد بالقطف من الشجرة أو المسكبة. وبلغ عدد البقول المربية عشرة أنواع كان يتناولها الجندي في كل وقت كأنه على مقربة من الحدائق والمقاتي. واستخرجوا في معامل الفيلق بدمشق أشربة كثيرة من ماء الزهر وماء الورد وشراب قشر الليمون وقشر البرتقال تجعل أرواحها في زجاجات وتكفي القطرة منها كأس ماء؛ لتكون حلوة ذات نكهة تستعمل في أشربة الجيش. ولا سيما في مستشفيات البادية. وبالجملية فقد كان لتعقيم السوائل واستخراج الأشربة وتجفيف الثمار والبقول وخبز الأخباز بالآلات الكهربائية الصحية شأن لم يعهد في الشام ثم تنوسي بعدهم.

ومن صناعاتهم العسل وكانوا يغالون بأكله كثيراً، واشتهر عسل سنير وجبل الثلج كما اشتهر دبس بعلبك وجبنها وزيتها ولبنها، قال ياقوت: ليس في الدنيا مثلها يضرب بها المثل. وكانت بيسان توصف بكثرة النخل، والنخيل مما يجود في الأغوار، وكان كثيراً في القديم والشاميون يعنون بتعهده من وراء الغاية. ويظهر أن العسل والزعفران والدبس والقنود والتمور كانت مما يعول عليه في الأطعمة والحلواء أكثر من اليوم. ولدينا وثيقة في بعض المأكولات ذكرها أبو القاسم الواساني من

شعراء اليتيمة الدمشقيين نظمها منذ نحو ألف سنة في وصف جماعة زاروه في قرية جمرايا على مقربة من الهامة في غربي دمشق، ومما جاء فيها ما أكلوه من الأطعمة وفيه إشارة إلى كثرة أنواع التمر:

أكلوا لي من الجرادق ألفي من ببن^(١) تشتاقه العارضان^(٢)
أكلوا لي أضعافها غير مشطو ر^(٣) مالوا إلى سميد^(٤) الفران
أكلوا لي من الجداء ثلاثي ن قُزِيصًا بالخل والزعفران
أكلوا ضعفها شواء وضعفي لها طيخًا من سائر الألوان
أكلوا لي تبالة^(٥) تبلت عق لي بعشر من الدجاج السمان
أكلوا لي مضيرة^(٦) ضاعفت ض ري بروس الجداء والعقبان
أكلوا لي كشكية^(٧) قرحت قل بي وهاجت لفقداء أشجاني
أكلوا لي سبعين حوتًا من النه ر طريًا من أعظم الحيتان
أكلوا لي عدلًا من المالح المش وبي ملقى في الخل والأنجدان^(٨)

(١) البين: ضرب من الكوامخ، وهي المخللات تستعمل لتشهيه الطعام.

(٢) العارضان: شقا الفم.

(٣) المشطور: الخبز المطلي بالكامخ.

(٤) السميد: بإعجام الدال وإهمالها هو الحواري، أي الدقيق الأبيض.

(٥) التبالة: ضرب من أطعمتهم، والتابل ج التوابل أبراز الطعام، وتبلت عقلي أسقمته.

(٦) المضيرة: مريقة تطبخ باللبن المضير، أي الحامض، وهي أشبه باللبنية أو لبن أمه أو

الشاكرية اليوم.

(٧) الكشكية: طعام يعمل من الكشك (بفتح الكاف) والعامية تكسر كافه يعمل من جريش

الحنطة واللبن الحليب ويترك أيامًا حتى يختمر فيكون منه ذرور يعمل كالحساء ويطبخ

باللحم أو بالزيت وقالوا فيه:

الكشك شيء خبيث محرك للسواكن

الأصل در وبر نعم الجدود ولكن

(٨) الأنجدان (بإعجام الدال وإهمالها): ورق شجرة الحليب.

أكلوا لي من القريشاء^(١) والبر
 ألف عدل سوى المصقر^(٢) والبر
 أكلوا لي من الكوامخ^(٣) والجو
 ومن البيض والمخلل ما تعد
 نبي والمعلقي والصرفان^(٤)
 دي واللؤلؤي والصيحاني
 ز معًا والخلاط^(٥) والأجبان
 سجز عن جمعه قرى حوران

ومن صناعتهم الزراعية صناعة الصابون وكانت من أنجح الصناعات القديمة ومصابنه في حلب وكلز وإدلب وأنطاكية ودمشق وناپلس وطرابلس واللاذقية وحيفا ورام الله وبعض قرى لبنان. وخير الصابون وأشهره اليوم الصابون النابلسي فيه على ما يظهر خاصية ليست بغيره أو أن السر في جودته إتقانه بدون غش. ومنذ أفلتت الصناعات من رؤساء لها تشرف على أعمال أهلها انحطت في دمشق صناعة الصابون، فقد كانت له أماكن خاصة لتجفيفه وكانوا لا يبيعونه إلا بعد ثلاث سنين من صنعه ويصدر إلى أقطار العالم وثمانه يزيد خمسين في المائة على سائر أنواع الصابون، وكنت إذا غسلت به الثياب تجد من رائحتها ما ينعش قلبك من الروائح الذكية، والآن يبيعون الصابون الدمشقي أخضر بدون تجفيف ويزاحمه في عقر داره الصابون الغربي لرخصه؛ وهو مركب من زيوت صناعية على الغالب ليس من الزيت الخالص، وعسى أن يرسل صناع الصابون في نابلس وطرابلس ودمشق وحلب وعكا وحيفا إلى أوروبا من يدرسون المادة التي تدخل الصابون الغربي فتزيد رغوته أخضر كان أو

(١) الجبن القريش كأمير: أي اليابس الشديد كما في التاج، والذي نعرفه أن القريشاء والقريش يعمل من الدر ويختم ويبقى طريًا كالزبد والقشدة.

(٢) البرني والمعلقي والصرفان والبردي واللؤلؤي والصيحاني: ضروب من التمر.

(٣) المصقر: المدبس.

(٤) الكوامخ: المخلات.

(٥) الخلاط: ضرب من المشهيات والمخلوطة طعام من أنواع شتى.

يابسا، يعيدون إلى الصابون البلدي رونقه السالف ويخلصون من النكهة الخبيثة في الصابون الغريب.

معادن الشام وحماها

وخليق بنا وقد انتهى بنا نفس الكلام على ما حوى سطح الرض من الخيرات الطبيعية إلى هذا الحد، أن لا نغفل الكلام على ما حوى بطنها من المعادن والأمواه النافعة. فقد أجمع المتقدمون لأنه كان فيها معادن حديد في لبنان كان قدماء المصريين يحملونها إلى قطرهم، وأجمع المتحدثون الذين بحثوا عن طبقات الأرض وتركيبها على أن الشام خالية من الفحم الحجري وما وجد منه لا يوازي ثمنه ما يصرف في تعدينه، وفي لبنان طبقات القضة Gres فيها فحم خشبي متحجر (لنيت) يمكن استثمارها وفي قرطبا وميروبا والمنيطرة مناجم من هذا الحجر الخشبي، وأشهر طبقاتها الفحم الخشبي المتحجر في قرنايل، وقد صار الاعتناء باستخراجه من سنة (١٨٣٥م إلى ١٨٣٨م)، ومن مناجم هذا الحجر منجم مارشينا وفالوغا وبزبدين وجزين وزحلتا وعين التغرا وحيطورة، ويجوز استخدام هذه المناجم للمعامل الصناعية الصغيرة والحاجات البيتية للوقود.

والفحم الحجري ونظنه من نوع الفحم الخشبي في جبل البشر وأبي فياض شرقي حلب، وذكر ياقوت أن في جبل البشر ويمتد إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية أربعة معادن: القار، والمغرة، والطين الذي يعمل منه بواتق لسبك الحديد، والرمل الذي يعمل منه في حلب الزجاج وهو رمل أبيض كالاسفيداج. وللحجر مناجم في عينبل وخريقة في جبل عامل وفي أرجاء مرجعيون، وأشهرها منجم حاصبيا، كان يستخرج منه في اليوم ٨٠ صندوقا وزن كل واحد منها ١٠٠ كيلو، وكان السلطان عبد

الحמיד الثاني يستثمره لنفسه، وبعد انحلال دولته أهملته الحكومة لقلة اليد العاملة واضطرت أن تهمل معدن سحمر في البقاع وغيره من المعادن في الشام. فأضر إهمال الحُمر بأرباب الكروم فتصاعدت أثمانه وهو يستعمل كل سنة عند تأبيرها فلحقته الدودة من أجل ذلك وقلت مداخيله. وفي التاس بين حمص وتدمر معدن للحمر يكاد يوازي معدن حاصبيا بصفائه. وفي المقارن بين درعا وسمخ مناجم كلس ممزوج بحمر، وكذلك في أرباض تدمر وفي الصلت ووادي اليرموك. قال المقدسي: إن في الشام جبال حمر يسمى ترابها الصنعة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف ويطين به السطوح. ومعدن الحديد كثير في قضض لبنان وأتربته، وعلى سطح الجبال وبطون الأودية، لا سيما في أرجاء البترون وكسروان والمتن وفي قرية دومة وبيت شباب وفي عكار ومشغرة والفرزل ومجاري الأنهار مثل نهر الكلب ونهر إبراهيم. ومن هنا كانت تؤخذ مواد المسابك لمعامل الحديد التي كانت في تلك الأرجاء، والمانع من استثمارها اليوم قلة الوقود؛ أي الفحم الحجري، والحطب لا يفي بهذا الغرض على نحو ما كان الحال إلى عهد قريب.

وأهم مناجم الحديد في برمانا وبحمدون ووادي النهر الكبير حجر الصفار (الكروم) وفي جبال اللاذقية معادن حديد كثيرة وفيها رصاص ممزوج بالفضة وخشب فحمي ونيكل، وكان في القديم في ناحيتي باير وبوجاق معدن حجر الصفار يستخرج منه في السنة ٢٥٠٠ طن ولم يبق له أثر، ويوجد حجر الصفار على شواطئ بحيرية طبرية ومن نوع البيريت واللنيت في برتي وكفر سلوان ومرجبا وفي راشيا وسفح جبل الشيخ الغربي وجنوبي حاصبيا وفي عين اللبوة وعين عطا وشوايا وعين قني والروج والكفير.

والنحاس في قرية اهمج في كسروان وفي الجنوب الغربي من حلب وكان منه في عين جر فأكدى لكثرة ما استخرج منه، وكان النحاس الأحمر يحمل من جبل جوشن على قيد غلوة من حلب. وذكر كاتب جلبي أن في بيت حبرون معدن زجاج يستخرج منه فيحمل إلى الأطراف فيباع ويحمل إلى السودان والحبشة من أسورته ويقاىض عليها بالتبر.

واستثمر معدن الفحم الحجري في مرجيليا في لبنان أثناء الحرب الكبرى لوقود السكك الحديدية واستخرج منه (١٩١٦) ما يقارب ١٣٠٠ طن. وذكروا أن الطبقات الفحمية في لبنان وجدت في نبحا، المراح، كركبا، زحلتا، عبيه، عرمون، جمهور، عين تراز، بحمدون، القرية، رأس الحرف، مرجيليا، بتيات، مارحنا، الكنيسة، عين موفق، قرنايل، جورة أرصون، بزبدین، رأس المتن، ترشيش، جوار الجوز، حيطورا، عين تدجورا، عين زحلتا، صيدنايا، قيتولة، بكاسين، جزين، حمصية، مشغرة، قرطبا، حدث العجة، مزرعة بيت ابن صعب، الديرمان، القنيات. ومنه الرديء الذي لا بال له.

وفي جهات أبو فياض على ٨٠ كيلو مترا من حلب فحم حجري رديء من اللنيت، كما أن منه في جهات حوران وفي قرية عرنة من إقليم البلان معدن الفحم الحجري قيل: إنه لم ينضج وفي حضر من إقليم البلان معادن أخرى براقه. وفي جبال الكرك كثير من أنواع المعادن قصدها مؤخرا كثير من معدني الإنكليز لتحليلها ومعرفة أنواعها. والبترو (زيت الكاز) حول البحر الميت. وفي أرسوس على عشرين كيلو مترا من الإسكندرونة وفي وادي صقلاب من أعمال الكورة في شرقي الأردن وفي المزيريب من عمل حوران وفي أرجاء الإسكندرونة معدن غاز سائل جرى تعدينه فلم يأت بفائدة.

وفي أرجاء طرابلس معدن المغرة ونوع من الصبغ الأصفر ocre
jaune.

ويوجد الكبريت بكثرة في جهات الباروك وفي قرية عنجرة من جبل
عجلون وفي أرجاء البحر الميت وبالقرب من حمة عفرة في الطفيلة
معادن الكبريت والقصدير والبتروول والنحاس وفي رأس العين من عمل
الزور وفي أماكن جبلية عديدة، ولا يصلح للاستعمال لامتزاجه بمواد
غريبة فحمية وحديدية. ويوجد الزاج في حارم، والنيكل ومنه الفاخر في
جبل الأقرع، والفوسفات في جبال السرو بين الصلت وعمان حسب
نفقات استثماره، فرأوا أنها لا تنفي بها وارداته فترك شأنه. والفوسفات
موجود في شمالي يبرود وبعض جهات فلسطين. واليوتاس حول البحر
الميت والأسفلت في جبل الأكراد على ثلاثين كيلو مترًا من اللاذقية (في
قرى كفرية وقصاب وخربة السولاس) ويقال: إنه أغنى منجم عُرف من
نوعه. وكان في مقاطعة جرش في أرض تسمى تلؤل الذهب معدن ذهب
جاء في الكتاب المقدس أن سليمان عليه السلام كان يستخرج الذهب
منها. وفي الجنوب الشرقي من تدمر وفي أرجاء أنطاكية معادن ذهب
ولكنها شحيحة. وتكثر الفضة في جبال اللاذقية وشمالي بعلبك ومصيف
وعلى ضفاف العاصي فيما يلي أنطاكية معدن ذهب ومعدن رصاص فضي
ومعدن إثمّد وحجر الكحل ومعدن فحم ومعدن الطفال المعروف
بالبيلون في أرجاء كلز وأنطاكية، وفي جبال قره موط إحدى نواحي
أنطاكية عدة معادن تستعمل للصبغ وفي جبل بارسال من أعمال كلز
معدن مرمر أصفر.

وكان في قرية يعفور من عمل دمشق معدن فضة قاله شيخ الربوة،
وبأرض حدث من جبل لبنان جوسية فوق كرك نوح يلتقط حجارة زلطفية
تكسر مرقشيشا، وكل معدن مائل باللونية إلى لون ما هو قسمه، وعد

الخوارزمي المارقشيشا من عقاقرهم فقال: ومنها مربع ومدور وقطع كبيرة غير محدودة الشكل وهي ضروب؛ فمنها أصفر يسمى الذهبي وأبيض يسمى الفضي وآخر يسمى النحاسي.

ويوجد الملح في مواضع كثيرة ولاسيما في جهات تدمر وجيرود وحماة والخليل وحوالي البحر الميت. وملح جيرود فيه مرارة وأجوده ملح الجبول. وفي حلب عدة ملاحات وأعظمها ما كان في جوار قرية جبول على شكل مخروطي عظيم لا تطاف أطرافها في أقل من ثماني عشرة ساعة يجمد ماؤها في شهر أيار إلى تشرين الثاني فيكون في هذه الفترة ملحًا، ويسمى هذا النهر نهر الذهب يجري من ناحية باب بزاعا إلى أن ينتهي إلى سبخة الجبول في مساكن يعملها أهل الجبول والقرى المجاورة لها، وكانوا يقولون: إن هذا النهر سمي نهر الذهب؛ لأن أوله بالقبان وآخره بالكيل؛ أي أنه تزرع في أوله الحبوب كالحبة السوداء والأنيسون والكروايا وأنواع الفواكه مما يباع بالرطل، وآخره الملح الذي يباع بالكيل.

ويوجد الزئبق في أرض أنطاكية وغيرها، قال شيخ الربوة: إن معدن الملح الأندرائي كان يستخرج من أرض سدوم عند بحيرة لوط وكيف ما تكسرت حجارته ما تكسرت إلا فصوصًا مربعات الزاويا. ويوجد النحاس في ناحية الصور على نهر الخابور ومعدن السوديوم في البصرة والصور والشدادى والقصبي ويعرف باسم بارود القصبي. والرصاص في أنطاكية والمغرة في جهات حلب وعمان والجبص (الجبسين) في جهات جيرود وصافيتا وعكار وطرابلس.

والرخام الأصفر في جبل الجرمق من عمل صفد وعلى ساعتين من مادبا جبلاان أصفر وأحمر والحجارة الكلسية على كثرة في جميع

الأرجاء، وأهم أنواع الحجارة الكلسية الرملية الحواري والرخام السماقي والجنس المدعو «شحم بلحم» وأجمل المقالع ما كان في جوار حلب وفي جبل باريشا من عمل حارم، وهو رخام أصفر ومن أجملها الحجر المزي وهو يضرب إلى الصفرة يستخرج من مقلع المزة قرب دمشق والحجر المعرباني وهو أحمر يستخرج من مقلع معربا في قلمون، كما يستخرج من مقالع تلفتا حجر هش وهوشديد البياض يعتمدون عليه اليوم في البناء بدمشق لسهولة نحته وتكثر مقالع الحجر الرملي في منحدرات لبنان السفلي وعلى الشواطئ البحرية ولونه أصفر. وجميع البنيان من صور إلى طرابلس مبنية بحجره وهو سريع التفتت سهل النحت لدى خروجه من المقلع ويتصلب في الهواء ويصلح للملاط أكثر من الحجارة الكلسية الجميلة. والحجارة الكلسية ذات تقاطيع زجاجية في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها أبيض كامد تتحول بمرور الزمان بفعل أشعة الشمس إلى شيء من الصفرة الذهبية، ولذلك كانت أبنية حلب وبيروت بهذا الحجر الجميل من أجمل أبنية الشام، واشتهرت الداروم في القديم برخامها قال الرحالة ناصر خسرو: «والرخام كثير جداً في الرملة وجدران معظم الأبنية والدور مغطاة بصفائح من الرخام مرصعة بإتقان ومغشاة بنقوش ورسوم ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له وبرمل تلك الديار، وبالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السواري والعمد كما تقطع الدفوف من شجره. ولقد رأيت في الرملة رخاماً من كل جنس ومنه المجزع (المبقع) والأخضر والأحمر والأسود والأبيض وبالجملة من مختلف الألوان اهـ».

هذا أهم ما في بطن الشام من المعادن، ومهما كانت حالها فهي وافية بحاجة أهلها ولكنها لا تمون أمماً غيرنا كالمعادن المشهورة في العالم بذهبها وفحمها وغير ذلك، ومعادننا تجزئنا إذا استثمرناها بعض الشيء.

الحمامات الشامية

الحمة (بفتح الحاء وتشديد الميم) العين الحارة يستشفى بها الأعداء والمرضى، وفي الحديث: العالم كالحة يأتيها البعداء ويتركها القرباء، فينما هي كذلك إذ غار ماؤها، وقد انتفع بها قوم وبقي أقوام يتفككون - أي يتندمون. فالحة هي ما يعرف اليوم بالحمامات المعدنية تكثر في أرض الشام البعيدة عن الساحل، وأهمها حمامات طبرية على شاطئ البحيرة، تنفع النساء في الأمراض التناسلية وتشفي الأوجاع الحادة المزمنة وأمراض الرثية والقرس والبول السكري وأمراض أعضاء التناسل والمرة والسوداء والتهاب قصبه الرئة المزمن وبعض الأمراض الجلدية وغيرها.

قال أبو القاسم في وصف حمة طبرية: وفيها عيون ملحّة حارة، وقد بنيت عليها حمامات فهي لا تحتاج إلى الوقود تجري ليلاً ونهاراً حارة وبقرها حمة يغتمس فيها الجرب اهـ. ويجري الماء إلى الحمامات من أربع عيون حارة وأهمها ما بناه إبراهيم باشا المصري وهو في الشمال ويعرف باسمه؛ وهو عبارة عن حوض كبير تحيط به عمد قديمة من الرخام وعليه قبة عظيمة، وهي مثقوبة بثقوب أسطوانية يخرج منها البخار ودرجة حرارة الماء ٦٢ بالميزان المئوي وهو صاف براق في الجملة ملح الطعام مَرَّ مهوَّع وتنبعث منه رائحة شديدة من حامض الكبريت أو رائحة بيض فاسد، وهذه الحمامات ملك الحكومة تؤجرها وموسم الاستحمام فيها من أول كانون الثاني إلى آخر حزيران.

ومنها «الحمة» حمة جَدَر في وادي اليرموك على الخط الحديدي عند الكيلو متر ٩٣ و ٩٥ تنفع في أمراض الجلد وغيرها وهي مياه معدنية حارة تنبجس غزيرة وتجري إلى نهر الشريعة، وهي ثلاث حمامات يبعد بعضها

عن بعض بضع دقائق يدعى أحدها «المقلي» أو «حمام سليم» درجة حرارته ١١٩ والآخران «حمام الجرب» وحرارته ١٠٨، أو «حمام الريح» وحرارته ٨٢ بميزان فارنهایت، وعندها آثار الحمامات الرومانية وبقرها ملعب عظيم وهو ملعب جدر المشهورة في الجاهلية والإسلام قال أحد واصفيها: «ولا أبالغ إذا قلت إن معدل قاصديها في شهر نيسان لا يقل عن عشرين ألفاً يقيمون أياماً تحت حر الشمس وهبوب الريح لا بيت يثويهم ولا نزل يكنهم، فإن كان قاصدوها يبلغون هذا العدد وهي قفراء خربة في شهر واحد، فكم يكون عددهم لو تهيأت لهم حمامات منتظمة وأبنية وفنادق وما به تستتب لهم الراحة فيه أبالغ إذا قلت: إنهم يزيدون على المائتي ألف؟».

وحمة زرقا معين في شرقي الأردن تبلغ درجة حرارتها ١٤٢ بميزان فارنهایت والمالح في قرية تياسير في غور الأردن من أرجاء نابلس درجة حرارته ٩٨ ف وحمة أبي ذابلة بجانب فحل وحمة أبي سليم في المهد من أرض صنمة، بقرية سحم الكفارات وحميمة بزور النيص من أرض صنمة أيضاً ودرجة حرارتها فوق ١٠٠ ف، أما حمامات طبرية فدرجة حرارتها ١٤٤ ف وماء حمة جدر عذب جيد الطعم يشرب سخناً وبارداً بخلاف طبرية، وحمة أبي رباح من عمل ناحية القريتين في حمص تنفع في الأمراض العصبية وتصلب الأعضاء والتشنج خاصة، وحمة ضمير في جبل قلمون كبريتية، وحمة أرك في جهات تدمر، وحمة أنطاكية وهي كبريتية وفيها مغنيزيا أيضاً، وحمة إسكندرونة بين حلب وإسكندرونة على الطريق، وحمة جسر الشغر وحمة زرقا معين في الكرك وهي ثلاثة حمامات يستحم المستحمون ببخارها ويقصدها السياح من الفرنج كما يقصدون حمة عفرة من بحيرة لوط، وحمام النبي داود في وادي الحسا. وذكر ابن الشحنة أن في السخنة من أعمال قنسرين خمسة حمامات

ينتفعون بها من البلغم والريح والجرب. وبناحية العمق حمة أخرى، وبكورة الجومة من أعمال قنسرين عيون كبريتية تجري إلى الحمة والحمة قرية يقال لها: جندراس يأتيها الناس من الآفاق فيسبحون بها للعلل التي تصيبهم. قال الغزي: إن في أطراف حمام العمق عدة عيون كبريتية جارة لو جمعت إلى حوض لكانت حمامًا عظيمًا. وفي سنة (١٣٠٠) بنت بلدية حلب على بعض هذه العيون خلوة وصارت تؤجرها.

وذكر شيخ الربوة أن بين حمص وسلمية كهفًا في جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم، فإذا دخل الإنسان ذلك الكهف خيل إليه أنه في الحمام لشدة الوهج وكثرة قطر الماء من البخار المتصاعد من البثر الذي في وسط الكهف ويسمع غليان الماء بقعر البثر، ولا يمكن النظر فيه لشدة البخار الصاعد من البثر، ومن نظر فيه يشيط من الحرارة، ولعله يقصد بذلك حمام أبي رياح، وظهر مؤخرًا على كيلو مترين من قرقرخان من عمل إسكندرونة نبع ماء معدني درجة حرارته ٤٣ فتهافت الناس على الاستحمام به.

هذه أهم حمات أو حمامات الشام المعدنية وأكثرها كما رأيت لا ينتفع بها الانتفاع المطلوب، وحالتها كما عرفت منذ القديم لا نظام فيها ولا أبنية للمستحمين حوالها. وقد عرف من تاريخ الرومان أنهم كانوا يُعنون من وراء الغاية بالحمامات المعدنية، فكانوا يبنون عليها أبنية بحسب مصطلحهم، ولكن لم نر أن العرب في هذه الديار عنوا بشيء من هذا القبيل اللهم إلا إذا كان ضاع عنا خبره لقلة التدوين. ولو أنها وقعت العناية اليوم بحماتنا على النحو الذي ينتفع به بعض الأصقاع التي تنبجس فيها مياه معدنية من إقامة المستحمات والمنازل لنزول طلاب الاستحمام وتديرها تدبيرًا جديدًا مرفهًا صحيًا لكان منها منافع كثيرة لأبناء السام ومورد أرباح لها تأتي من ألوف من الغرباء والقرباء يقصدونها للانتفاع بها

ويصرفون في جوارها أيامًا وشهورًا يجعلون عليها مقاصير للتغميز والتمسيد، وأخرى للتعريق، وغيرها للتبريد، وفنادق فيها شروط المدنية الحديثة، وحدائق وغابات تغرس بالقرب منها تحسن المناخ وتجميل المناظر الطبيعية

نظرة في الفلاحة الشامية الحديثة^(١) أقاليم الشام

أولاً: لا تقل حرارة غور الأردن عن مثلها في بعض الممالك العربية الحارة كالعراق ومصر. ففي إحدى السنين كان معدل الحرارة السنوي في طبرية ٢١/٧٠ درجة وهو لا ينقص عن ٢١/٥ درجة، وقد يبلغ أكثر من ٢٢ درجة لا سيما في مناطق الغور الجنوبية. ولما كانوا يحسبون معدل الحرارة السنوي في القاهرة ٢١/٥ درجة، وفي بغداد ٢٢/٨ درجة كانت حرارة الغور كافية لنمو كثير من الزروع والأشجار التي أغنت مصر وستغني العراق وأعظمها شأنًا القطن. ويفضل إقليم الغور أقاليم مصر والعراق في أن أمطاره قلما ينقص ارتفاعها في السنة عن ٣٠٠ ميليمتر، ولهذا يمكن زرع الحبوب الشتوية فيه عذياً، على حين لا يستطيع ذلك في مصر وفي معظم العراق لقلّة الأمطار فيهما.

ثانياً: ليست سواحل الشام أنقص شأنًا من الغور من الوجهة المذكورة فمعدل الحرارة في حيفا ويافا وبيروت قلما يقل عن ٢٠.٥٠ درجة، ولهذا يوجد في الساحل كثير من النباتات التي تتطلب حرارة عظيمة كالقطن مثلاً؛ لكنه لا بد من إسقائه في كلا الإقليمين.

(١) كتب الفصل التالي الأمير مصطفى الشهابي.

أما السهول ففي بعضها من الحرارة ما يكفي لنجاح القطن وهي التي لا تعلو كثيرًا عن سطح البحر مثل مرج ابن عامر وسهل الغاب شمالي حماة وسهل العمق وإدلب، ويجب الري إلا في إدلب والعمق؛ أما في السهول المرتفعة كالغوطة وحوران والبقاع فالقطن ينتج محصولًا متوسطًا إلا أنه لا يجد من الحرارة ما يكفي لتفتح كل ثماره. ولهذا قد لا يأتي زرعه فيها بفائدة من الوجهة الاقتصادية، والواجب أن لا يحل القطن مكان القنب في الغوطة مطلقًا. هذا ومن العث البحث في زرع الأقطان في إقليم الجبال كسهل الزبداني وسفوح سنير وغيرها؛ لأن نصف ثماره لا يتفتح هنالك لقلّة الحرارة. هذا ومن العث أيضًا البحث في تعميم زرعه في سهول البلقاء وحوران ووادي العجم وحمص وحماة وحلب الشرقية في البعل من الأراضي؛ لقلّة الأمطار السنوية واختلاف مجموعها بين سنة وأخرى وإن نجحت زراعته بلا ري في بعض قرى حوران كقرية الحراك في وادي الزيدي ضربت مثلًا بها؛ لأنها مجتمع مياه أرضية وحالة كهذه لا تصلح للقياس.

ثالثًا: ليست مقادير الأمطار واحدة في مختلف مناطق الشام؛ فأغزرها في السواحل دائمًا. فقد دلتنا قوائم رصد الجو في مرصد الجامعة الأمريكية في بيروت على أن ارتفاع الأمطار السنوية فيها لا يقل عن ٧٠٠ ميليمتر في أكثر السنين، وأنه يبلغ ٩٠٠ ميليمتر أحيانًا وهو رقم كبير. وتثبت أن ارتفاع الأمطار في حيفا ويافا يزيد على ٥٥٠ ميليمتر في أكثر السنين. وهكذا في باقي سواحل الشام، وفي المناطق القريبة من الساحل. أما السهول الداخلية وهي أعظم المناطق شأنا وأغناها تربة وأوسعها مساحة، فارتفاع أمطارها يختلف بين ٢٠٠ و ٥٠٠ ميليمتر في السنين العادية. ولما كان ارتفاع المطر الضروري لتكوين محصول متوسط من الحبوب الشتوية لا يقل عن ٢٥٠ ميليمتر اتضح أن متوجات الحبوب في

تلك السهول تختلف اختلافاً كبيراً من سنة إلى أخرى، تبعاً لمقادير المطر المنهمر ولتواريخ هطله في خلال السنة. وأمطار غوطة دمشق قليلة، فقد قسيتها بنفسها خلال عشر سنين متتابعة، فرأيت أنها لا يبلغ ارتفاعها ٢٥٠ ميليمتراً في أكثر هذه السنين، وكان ارتفاعها دون مائتي ميليمتر في ثلاث سنين. فالغوطة إذن كالواحة كادت تكون صحراء لا تصلح للزراع، لولا بردى والأعوج ومشتقاتهما التي قلبتها جنةً ناضرة.

رابعاً: لا يسقط الثلج في إقليم الغور ولا تهبط الحرارة إلى الصفر. ويندر هبوطها إلى الصفر في السواحل؛ أما في السهول الداخلية فلا تهبط لأوطاً من عشر درجات تحت الصفر في السنين الاعتيادية ويندر هبوطها إلى هذا الحد. لكن لكل قاعدة شواذ ففي شتاء سنة (١٩٢٤-١٩٢٥) وكانت سنة قحّ شديدة هبطت الحرارة إلى ١٥ درجة تحت الصفر في دمشق و٢٠ درجة تحت الصفر في سلمية. ودام الصقيع عدة أيام فأتلف الأسباناخ والملفوف والسلق والمقدونس والبيقية والحلبة والفلو وغيرها من البقول، كما أتلف براعم التين والرمّان وأغصان الليمون والبرتقال وبعض ورق الزيتون. وباد كثير من الأزهار والرياحين وأشجار التزيين كالمنثور والكافور والسنت والفلفل الكاذب والخروع والكزورينا وغيرها. أما الحنطة والشعير والشمش والتفاح والكمثرى والدراق والخوخ والصنوبر والسرو والازدارخت والصفصاف والزيزفون والورد فقد قاومت فلم يمسهما الصقيع بأذاه.

وأضر مما ذكر هبوط درجات الحرارة إلى ما تحت الصفر بضعة أيام في أوائل نيسان من سنة ١٩٢٥ فتلف أكثر من نصف محصول المشمش في الغوطة، واسودت أفنان الجوز، وبادت نباتات الخيار والكوسى والبنادورى البكيرة، فعاد الزراع إلى بذر بذورها ثانية. ولقد ذكرنا هذه

الأحداث لأن الطاعنين في السن من أرباب الفلاحة لم يرو شيهًا لها منذ ثلاثين سنة ونيف.

خامسًا: ليس لبناء التربة في الشام كبير تأثير في إمكان غرس الشجر أو عدمه في إحدى المناطق؛ بل العامل الأقوى هو الإقليم، وذلك أن الأمطار تهطل في الشام خلال شهور معلومة ثم يعقب المطر ييوسة تدوم بضعة شهور، وتكون الرياح شديدة، والحرارة زائدة، في شهور الييوسة، ومهما كان ارتفاع المطر السنوي كبيرًا حتى في سواحل الشام فكثير من أشجار الفاكهة لا يعيش بهناء عذيًا، بل لا بد من إسقائه كالبرتقال والليمون والتفاح والكمثرى والمشمش والخوخ، وليس السبب في ذلك قلة مجموع الأمطار السنوية بل انحباسها منذ أواخر الربيع وطول فصل الصيف وأوائل الخريف؛ فأمطار باريز مثلاً لا تزيد في السنة على أمطار بيروت أو أمطار طرابلس؛ لكن المطر في باريز يهطل في كل شهور السنة تقريبًا فتنمو الأشجار المذكورة دون ري على العكس من حالتها في الشام.

ومن الشجر ما يعيش بلا إسقاء في جميع مناطق الشام الغربية كالزيتون والكرمة واللوز والتين والرمان والفسق والآس والزعرور والعتاب. أما مناطقها الشرقية فمنها ما يصلح دون ري للكرمة واللوز والزيتون كشرقي العاصي إلى جبال الشومرية وكالجولان وهوران وجبل حوران وعجلون والبلقاء، ومنها ما أمطاره من القلة بحيث أن الأشجار عمومًا لا تنجب فيه بلا ري، كالغوطة والمرج وشرقي سنير (منطقة القريتين) وبادية الشام. وينمو الكرم واللوز بلا ري بعد أن يكبر في القرى الشرقية من منطقة سلمية والحمراء؛ أي أن المطر في تلك المنطقة وحالة المياه الأرضية هما بحيث لو سقي الكرم سنتين أو ثلاثًا حتى تضرب جذوره في التراب، لأمكن بعدها أن يعيش بلا ري.

واختلاف الأقاليم في الشام يجعل هذا القطر صالحًا لزراعة متنوعة، وغرس أشجار شتى، فالغور والساحل للقطن والنخل والموز والقشطة والبرتقال والليمون والزيتون، والسهول للحبوب والزيتون واللوز والمشمش والخوخ والكرمة، والجبال للتفاح والكمثرى والكرز، وتقل الأصقاع التي تحوي كالشام أقاليم عديدة في مساحات ضيقة، وليس في العالم بلد غيرها يستطيع فيه الإنسان أن يصعد إلى ارتفاع ٢٨٠٠ متر فوق سطح البحر بعد أن يكون في أعماق من مائتي متر من هذه السوية، وذلك بقطع مسافة لا تزيد على ٦٥ كيلو متر، هذا شأن الذي يكون في البطيحة أو التابغة على شواطئ بحيرة طبرية مثلاً ويريد الصعود إلى قمة جبل الشيخ فهو يعتلي ثلاثة آلاف متر بقطع تلك المسافة الصغيرة.

أتربة الشام

كثيراً ما نسمع أن الشام قطر زراعي محض وأن تربتها من أخصب الأتربة، فما معنى ذلك وما هو مبلغه من الصحة؟ أما كون الشام محض أرض زراعية فلأنها لا كبير منتج فيها سوى منتجات الأرض فهي إذا لم تقس بغيرها تعد قطراً زراعياً ذا شأن كبير؛ أما إذا قسناها ببعض الممالك الأوربية حيث الأرض خضراء دائماً، والمحاصيل كبيرة بسبب كثرة الأمطار في كل فصول السنة، أو لو قيسنا بينها وبين بعض الأقطار التي فيها أنهار عظيمة تسقي بمياهها ملايين من الهكتارات كمصر اليوم وعراق الغد؛ إذن لوجدنا أن الشام ليس لها شأن عظيم حتى من وجهة الزراعة؛ لأنها ما برحت ولن تبرح أرض حبوب شتوية كالحنطة والشعير تنتج بالقليل من المطر الذي يهطل فيها. أما الأشجار المثمرة والأقطان والخضر فمقامها في الدرجة الثانية لما تتطلبه من الري على حين لا تروي أنهار الشام مساحات واسعة على ما سيجيء ذكره. ونقول لمن جعلوا ديدنهم التنويه بأن الشام من أعظم الأقطار التي تنتج أقطاناً أنهم مدفوعون

إلى دعايتهم هذه بعوامل سياسية؛ لأن القطن في الشام لا يمكن أن يكون له المقام الأول بين الزروع ما دامت معظم سهول هذا القطر لا تروى إلا بما تجود به السماء من المطر القليل الذي يكاد لا يكفي لحياة الحنطة والشعير. ويجب أن لا يتخذ القطن الإدليي مثلاً لأن صنفه من أردأ الأصناف، ولأن منطقة إدلب وأشباهها ليست سوى جزء صغير من سهول الشام الواسعة الأرجاء. وقولي هذا لا ينفي كون زرع القطن مفيداً اقتصادياً في كل مكان يستطيع أن ينجب فيه. فمما تعيننا معرفته أن الأمكنة التي يستطيع أن ينجب فيها صغيرة إذا قيست بمجموع أراضي الشام الزراعية.

ولئن لم تجعل الطبيعة للشام حظاً كبيراً من المطر والأنهار التي تستطيع أن تروى مساحات واسعة، فلقد جادت عليه بترية من أجود الأتربة، وهاك خلاصة ما تجب معرفته:

أولاً: تراب أهم سهول الشام طيني كلسي (أكثر قرى حوران والغوطة وسهول سلمية وحمص وحماة وبساتين حارم إلخ...) وتراب بعضها طيني رملي (بعض قرى الغور والبقاع... إلخ). وتراب بعض آخر رملي طيني (بعض قرى الساحل والسهول الشرقية القريبة من البادية). ومن المعلوم أن بناء هذه الأنواع الثلاثة يعد جيداً لا سيما الأول منها.

أثماً من حيث غنى أتربة الشام بالعناصر الغذائية، فقد كشف التحليل عن أن معظمها غني بالحامض الفسفوريك والبوتاس؛ أما الآزوت (نيتروجين) فمقداره كبير في بعض المناطق كالغور مثلاً، وكاف في أكثرها، وقليل في بعض المناطق التي أنهكها الزرع المتتابع دون مدّ الأرض بالسماذ.

ويفيد أن أذكر كلمتين في الطبقات والأدوار الجيولوجية التي تنتسب إليها أهم المناطق الزراعية فأقول:

الأرض البركانية: إن أتربة حوران وجبل حوران واللجاة والجولان والبطيحة وجبل المانع والصفاء وغربي العاصي بين حمص وحماة... إلخ هي أرض بركانية (بزالتيّة) متكوّنة من اندفاعات البراكين.

الأرض الطباشيرية: هي أوسع الأرضين في الشام وإليها تنتسب معظم جبال لبنان وسنير وحرمون وعجلون والكرك والصلت وسهول البلقاء وجبل نابلس وتدمر... إلخ.

الأراضي المنسوبة للدور الثلاثي: منها معظم جبل العلا الواقع بين حماة وسلمية، ومنها جنوب البقاع بدءاً من مجدل عنجر وسهل متسع حوالي حلب وسواحل فلسطين وقمة جبل قاسيون في دمشق مع امتداده نحو قرية القطيفة، وقسم كبير من قلمون وقسم من الجبل الأبيض بالقرب من تدمر، ومساحة واسعة حول شواطئ الفرات بعد الراسبات الرباعية... إلخ.

الأراضي المنسوبة للدور الرباعي: في الشام كثير من الطبقات الأساسية سترت براسبات من الدور الرباعي، وأكثر ما تكون الرواسب في السهول كالبقاع والغوطة والمرج ومرج ابن عامر وسهل الرملة ولذّ وسهل عكار وعلى طول الفرات... إلخ.

حراج الشام

إذا رجع المرء إلى كتب الأقدمين يرى أنه كان للحراج في الشام شأن وأي شأن، وأهم أشجار هذه الحراج ومواقعها ومساحتها لعهدنا هذا، على وجه التقريب:

أشجار الحراج: أعظمها شأنًا أشجار البلوط، وهي على قسمين؛ قسم يظل مكتسبًا أوراقه في الشتاء وآخر تسقط أوراقه فيه؛ فمن الأول السنديان والبلوط الأخضر وهي أشجار صعبة المراس جبارة تعيش في الساحل وتعلو مع مختلف المناطق إلى ألف متر عن سطح البحر، ومن الثاني الملول والبلوط المسمى عفصًا. ولأشجار الصنوبر شأن لا يفوقه سوى شأن البلوط، وأهمها الصنوبر المثمر وهو يشاهد في الساحل وفي المناطق التي لا يزيد علوها على ألف متر عن سطح البحر، ويغرس في لبنان (حمانا، برمانا، بيت مري، بكفيا... إلخ) لأن خشبه وثماره مرغوب فيها. ويليه الصنوبر الحلبي وهو الأكثر شيوعًا يعيش في كافة الأقاليم الزراعية حتى في ارتفاع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر. ومنه حراج ملتفة في عكار والضنية وقزل طاغ، ويستخرج منه القطران ويستعمل في الدباغة.

ومن أشجار الفصيلة الصنوبرية التي تشاهد في غابات الشام السرو والتنوب أو الشوح وهو يكثر في الجبال الشامخة حيث يختلط بالأرز ثم العرعر والدفران والأرز وجميعها تعيش في الجبال العالية.

وكثيرًا ما يعثر المرء في غابات الشام على أشجار مثمرة برية مثل الكمثرى والزعرور والخوخ والسدر والزيتون والخروب وغيرها، كما يشاهد أشجارًا مختلفة كالبطم في البلعاس والدلب على شواطئ الأنهار

واللبنة أو الأبر في لبنان ووادي التيم والعجرم وهو مبذول والغار في غور الأردن... إلخ.

مواقع الحراج: إذا سرنا اليوم من شمال الشام إلى جنوبها نرى الغابات الآتية:

أ- حراج السفح الممتد بين سلسلتي جبال اللكام مساحتها نحو ١٠٠٠٠ هكتار (الهكتار عشرة آلاف متر مربع)، وأهم أشجارها البلوط والصنوبر الحلبي ويليها الأبر والأشجار المثمرة البرية. وفي منحدرات الجبال مثل هذه المساحة تقريبًا مكسوة بالشجر لكن حالة شجرها سيئة.

ب- حراج كرد طاغ وتمتد من راجو إلى الحمام، ومساحة الشجر الملتف فيها ألف هكتار تقريبًا وأشجارها السنديان والصنوبر الحلبي. ويلحظ أن فأس المحتطين لا تكف عن العمل بها، وأن أضعاف هذه المساحة كانت فيما مضى حراجًا جميلة.

ج- حراج رأس الخنزير (قزل طاغ). أهم شجرها الصنوبر الحلبي وأنواع البلوط، تبلغ مساحة ما تلتف أشجاره منها نحو ١٥٠٠٠ هكتار إلا أن ضعف هذه المساحة كانت غابات ملتفة، فإذا هي اليوم جرداء أو فيها أشجار حقيرة متفرقة. ويصنع القطران من صنوبر هذه الحراج في أرسوس وأنطاكية.

د- حراج الأردو والباير والبسيط: مساحة القسم المكتسي بالشجر اليوم ١٠٠٠٠ هكتار تقريبًا. وأهم شجرها الصنوبر الحلبي وأنواع البلوط ويليها الدلب فيما انخفض من الأرض. ويجب الاحتفاظ بهذه الغابات من عيث الماشية؛ لأن بعض أشجارها بدأت تلتف.

هـ- حراج العمرانية: شجرها السنديان والملول وقليل من الصنوبر الحلبي ومساحتها ٢٠٠٠٠ هكتار تقريبًا، ويلاحظ أن أكثر أشجارها الباسقة قطعت إلا في الماقع الكبيرة الانحدار التي يشق الوصول إليها، فإن أشجارها لا تزال باسقة. ومن المؤسف أن القطع لا يزال متواصلًا في هذه الحراج لنقل الحطب أو لصنع الفحم ونقله إلى حماة وحمص.

و- حراج عكار والضنية: هي من أجمل الغابات وأهم شجرها السنديان والملول ويليهما الصنوبر الحلبي والسرو والعرعر والأرز، ومساحتها ١٠٠٠٠ هكتار على وجه التقريب.

ز- حراج الهرمل وإهدن وتورين، تبلغ مساحتها نحو ٥٠٠٠ هكتار.

ح- حراج الصنوبر في لبنان: زرع اللبنانيون كثيرًا من بزور الصنوبر المثمر وغرسوا كثيرًا من غراسه فتكوّن منها حراج جميلة تشاهد في كثير من قرى لبنان، أما حراج الأرز القديمة فقد أتت عليها أيدي الجهل وبعض بقاياها في الباروك.

ط- حراج البلعاس: يقع جبل البلعاس على نحو خمسين كيلو مترًا شرقي سلمية وفيه أشجار قديمة من البطم لعبت بها أيدي البدو والمحتطين الذين يأتون بمركباتهم كل يوم من سلمية إلى البلعاس فيقطعون الشجر ويبيعون الحطب في سلمية وحمص وحماة على بعد المسافة. وقد أكد بعضهم من بدو وحضر وبعض الضباط الذين اخترقوا البلعاس مرارًا أن مساحته تبلغ ٣٠٠٠٠ هكتار تقريبًا، وأن الشجر متفرق في أكثر أقسامه لكنه يلتف في بعض المواقع.

ي- حراج عجلون: هي من أوسع حراج الشام وأجملها. أشجارها السنديان والملول والصنوبر والحلبي وغيرها. وفيها مواضع أشجارها ملتفة وأخرى أنهكها القطع.

هذه هي أهم غابات الشام، وثمة غابات ومحتطبات لا كبير شأن لها اليوم لما لحقها من الأذى بسبب انكباب الإنسان على قطعها أو عيث الماشية بها، مثل غابات بعلبك وسنير وجبل الشيخ والقنيطرة وصفد والناصرية والكرمل والصلت وغزة وغيرها. وكانت الحكومة التركية خلال الحرب الكبرى (١٩١٤-١٩١٨) تأمر بقطع الشجر بلا روية لاستعماله بدلاً من الفحم الحجري الذي كان يعوزها.

الري في الشام

يروى اليوم في الشام (عدا فلسطين وشرقي الأردن) مساحة تقدر بنحو ٧٧٠٠٠ هكتار على وجه التقريب، وأهم المناطق التي تروى هي الغوطة والمرج اللذان يسقيان من بردى والفيجة والأعوج ومشتقاتهما ومن قُني موضعية. وتقدر المساحة التي تروى من هذا السهل الواسع بنحو ٢٥٠٠٠ هكتار، ويسقى في وادي العجم من نهر الأعوج نحو ٥٠٠٠ هكتار، ويسقى في حمص بمياه القناة التي تشتق من بحيرة حمص بساتين واسعة، وفي الزبداني سهل يبلغ ١٢٠٠ هكتار يروى من أنهار صغيرة وينابيع. ويسقى في القنيطرة والزوية نحو ٢٠٠٠ هكتار لا سيما في البطيحة وشمالي بحيرة الحولة إلى الشرق. وفي حماة نواوير لا يقل عددها اليوم عن ثمانين ناعورة تبدأ بين حمص وحماة وتمتد شمالاً إلى العشارنة وتسقي نحو ١٥٠٠ هكتار. وفي سلمية والقرى التي في تلك المنطقة قنوات عديدة قديمة دائرة أخذ الأكارون منذ بضع سنوات

يكرونها ويعيدونها إلى سالف عهدا وزفي جيروود والنبك ويبرود ودير عطية والقرى المجاورة لها قنوات وينابيع تسقي ٢٥٠٠ هكتار تقريباً.

وفي لبنان نحو عشرة آلاف هكتار من الأرض التي تروي، أهمها ١٢٠٠ هكتار تقريباً فيها من شجر الليمون والبرتقال في طرابلس، ويتلوها بساتين واسعة حول بيروت وصيدا وصور ورأس العين والهرمل وبعبك وبعض قرى البقاع ... إلخ.

ومما يسقى سهل عكار والبقية وحول اللاذقية وبعض أرض العمق وأرياض أنطاكية ومدينة حلب والإسكندرونة. أما في جنوب الشام (فلسطين) فأعظم الأرض شأناً ما يسقى شمالي بحيرة الحولة حيث نهر الحاصباني والبناسي واللدان أي أصل الأردن. ثم الغوير ومجدل طبرية ثم ييسان وما حولها مما يسقى من نهر الجالوت ثم سهل عكا ثم ضواحي مدينة يافا حيث يسقى نحو ٢٠٠٠ هكتار من شجر البرتقال والليمون بواسطة آبار ترفع مياهها بالمحركات.

ومما يستطيع إسقاؤه من الأرض في المستقبل إذا وجد رأس المال الكافي للقيام

بأعمال عظيمة للري، حتى لتبلغ مساحته ضعفي المساحة التي تسقى اليوم وربما إلى ثلاثة أضعافها، الأراضي الواقعة حول النهر الأسود عند مصبه وحول نهر عفرين وسهل العمق نحو (٢٠٠٠٠٠ هكتار) وسهل الغاب الممتد شمالي قلعة شيزر (سيجر) نحو (٦٠٠٠٠ هكتار)، والسهل الواقع شرقي جسر الشُّعْر والسهل الممتد بين صيدا وصور وحول بحيرة الحولة وأرض واسعة في الغور بين بحيرة طبرية وبحيرة لوط ... إلخ.

زروع الشام وأشجارها

نذكر هنا بإيجاز أهم ما يزرع في الشام من الحبوب والبقول والنباتات الصناعية وما يغرس من الشجر المثمر، ثم ما ينبت لنفسه من النباتات الطبيعية المفيدة.

الحبوب: أهمها الحنطة، فالشعير، فالذرة الصفراء والبيضاء، فالأرز، فذرة المكناس.

الحنطة: أعظم الزروع شأنًا وأغزرها محصولًا وأعمها انتشارًا. يقدر ما نتج منها في سنة (٩٢٢) ب ٣٤٥٨٠٠ طن (الطن أربعة قناطين) في الشام عدا فلسطين وشرقي الأردن، وأشهر أصنافها الحورانية والبياضية والبيرودية والبقاعية والحمارية والنورية وحنطة عين غرة والدوشانية والشلمونية والهيثية؛ فالحورانية تعرف بساق متوسطة وسنبلة غليظة كثيفة مربعة ذات سفا لونها إلى سمرة وحب سمين قاس إلى حمرة، وهي أجود الأصناف وأعمها، تزرع في حوران ووادي العجم وفلسطين والبلقاء وحلب، وبالاختصار في كل أنحاء الشام على درجات متفاوتة، أما موطنها الأصلي فحوران، وللحنطة البياضية سنبلة بيضاء طويلة ويرة نصف فرقة ذات سفا، وحب أبيض سمين مكسره نصف دقيق، وهذا الصنف يزرع في الغوطة والمرج ووادي العجم خاصة.

وللقمح البيرودي ساق طويلة صلبة ثخينة نصف فارغة، وسنبلة مستطيلة كثيفة ذات سفا، وحبات ضاربة إلى البياض مكسرها قرني. وهذا الصنف يزرع في دومة وقلمون. وللحنطة البقاعية سنبلة دكناء إلى سواد، وحب إلى سمرة وهي تزرع في البقاع. أما القمح الحماري فهو يزرع في

حمص وحماة وما جاورهما. وأما النورسي فيزرع في فلسطين وهو يعرف بسنبلة مستطيلة ذات سفا، وحبّات مستطيلة حنطية إلى حمرة.

وقمح عين غرة أشهر الأنواع في الغوطة، وله ساق طويلة فارغة، وسنبلة سمراء متوسطة الكثافة ذات سفا إلى سواد، وحب سمين طحيني اللون؛ أما الدوشاني فله سنبلة فرقة طويلة لا سفا لها، وحب أبيض ثخين، وهو يزرع في البقاع وبعلبك وفي الغوطة على الندور. ويزرع السلموني في الأمكنة الجبلية ويعرف بسنبلة مستطيلة فرقة ذات سفا، وحب مستطيل ذي مكسر دقيق. والقمح الهيتي من الأصناف التي تزرع في الكرك والبلقاء، وسنبلة ذات سفا، وحب حنطي إلى حمرة. وقد جرب على القمح الطلياني في الغوطة فأتى بأحسن محصول.

الشعير: هو في الشام أشهر الزروع بعد الحنطة وأكثرها منتوجاً، وقد قدرت غلاته في سنة (١٩٢٢) بنحو ١٨٢٥٠٠ طن في الشام عدا فلسطين وعبر الأردن. وهو على صنفين العربي والرومي؛ فالعربي ساقه قصيرة فارغة وسنبلة على صنفين وهي مستطيلة ذات سفا طويل، وحباته أقل غلظة من حبّات الشعير الرومي، ينضج قبل الرومي وهو أشهر منه ولا يتطلب مثله أرضاً غنية. أما الشعير الرومي فسوقه غليظة فارغة يتخللها عقد ملائنة وسنبلة على ستة صفوف، وهي متوسطة الطول كثيفة ذات سفا. يكثر هذا الصنف في الغوطة والمرج وهو يتطلب أرضاً غنية مسمدة.

وتزرع الذرة الصفراء في أنحاء الشام في الأرض التي تسقى، أما الذرة البيضاء فتزرع عذياً في أنحاء فلسطين وفي عجلون لا سيما في مرج ابن عامر. وأما الأرز فيزرع في الحولة وهو قليل الشأن. ومن حبوب الفصيلة القرنية الشائعة ما تُعلفه الماشية كالبيقية والجلبان والكرسنة والحلبة. ومن الكلاً الفصفصة وهي ذائعة في الأماكن التي تسقى.

البقول: لا تعيش أكثر الخضر والأبازير بلا ري في أقاليم الشام كافة، ولهذا يستدل من وجودها في أرض على كونها مما يمكن إسقاؤه. وأنواع الخضر التي تزرع كثيرة جدًا وكلها تستهلك في القطر.

الزروع الصناعية: أشهرها القنب والقطن والسسم. أما الكتان والنيلة والحناء والخشخاش والخروع فليست ذات بال في الشام؛ فالقنب يزرع في الغوطة وفي حلب، لكنه في الغوطة أعظم شأنًا، إذ تقدر فيها مساحة الأرض التي تزرع قنبًا بنحو ألف هكتار في كل سنة، أما في حلب فقلما تزيد على مائتي هكتار. وزراعة القنب رابحة لأسباب شتى أهمها كون هذا النبات لا يتطلب عنايات غير التعطين بعد قلعها، وكونه في مأمن من الأمراض والحشرات حتى إن الماشية لا تأكل ورقه. وقد ألف إقليم الغوطة الوسطى وصار من زروعها الأساسية التي لا يرجح عليها سوى أشجار الفولكه. ومن الغلط الفاحش أن يقوم بعضهم فيبحث في استبدال القطن به؛ لأن للقطن أقاليم غير إقليم الغوطة، ولأنه تصيبه عاهات لا تصيب القنب. هذا عدا العنايات التي تستلزمها زراعة القطن مما لا لزوم له في زرع القنب.

القطن: يمكن زرع القطن بلا ري في الشمال كم منطقة إدلب ودانة وريحا حيث قدر ما ينتج منه سنة (١٩٢٣) بنحو ١٣٠٠٠ بالة. وقد علمت أنه نتج هنالك وفي باقي المناطق التي يزرع القطن فيها نحو ١٥٠٠٠ بالة في سنة (١٩٢٥). ولكن للقطن الذي ينتج في البعل من أرض منطقة إدلب شعر غليظ مجعد وهو لا يصلح إلا للمنسوجات الغليظة، ولهذا لا يباع إلا بنحو نصف ثمن القطن المصري عادة؛ أما الأقطان المصرية فلا تنجب إلا في الأرض التي تسقى.

السّمسم: زرع السّمسم شائع في فلسطين وعجلون ولا سيما مرج ابن عامر حيث ينجب في الأرض البعل كالذرة البيضاء، ويزرع منه قليل في الغوطة ووادي العجم وهناك يكون زرعًا مسقيًا. والغاية من زرعه استخراج زيت الشيرج المعروف من بزوره وتتكون أثناء عصر هذه البزور مادة الطحينة المعلومة.

المنتوجات الطبيعية: تُنبِت الطبيعة في بعض الأرجاء نباتات طبيعية لها شأن في اقتصاديات البلاد مثل السوس والكمأة؛ فالسوس ينبت في سهل العمق وجسر الشجر حيث أجود عروقه، ثم في أنطاكية والباب ومنبج ودير الزور والسويدية وكلها في الشمال. وينبت أيضًا في الغوطة والمرج، ويقدر ما يقتلع من عروق السوس في الشمال بنحو عشرة آلاف طن كل سنة، وكلها تنقل إلى إسكندرونة حيث تسحق وتشحن إلى أميركا خاصة. أما في الغوطة والمرج فيقتلع نحو ألف طن سنويًا. وفوائد عرق السوس عظيمة وهو يضاف إلى عدد كبير من الأدوية ويصنعون منه في دمشق شرابًا سكريًا لذيذًا يزيد الإدرار.

وليس للكمأة مكانة السوس وهي لا تكثر إلا في السنين الغزيرة الأمطار. وتنبت في قلمون وجيرود وكثير من القرى الشرقية القريبة من البادية. ويختلف مقدار ما يرد منها إلى المدن باختلاف السنين.

الأشجار المثمرة

أسماءها مكانة الزيتون فالكرم فالبرتقال فالليمون فالشمش فالتين فالفسق فالحوز، أما باقي الأشجار فتأتي في الدرجة الثانية وأنواعها كثيرة مثل التفاح والكمثرى والخوخ واللوز والرمال والدراق والسفرجل والموز والنخل والآس والصبار والتوت والعناب والخروب... إلخ.

الزيتون: أفضل الشجر وأعمه في مختلف المناطق، وهو يكثر في جزين والمختارة والشويفات وزغرتة والكورة، وفي الغوطة والمرج، وضواحي طرابلس وفي طرطوس وصافيتا وجبله واللاذقية والباير وفي أرباض أنطاكية، وفي السويدية والقصير وكردطاغ، ويقل حول حلب والباب وسلقين وإدلب. وقد اشتهر في الجنوب زيت الرامة كما اشتهر زيتون جبال نابلس والقدس وسهول لدّ والرملّة. وينجب الزيتون في البعل من الأرض ولا يسقى إلا في الغوطة والمرج وفي القرى القريبة من البادية. وأصنافه كثار أشهرها في دمشق الدان والأخضر (أو المصعبي) والجلط والتفاحي. وأشهرها في لبنان السوري والشامي والمصري والشتوي والعيروني وبيض الحمام والبلدي، وأعمها في اللاذقية الخضيرى والطمراني وقلب الطير. وفي الإسكندرونة القرمانى والخلخالى والرماني والتفاحي... إلخ.

فالدان أنفع الأصناف بدمشق وأغناها زيتاً (١٨-٢٠ في المائة) يستخرج الزيت منه وقلما يؤكل أخضر أو مكبوساً. يبلغ طول ثمرته ٢٠ ميليمتراً وعرضها ١٣ ميليمتراً وهي تسود بعد أن تنضج. وشجرة الزيتون الأخضر أو المصعبي كبيرة أحد طرفيها حاد يبلغ طولها ٣٢ ميليمتراً وعرضها ٢٤ ميليمتراً، وهي تقطف خضراء وتكبس ولا تعصر لاستخراج زيتها. وثمره الجلط كبيرة مستطيلة سوداء تشبه ثمرة البلح شكلاً طولها ٣٥ ميليمتراً وعرضها ٢٥ ميليمتراً، وهذا الصنف أغلى الأصناف وأجودها مكبوساً ويندر عصره لاستخراج زيت منه.

الكرم: الكرم شائع كثير في الشام، وتقدر مساحة الكروم بنحو ستين ألف هكتار (عدا فلسطين وشرقي الأردن). وأوسع الكروم اليوم في الصلت ودومة وداريا بالقرب من دمشق وفي زحلة وبحمدون وحمص وتليسة بالقرب من حمص وفي حلب... إلخ. ولا تخلو قرية من قرى

لبنان ووادي التيم وجبال النصيرية وقلمون من قليل من الكروم. والكرمة تعيش في البعل من الأرض لا يسقى من الكروم إلا ما كان منها في الغوطة والمرج وفي أرجاء سلمية. وتؤكل الأعناب أو تصنع زبيباً أو دبساً أو خللاً أو عرقاً أو نبيذاً. والكرم أصناف عديدة، أشهرها الزيني والبلدي والأحمر والأحمر الداراني والدربلي والحلواني والأسود في دمشق والغوطة، والفضي والقاصوفي والشقيفي والقمحاني والمريمي والخانقي وبيض الحمام والزحلاوي في وادي التيم والبقاع، والجحافي والبياضي في سلمية، وعنب الشيخ وإصبع الست في الإسكندرونة... إلخ.

وقضبان الزيني طوال سلامياتها متوسطة، وعناقيده ضخمة نصف كثيفة، وورقه كبار مشرحة بشقوق عميقة حافاتهما مسننة وثمرته مستطيلة قشرتها بيضاء غليظة ولبها مائع، تؤكل ثمار هذا الصنف ولا يصنع منها زبيب أو خمر، وهي من أجود الأعناب.

وعناقيد البلدي رهلة وثمرته أسطوانية طويلة بيضاء إلى خضرة، ذات قشرة ملتصقة باللب واللب لحمي قايس لذيذ. وثمار هذا الصنف كالسابق تؤكل ولا يصنع منها شيء. وليس العنب الأحمر من الأعناب اللذيذة ويصنع منه زبيب ودبس وخمر وعرق. أما الأحمر الداراني فثمرته قليلة الحمرة مستديرة مع شيء من الاستطالة لبها نصف لحمي لذيذ وهي تؤكل ويصنع منها زبيب ومسكرات ويعادل ثمن هذا الصنف ثمن العنب الزيني.

والفضي من أجود أعناب وادي التيم ثمرته مستديرة متوسطة الجرم قشرتها رقيقة صفراء، ولبها يكاد يكون مائياً وبزورها متوسطة. أما القاصوفي فثمرته أسطوانية منتفخة قليلاً في وسطها نصف لحمية بيضاء إلى خضرة، وهي أصغر قليلاً من ثمرة العنب الزيني.

البرتقال والليمون الحامض: ذكر علماء النبات أن موطن هاتين الشجرتين الأصلية في شرق آسيا، وأن الفضل يعود إلى العرب في نقلهما إلى سواحل بحر الروم، وهما ينجان في الغور وسواحل الشام ولا بد من إسقائهما. أما في مناطق السهول المرتفعة والجبال كالغوطة وحوران وحلب والزبداني مثلاً، فإن هبوط الحرارة في الشتاء إلى بضع درجات تحت الصفر يؤدي بحياتهما، ولهذا لا يزرعان في تلك الأرجاء إلا في حدائق البيوت حيث يكونان بين جدران تقيهما تأثير الرياح الباردة فيهما.

وأوسع بساتين البرتقال والليمون اليوم في يافا نحو (٢٠٠٠ هكتار)، ثم في طرابلس نحو (١٢٠٠ هكتار) ويليها منطقة الإسكندرونة (درت يول وبياس) وبيروت وصيدا وصور وعكا... إلخ.

وأجود أصناف البرتقال اليافاوي أو اليافوني (شموطي) ثمرته ضخمة بيضية ذات قشرة غليظة ولب قايس لذيد، لكنه قليل العصارة لا سيما بعد تمام نضجه، وهو ينقل بسهولة إلى القاصية مثل إنكلترا حيث يرجح على كثير من الأصناف، ومما يستملح فيه سهولة تقشيريه دون تلويث اليدين.

ومن أكثر الأصناف انتشاراً البرتقال البلدي وهو ذو ثمرة كروية أصغر من ثمرة اليافاوي، قشرتها رقيقة ولبها كثير العصارة. وهذا الصنف لا يصلح للأسفار مثل اليافاوي. ومن أصناف البرتقال الماوردي وهو يعرف بقشرة رقيقة حمراء ملتصقة باللب ولب أحمر كثير العصارة. وهذا الصنف لا يألف الأسفار الطويلة وتقشيريه صعب.

كان يقدر محصول البرتقال في يافا في سنة (١٩١٤) أي في بدء الحرب الكبرى بنحو ١٨٥٠٠٠٠ صندوق، أما بعد الحرب فقد هبط المحصول إلى ١٤٠٠٠٠٠ صندوق تقريباً. وقد زاد في العهد محصول البرتقال اليافاوي وبعبارة أصح الفلسطيني أربعة أو خمسة أضعاف ما كان

عليه ربع قرن. وكان محصول طرابلس قبل الحرب ٨٠٠٠٠٠٠ صندوق من البرتقال و ٢٤٠٠٠٠٠ صندوق من الليمون الحامض على وجه التقريب (يحتوي الصندوق على ١٥٠ برتقالة أو ٣٠٠ ليمونة). أما بعد الحرب فهبطت هذه المقادير إلى نصفها. ويشحن معظم محصول يافا إلى إنكلترا ومصر، أما محصول طرابلس فإلى أوديسا وبلغاريا والقسطنطينية ومصر. وكذا محاصيل صيدا والإسكندرون.

المشمش: يمكن غرس المشمش في جميع أقاليم الشام الزراعية وليس فيها ما لا يصلح له سوى الجبال العالية حيث يخشى على أزهاره وفراخه من تأثير الصقيع فيها في الربيع. وهو لا ينجب في غير الأرض التي يمكن إسقاؤها. وأعظم مغروساته في الغوطة والمرج ووادي العجم ووادي بردى وحول صيدا وبيروت وبلبك وأنطاكية وأرسوس، ومنه قليل في كثير من البلدان التي يمكن فيها إسقاؤه. وأشهر أصنافه اليوم الحموي والبلدي والسندياني والوزري والعجمي والكلابي في دمشق ثم اللوزي في الساحل.

وللحموي ثمرة متوسطة الحجم صفراء ذهبية لامعة تذوب في الفم وتهضم بسهولة وداخلها بذرة حلوة، وهي أجمل ثمار المشمش منظرًا وألذها طعمًا وأعطرها رائحة وأغلاها ثمنًا تؤكل رخصة ولا يصنع منها قمر الدين؛ أما ثمار المشمش البلدي فكبيرة ضاربة إلى حمرة ضمنها بزور حلوة وتجيء في اللذة بعد الحموي، تؤكل رخصة ويصنع منها ألد المفلقات (النقوع). وتبلغ أشجار هذا الصنف عشرين في المائة من مجموع شجر المشمش في الغوطة والمرج. أما الحموي فلا يزيد على خمسة في المائة، ويشبه المشمش السندياني الحموي بشكل ثماره وشتان بين الثمرتين في اللذة؛ لأن السندياني هو تقليد الحموي كما يقول الدمشقيون. ونسبة البلدي إلى الوزري من هذه الوجهة كنسبة السندياني

إلى الحموي، أما المشمش العجمي فثماره كبيرة جميلة المنظر صفراء إلى خضرة لبها قايس وطعمها سكري لكنه مجرد عن طعم المشمش الخصوصي بل هو يشبه طعم الدراق، ولهذا لا نستملح هذا الصنف وهو غير شائع. وثمار المشمش الكلابي أصغر الثمار حجماً وأردؤها طعمًا وهي صفراء إلى حمرة بزورها مرة، وهذا الصنف أشهر الأصناف في الغوطين؛ إذ تبلغ نسبته نحو ٧٠ في المائة من مجموع شجر المشمش، ومنه يصنع قمر الدين المشهور. وهو يولد من بزوره ولا يطعم فهو إذن أقرب الأصناف إلى المشمش البري. وثمره المشمش اللوزي في الساحل شبيهة بثمره الحموي بدمشق ولعلهما صنف واحد.

دمشق مركز تجارة المشمش وما يصنع منه، ومنها يصدر قمر الدين والنقوع وبزر المشمش إلى مصر والأناضول وإلى أميركا الشمالية ويقدر اليوم متوسط حاصلات المشمش في الغوطة والمرج بنحو اثني عشر مليوناً من الكيلو غرامات سنوياً منها نحو ٨٠ في المائة من المشمش الكلابي الذي يصنع منه قمر الدين، ويظهر أن مستغلاته قبل الحرب الكبرى كانت أعظم منها اليوم.

الفسق: إن غابات البطم في البلعاس وبقية أشجار الفسق الهرمة في قرية عين التينة تحمل على دعوى أن الشام من البلاد التي تعد بلاد الفسق الأصلية. وتكاد زراعة الفسق لا تتجاوز اليوم حلب حيث تأتي أجود ثماره وألذها وأغلاها، ومن أصنافه في تلك المدينة الأبيض المرواحي والعاشوري والعلمي والباتوري وناب الجمل والعيتابي، ويقدر ما ينتج من ثماره حوالي حلب بنيف ومائة ألف كيلو في السنة.

الحيوانات الدواجن في الشام

الخيّل: الخيل في الشام ثلاثة أصناف العراب أو الأصيلة، والبراذين أو ما تعرف اليوم بالكدش، والمولدة وهي التي تولد من أم عربية وأب أعجمي أو على العكس. ففي الحالة الأولى يسمى المولّد هجيناً، وفي الثانية مقرّفاً.

تجلب الكدش من الأناضول خاصّةً وهي بشعة المنظر إذا قيست بالخيّل العراب، لا تركب بل تصلح لحمل الأثقال أو جرّها أو درس الحصائد وعددها عظيم يبلغ نحو سبعين في المائة من مجموع خيل الشام. أما الخيل المولّدة فأجمل من البراذين وأقوى وهي تركب أكثر ما تستعمل في جر المركبات في المدن ونسبتها للمجموع نحو ٢٠ في المائة.

وأجمل الخيل في العالم هي العراب وتحليتها علمياً كما يلي: مستقيمة الرأس متوسطة الجثة طول أعضائها متوسط لها رأس مربع وجبهة مسطحة ومقدم مستقيم ووجه متوسط الطول، وفكان متباعدتان ومنخران جامدان ومرنان معاً، وأذنان حساستان وعينان كبيرتان تنمان عن ذكاء، وعنق رشيق شديد العضل، وظاهر مستقيم وردف أفقي مكتنز، وعجزان مستديران وصدر واسع وبطن صغير، وقوائم رشيقة قوية العضل عمودية لا عيب فيها، وأوتار جليلة ومفاصل عريضة وجلد رقيق مرن وشعر لامع قصير وعرف وسيب طويلان ناعمان متموجان. ومجموع الجواد العربي آية في انتظام تكوينه فهو جميل قوي شهم، ولا ريب أنه أكمل جواد على وجه الأرض.

ويختلف لون الخيل العرب وقد استفاضت شهرة الشَّهْبِ والشُّقْرِ والكُمْتِ. وأجملها الشَّهْبُ المدنرة؛ أي التي يخالط الشَّهْبَةُ فيها نَكْتُ سَوْدُ (أبيض مبقج أو أزرق مبقج).

وزن الجياد العرب بين ٤٠٠ و ٤٥٠ كيلو غرامًا، ارتفاعها ١.٤٢ إلى ١.٥٥ متر، ودورة صدرها ١.٧٢ إلى ١.٧٨ متر، وتصلح الخيل العربية للركوب والسباق خاصةً وإن من إسفاد ذكورها على إناث إنكليزية غير كريمة منذ بضعة قرون تولدت الجياد الإنكليزية الصافية السباق الشهيرة التي يقصر اليوم عن إدراكها كل جواد في حلبة السباق.

وأجمل الخيل العرب ما كان في دمشق وحمص وحماة ولدى بعض الأسر والعشائر القديمة كاللدنادشة في تل كلح والموالي في شمال الشام. ولا تزيد نسبتها على عشرة في المائة من مجموع عدد الخيل لدى أهل الحضر من الشاميين.

الحمير: في الشام ثلاثة عروق من الحمير: الآسيوي والمصري والقبرصي أو الأوربي؛ فالصنف الآسيوي هو الأشهر (تبلغ نسبته ٩٥ في المائة من مجموع حُمُر الشام) لونه إلى سواد وارتفاعه متر إلى متر وربع، وهو حيوان الفقراء، يصلح للركوب والحمل ولا يوازيه حيوان بصبره وقناعته وفوائده الجمّة إذا قيست بالعلف القليل الذي يُعلفه. أما الحمير المصرية فيضاء اللون ارتفاعها أكبر من ارتفاع الحمير الآسيوية، ولا تستخدم إلا للركوب، وهي جميلة المنظر سباق في نوعها وثمر الجيد منها غالٍ لا سيما في المدن. أما الحمير القبرصية فتعرف من كبر قدها إذ يبلغ ارتفاعها ١.٣٠ إلى ١.٤٠ متر وهي تستعمل في سفاد إناث الخيل للحصول على بغالٍ عظيمة القد قوية البنية.

البغال: تحصل من إسفاد الحمر القبرصية على البراذين (كدش) وهي ذات قَدَّ يقرب من قد البراذين، فهي إذن صغيرة القد وفائدتها بقناعتها وقوتها وتحملها الأتعاب وقيامها بأعمال تشق على كل حيوان غيرها. فهي تستخدم مثلاً في الحرث بمحاريث حديثة؛ لأن بقر الشام صغير الجثة لا يقوى على إثارة الأرض بها، وتحمل أثقالاً في المناطق الجبلية الوعرة المسالك كوادي التيم والقرى الجبلية من إقليم البلان وتجري المركبات الضخمة المحملة بضاعات ومؤناً على الطرقات المعبدة في لبنان وبين دمشق وبيروت. ومن منا لم ير في لبنان وبيروت المركبات الشهيرة التي تسمى (كارات) يجرها أربعة بغال مصفوفة بعضها أمام بعض على سطر واحد. ولقد ترك الجيش الإنكليزي في الشام عقب الحرب الكبرى عددًا عظيمًا من البغال الكبيرة القد لا تبرح بقاياها في دمشق إلى يومنا هذا. وهي تتطلب عنايات كثيرة وعلفًا زائدًا ولا تتحمل المشاق بقدر البغال الشامية.

البقر: بقر الشام من العرق الآسيوي القصير الرأس ذي الجبهة المستقيمة العريضة وهو على ثلاثة أصناف: البلدي والعكش والجولاني (أو الخميسي) فالبقر البلدي شائع في الغوطة وفي أرجاء العاصي، ويسميه الحمصيون البقر الحلبي والحمويون البقر الشامي؛ وهو كبير طويل القامة (متر وربع إلى متر ونصف) صلب العود قصير الرأس والقرون، ناعم الجلد، تغلب الشقرة على لونه، وقد يكون كميًا أو إلى سواد أحيانًا، ووزنه ٣٠٠-٥٠٠ كيلو غرام، وهو بالنظر إلى كِبَرِ قَدِّه أقرب الأصناف إلى البقر الأوربية، ولذا يصلح للحرث حرثًا عميقًا إذا علفت أنثاه علفًا غزيرًا تحلب في الغوطة طول السنة تقريبًا. ويُحسب أنها تدر عندئذ ١٢-١٥ كيلو في اليوم خلال ستة أشهر عقب الوضع و ٨-١٠ كيلو في اليوم في الثلاثة أشهر التي تليها ثم ٤-٥ كيلو في اليوم خلال

شهرين آخرين، فيكون الوزن المتوسط لما تدره من اللبن في السنة ٢٥٠٠-٢٧٠٠ كيلو.

ولا يألف البقر البلدي أقاليم الشام بأسرها بل يتطلب إقليمًا معتدلاً ورطباً، ولهذا يندر أن تراه في غير البساتين وهو لا يقاوم الحر في السهول التي لا ماء للري فيها كحوران والبلقاء وسهول حمص وحماة وغيرها. وعدده ليس عظيماً ولا يزيد على ١٠ أو ١٢ في المائة من مجموع بقر الشام، ويسمى البقر الجولاني بأسماء مختلفة فيقال له: الخميسي في النبك والزبداني والبرزري في حماة، ويغلب على الظن أنه حصل من إسفاد الثور البلدي على البقرة العكش، ولذا جاء قده ووزنه وتكوينه وطباعه بين بين، فإن له رأساً قصيراً وجبهة عريضة وقرنين متجهين إلى الأمام وثنوباً أسود في الغالب، وقد يكون أشقر أحياناً، وطوله نحو ١.١٥ إلى ١.٣٠ متر ووزنه نحو ٢٥٠ كيلو، وهو يعد في العوامل وتعطي أنثاه قليلاً من اللبن، وليس له رقة البقر البلدي وهو أكثر منه تحملاً للحر والقر والجوع والتعب، ونسبته للمجموع ١٥ في المائة تقريباً.

وأشهر البقر اليوم هو الذي يدعى البقر العكش في أكثر أنحاء الشام، ويسميه الحمويون القليطي والحمصيون الأناضولي، ولا تختلف تحليلته من حيث تكوينه عما ذكر. وله جرم صغير ولا يزيد ارتفاعه على متر وعشرة سنتيمترات إلى متر وربع ووزنه نحو ٢٠٠ كيلو، وقد يكون أقل من ذلك فهو إذن لا يصلح للحرث بمحارث حديثة تغور في التراب كثيراً، ويغلب عليه اللون الأسود قليلاً ما يكون أبرش أو أشقر. ويحتمل هذا الصنف من البقر الجوع والتعب والحر واليهوسة ولهذا تبلغ نسبته نحو ٧٥ في المائة من مجموع بقر الشام. وذّر أنثاه قليل ويسهل علفه وتسمينه بالغذاء.

الضأن: ينتسب للضأن في الشام إلى العرق الشامي أو الأسوي وهاك تحليلته فنيًا، رأسه طويل قليلًا وجبهته تكاد تكون مستقيمة، وقرناه معقوفان متجهان إلى الوراء، وقد يتفرعان، ووجهه مستطيل، وعظام منخره طويلة، ومنظر رأسه ووجهه ينم عن احديداب قليل، وذنبه عظيم فيه مقدار كبير من الدهن، ووزنه المتوسط نحو ٤٠ كيلو غرامًا وطوله ٦٥-٧٥ سنتيمترًا، وهو يسمن بسهولة، أما مقدار الدّر في النعاج فمتوسط.

وفي الشام أصناف للضأن أشهرها المسمى (عَواس) أو ضأن الموصل وهو شائع في حمص وحماة والبقاع ودمشق ولبنان وغيرها. صوفه أبيض يبلغ كيلو غرامًا ونصفًا إلى كيلو غرامين وقد يزيد على ذلك، وينقص نحو نصفه إذا غسل ويبلغ وزن إليته ٥ إلى ٦ كيلو غرامات، وطول الشعرة من صوفه ١٥-١٨ سنتيمترًا.

وما ذكر من الأرقام هو الحد الأوسط، وربّ كبش سمن في لبنان بورق التوت والكرمة فبلغ وزنه ضعفي ما ذكر، وبلغ طول الشعرة من صوفه ٣٠ سنتيمترًا وزاد وزن إليته على ثمانية كيلو غرامات، ورقّ صوفه ومَرَن.

ويرد إلى الشام أصناف أخرى للضأن كالحمرء والبرازية والشقراء والنجدية ثم ضأن أرزنجان أو المور في حلب، وهو ذو صوف أحمر أو إلى سواد. وتدر النعجة لبنها ٤-٥ أشهر فتعطي في اليوم نحو ٥٠٠ غرام. وإذا علفت كما تعلف في حمص والبقاع تعطي ٧٥٠ غرامًا إلى كيلو غرام من الحليب في كل يوم. ويبدأ جز الصوف في آذار وينتهي في أيار في المناطق الباردة، وأكثر ما يكون في نيسان.

ويزيد عدد الضأن في الشام على مليوني رأس وتربيته شائعة لدى العشائر البدوية الضاربة في الشرق ومنها الجزيرة. وقد اشتهرت عشيرة

الحديديين بحسن تربية الكباش والنعاج الصالحة للسفاد. واشتهر السمن الحديدي نسبة إلى تلك العشيرة التي تقطن منطقة الحمراء ومعة النعمان في الصيف. وينقل في كل سنة قطعان عظيمة من الغنم من الروم والعراق إلى الشام حيث يستهلك بعضها ويرسل الآخر إلى مصر وجزر يونان وغيرها.

المعز: معز الشام من العرق الإفريقي وتحت العرق النوبي (نسبة إلى النوبة) وهي تعرف برأس طويل ووجه قصير على شكل مثلث قاعدته ضيقة، وجبهته محدبة كثيرًا. وهي على صنفين البلدية والجبلية، فالمعز البلدية يبلغ ارتفاعها ٧٠-٧٥ سنتيمترًا ووزنها ٣٠-٣٥ كيلو غرامًا، ولها ثوب أحمر أو أحمر ملمع بياض. وقد تكون شهباء أو سوداء أحيانًا وقد تجمع ثلاثة ألوان متفرقة: بياض وحمرة وسواد. وإذا كان لونها أحمر وجبهتها بيضاء سميت صبحاء بدمشق، أما إذا جمعت البياض والحمرة فتسمى عجمية، وهي جماء في الغالب. وإذا نجمت لها قرون تظل صغيرة وكثيرًا ما تقطع، وينمو لكل منها زَئمتان طويلتان فتسمى الشاة قرطاء وهي شاة حسنة تزيد ثمنها وأذناها طويلتان ومتدليتان وكثيرًا ما ينف طول واحدتهما على شبر ويقطعهما الأكارون إذا أفرطتا في الطول. والبلدية من أجود المعزى الحلوبة فهي إذا صادفت عناية تدر في اليوم لترين إلى ثلاثة من الحليب مدة سنة أشهر وتدر نصف هذا المقدار تقريبًا خلال شهرين آخرين. وهي ترعى في الغوطة العشب النامي حول القني ومجاري الماء وترعى أيضًا الفصفصة والبيقية الخضراء، وكثيرًا ما تعلف نحو كيلو غرام من حب الجلبان صباح كل يوم قبل تسريحها وهذا خاص بالحلوبة منها.

والماعز الجبلية تشبه البلدية بصفاتهما الفنية لكنها أقصر منها، ولها ثوب أكثر ما يكون أسود، وهي ليست دروزًا بقدر البلدية، والمعزى الجبلية منتشرة في أنحاء الشام لا تخلو منها قرية، وعى العكس في البلدية

التي تكاد لا تخرج عن المدن والمناطق التي يكثر فيها الكلاً في فصول السنة.

الإبل: إبل الشام من ذوات السنام الواحد؛ أما ذوات السنامين فتوجد في جبال فارس والأناضول وبلاد الكرد وتنقل إليها من آسيا الوسطى. ولما كانت تحتمل البرد والسير في المسالك الوعرة فقد فكر الشاميون في إسفاد فحولها على النوق الشامية فحصلوا على هجن لها سنام واجد كأمهاتها وذات جلد على السير في الجبال والأوعار كآبائها. وهذه الهجن شائعة في الجزيرة ولبنان وعجلون وغيرها وهي تعرف بقصر القامة وصغر الرأس.

والركائب من إبل الشام أصناف وأشهرها اليوم إبل الحرة لدى عشيرتي بني صخر والشرارات وغيرهما في البلقاء. ويتقي الجيش ركائبه من هذه الإبل غالباً. ومنها الإبل العُمانية؛ أصلها من عُمان وهي ذات رأس نحيف وقد أهيف ومزاج عصبي. وجيش الهند يتنازع منها ما يلزمه من الإبل، ومنها الإبل التيهية أصلها من السودان وترد إلى فلسطين والבלقاء مع القوافل الآتية من مصر. وقد كانت إبل الجيش الإنكليزي من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى.

ويطلق الأوربيون كلمة مهري على الإبل السبابة عموماً أو على عرق معلوم منها. ويظن أن هذا الاسم مشتق من الإبل المَهْرِيَّة المنسوبة إلى مَهْرَةَ بن حَيْدَانَ وهي مشهورة بالسبق.

والبعير صديق البدوي الحميم ولولاه لزال البدواة، فهو يحمل الخيام والماء في المراحل الخالية من الماء ومؤناً تكفي لسته أشهر يقضيها البدوي مع عشيرته في صحراء الشام، ويحمل البدوي نفسه وعياله وسلاحه وتحلب الناقة بعد الوضع في كل يوم خمسة لترات إلى

عشرة في مدة سنة أو أكثر، وحليب النوق لذيد ملين، وليس لحم الجمل أردأ من لحم البقر الذي يأكله الأوربيون ووبر الجمل ألين من صوف الضأن ومنه تصنع عباءات الوبر العراقية الشهيرة، وتصنع من جلده قرب عظام منها ما يسع ٢٠٠ لتر من الماء وتعمل أيضًا نعال قوية لا تفنى من جلد ركبتيه وغيرهما من أعضائه التي تحتك بالأرض بينما يكون الجمل جالسًا.

الصناعات الزراعية في الشام

ليس في الشام اليوم معامل عظيمة المصنوعات الزراعية كما في أوربا؛ لكن لبعض هذه المصنوعات (وإن كانت تصنع على الطرائق القديمة) شأنًا كبيرًا في الحياة الاقتصادية. وأهم هذه المصنوعات قمر الدين والتقوع والزبيب والدبس والصابون والزيت والسمن والعرق والخمر والعجين والطحين والنشاء.

قمر الدين: يصنع أشهر قمر الدين في الغوطة والمرج وقليلًا في وادي العجم والزبداني وبعلبك، وفي كل مكان فيه مقدار من شجر المشمش، ويلزم أربعة أرتال إلى أربعة ونصف من المشمش للحصول على رطل من قمر الدين، وهو يصنع من المشمش الكلابي ويندر صنعه من المشمش البلدي، واشتهر منه في دمشق ما يرد من قرتي زملكا وعربيل من قرى الغوطة، وليس صنعه أمرًا عسرًا فالمشمش يسحق بالأيدي في غربال موضوع فوق بناء يسمى تيغارًا مفروشة أرضه بالأسمنت ثم يغترف العصير بكيلة من خشب ويفرش بمهارة على لوح من خشب بعد أن يطلى اللوح بقليل من الزيت، وبعدها يوضع اللوح في الشمس يومًا ونصف يوم فيجف العصير ويصير شرائح وزن كل منها رطل تقريبًا وهي «لفات» قمر الدين المعلومة.

ومعظم القمر الدين المعروفة الذي يصنع حوالي دمشق يشحن اليوم إلى مصر وشمال الشام، ويقدر ما يصنع منه سنوياً بنحو ٤٠.٠٠٠ قنطار دمشق وهو المقدار المتوسط، (يساوي القنطار الدمشقي ٢٥٦ كيلو غراماً).

النقوع: هي ثمار المشمش المجففة وتسمى بالعربية المُفَلَّق، تصنع من المشمش البلدي وذلك بأن يوضع المشمش في الشمس على سطح من القش مدة أربعة أيام، ثم تكبش الثمار بين الكفين وتترك يومين آخرين، ثم ترقق أطرافها بالأصابع ثم تترك يومين أو أكثر فتجف، ويلزم خمسة أرطال من المشمش للحصول على رطل من النقوع، ويدل إحصاء المكس في بيروت على أنه صدر منها وحدها سنة (١٩١١) ٦٨٠.٠٠٠ كيلو غرام من النقوع ومليون ونيف كيلو غرام من بزور المشمش، وهي تصلح لاستخراج زيت منها.

الزبيب والدبس: أجود زبيب في الشام ما يحصل من زبيب العنب الدربلي في جيروود والرحبية والريحان ودومة، يليه زبيب الصلت. ويصنع الزبيب في كل القرى التي فيها أعناب، وليس في صنعه صعوبة، فالعنب يغطس بماء فيه شيء من القلي والزيت، ثم يفرش على سطح مدة ثمانية أيام فيجف. ويحسب أن كل أربعة أرطال من العنب ينتج منه رطل من الزبيب. وللثمار المجففة شأن كبير إذا صحت العزيمة على الاعتناء بصفها وبقطفها وشحنها إلى الديار الأجنبية كما يفعل الزراع حول مدينة أزمير بزبيبهم وتينهم المجفف.

ويصنع الدبس من الزبيب أو العنب، ففي الحالة الأولى يدرس الزبيب في المعصرة بمدرس من حجر حتى يصير كتلة لزجة، ثم يوضع في قدور كبيرة ويغمر بالماء مدة ٢٤ ساعة، ثم يؤخذ ماء الزبيب (جلاب

أو صليبة) ويوضع في مرجل وتضرم النار تحته حتى يتحصل الدبس. ويلزم مائة رطل من الزبيب للحصول على ٦٠ إلى ٨٠ رطلاً من الدبس. واشتهر دباسو قرى معربا ودومة وعرييل بصنع دبس لذيذ يعطرونه بعطر الورد أحياناً.

الصابون: أشهر مصابن الشام في طرابلس ونابلس ودمشق وحلب وكلز، ويبلغ المقدار المتوسط للصابون الذي يصنع سنوياً في الشام نحو ١٣.٠٠٠ طن، وصناعته على الأصول القديمة.

الزيت: أشهر الزيوت ما يصنع في معاصر لبنان وفلسطين وأشهرها جميعاً زيت الرامة، واعتاد أرباب الزيتون في دمشق أن يتركوه مدة طويلة في المعصرة، فيختمر ويتعفن ويحصل له طعم كريه، حتى إنه ليشق تصريفه خارج الشام. والداعي إلى ذلك قلة المعاصر بدمشق وخصوصاً اعتقاد الزراع بأنه بقدر ما تطول المدة بين قطف الزيتون وعصره تزداد نسبة الزيت المتحصل بالعصر. واعتقادهم هذا صحيح إلا أن زيادة نسبة الزيت لا توازي هبوط سعره المنبعث عن رداءة طعمه.

ويتوقف استخراج الزيت على الأعمال الآتية: (أولاً) سحق الزيتون بأسطوانة من حجر يديرها بغل داخل وعاء مستدير من حجر. (ثانياً) كبس الزيتون المسحق لتفريق الزيت عن الثفل، وذلك بمكبس عادي أو مكبس مائي.

(ثالثاً) تفريق الزيت عن الماء والعناصر الأجنبية المختلطة به، وذلك بترك العصير يروق فيفترق الزيت الصافي لأنه يطفو على وجه العصير. أما الثفل فهو يسحق ويكبس فيخرج منه زيت أسود يسميه الدمشقيون زيت الجفت يستعمل في صنع الصابون.

وفي الشام اليوم أكثر من ٤٠٠ مكبس منها نحو ٢٠٠ مكبس مائي، ويستدل من عدد المكابس على عدد المعاصر، وإذا استثنينا فلسطين وشرقي الأردن، فإن متوسط ما يستخرج من الزيت في باقي أنحاء الشام يقدر بنحو ١٠.٥٠٠ طن نصفها اليوم في لبنان.

السمن: هو المادة التي يطبخ بها الشاميون أكثر أغذيتهم على العكس من الفرنج فهم يطبخونها بالزبدة ولا يعرفون السمن، ويصنع السمن بمخض اللبن في مмахض من جلد الغنم، تعلق بحبلين يُشدان إلى دعائم ويدوم المخض نحو ساعتين ونصف فيلتصق السمن بداخل الممخضة ويقشط بعد تفريغ اللبن. ويقدر أنه يحصل أربعة أرطال من السمن من مائة رطل من اللبن. والسمن من صناعات البدو، وأجود السمن ما يصنعه عشيرة الحديديين بلبن الضأن.

العرق والخمر: العرق ألد المسكرات وأرجحها لدى الشاميين، ويصنع منه ما لا يقل عن ١٥.٠٠٠ هيكوليتري في كل سنة في دمشق والنبك وحمص وزحلة وكثير من قرى فلسطين ولبنان ووادي التيم. يوضع عصير العنب في دنان عظيمة حتى إذا اختمر يضاف إليه الأنيسون بحيث يكون حظ كل مائة كيلو غرام من العصير ثلاثمائة غرام من الأنيسون، وبعدها يقطر العرق بالانبيق فيكون مقداره ربع العصير تقريباً، وإذا أريد الحصول على عرق نسبة الكحول فيه أكبر (عرق مثلث) يعمد إلى العرق الأول فيضاف إليه مقدار من الأنيسون ويقطر منه عرق ثقيل.

وليس شرب الخمر شائعاً في الشام شيوعه في أوروبا حيث يقوم مقام الماء أثناء الطعام. وأكبر المعامل لصنع الخمرة هو معمل ريشون في عيون قارة في فلسطين، وهو معدود من أكبر معامل العالم ويشحن نبيذه

إلى مصر والعراق وإلى أوربا ولا يستهلك من نبيذه في الشام إلا مقدار قليل، ويليه معمل كسارة ومعمل شتورة في البقاع.

النشاء: يصنع في الشام لا سيما في دمشق وحلب مقدار من النشاء لاستهلاكه وقاعات النشاء في دمشق معروفة، وهو يستخرج فيها من الحنطة على طريقة قديمة بسيطة لا شأن للآلات الحديثة فيها؛ تنقع الحنطة في الماء نحو عشرة أيام ثم تسحق بحجر الرحي وتمرس بضع مرات في الماء حتى يخالط النشاء الماء وبعدها يترك المائع فيرسب النشاء في قعر الوعاء، ويحسب أن القنطار من الحنطة يعطي ٦٥-٧٠ رطلاً من النشاء بهذه الطريقة، أما الثفل فتعلفه الجمال.

المطاحن: كانت مطاحن الشام إلى عهد قريب عبارة عن أحجار رحي يديرها الماء بقوة انحداره، أما اليوم فيشاهد المرء عشرات من المطاحن البخارية في الأماكن التي لا ماء فيها عدا بضع مطاحن على آخر طراز من الفن؛ أي أن أرحيتها أسطوانات تدار بالكهرباء وهي في دمشق وحيفا ويافا.

الجبن والقشطة: تعزل القشطة عن الحليب فتؤكل وحدها وتضاف إلى بعض الحلواء، وتصنع جبنة لا لذة لها بالحليب الذي فرزت قشطته، وأشهر أنواع الجبن المصنوع في الشام الأبيض والحالوم الحلبي، وقد أخذ الشاميون يصنعون جبن البلقان المسمى قشقوان ولم يتوصلوا إلى تخميره كما في موطنه الأصلية وجميع أنواع الجبن المذكورة بعيدة عن أن تساوي أنواع الجبن الأوربية بلذتها وتعدد أنواعها.

زراعة الشام من الوجهتين المالية والاقتصادية

نذكر في هذا البحث أقسام الأرض والضرائب الزراعية وطرائق استثمار الأرض وإقراض الزراعة.

أقسام الأرض: تقسم الأرض في الشام من الوجهة القانونية إلى خمسة أقسام؛ وهي الأرض المملوكة والأميرية والموقوفة والمتروكة والموات، ولكل قسم من هذه الأقسام نظام خاص في دفع الضرائب الزراعية؛ فالأرض المملوكة هي التي يملكها صاحبها ملكًا صحيحًا تامًا بحيث يستطيع وقفها وعدم زرعها مدة طويلة، ومثالها الحدائق المتصلة بالبيوت وما يسمى الأرض العشرية والخراجية (بعض بساتين محيطة بمدينة دمشق ... إلخ). والأرض الأميرية هي التي يعود تملكها (رقتها) لبيت المال، وهو يخول الأهلين استثمارها؛ أي حق التصرف بها بصك يسمى «سند التصرف». ومعظم الأرض في الشام من هذا القسم. وليس من فرق كبير في الأمور الجوهرية بين المتصرف بالأرض الأميرية وبين مالك الأرض المملوكة؛ لأن الأول وإن لم يملك الأرض قانونيًا فإن له سلطة كافية في استثمارها والنزول عنها حسب إرادته، وهي تنتقل لورثته بعد وفاته، إلا أنه لا يستطيع وقفها إلا بإذن وهو إن لم يستثمرها ثلاث سنين بلا عذر مقبول يضطر إلى دفع قيمتها على شكل معلوم، حتى إذا استكف من الدفع عدت الأرض محلولة ووجب بيعها بالمزاد العلني. وثمة فرق بين الأرض المملوكة والأرض الأميرية، وهو أن للورثاء من الدرجة الواحدة حصصًا يتساوى فيها الذكر والأنثى في الأرض الأميرية، أما في الأرض المملوكة فللذكر مثل حظ الأنثيين. ولا يسمح للمتصرف بالأرض الأميرية أن يوصي بها بعد مماته، وعلى العكس في رب الأرض المملوكة. والأرض الموقوفة هي التي حبست في سبيل البر وليس من

شأننا البحث فيها، والأرض المتروكة هي التي تركت للنفع العام كالطرق والساحات والبيادر والمحتطبات ومراعي القرى، وهي لا يملكها أحد ورقبتها لبيت المال والتصرف بها للجماعة، والأرض الموات هي الأرض البعيدة عن العمران التي لا يتصرف بها أحد، والحكومة تعطي رخصاً بإحياء الأرض الموات فبالصرف بها على شروط موضحة في قانون الأرض.

الضرائب الزراعية

على الأرض الأميرية في يومنا هذا نوعان من الضرائب؛ ضريبة تابعة لقانون ٧ رمضان سنة (١٢٧٤هـ) وقدرها ٤ في الألف من ثمن الأرض، وضريبة أعظم شأنًا وأكبر تأثيرًا في الزراعة وهي العشر؛ أي استيفاء عشرة في المائة من محاصيل الأرض غير الصافية يضاف إليها اثنان ونصف باسم المعارف والمصرف الزراعي، أما الأرض المملوكة (وهي كما قلنا قليلة في الشام إلا في لبنان الصغير حيث كل الأرض تعد مملوكة) فصاحبها لا يدفع العشر من غلاتها؛ بل يدفع عشرة في الألف من ثمنها في كل سنة.

والعشر من المصائب المزمنة في هذا القطر لأن ١٢.٥٠ في المائة من المنتجات غير الصافية هي نسبة كبيرة في ذاتها، ولأنه يصعب جدًا تخمين الغلات على وجه الضبط لأخذ هذا المقدار منها. فقد حارت حكومات الشام في طريقة استيفاء العشر أو ثمنه ولا تزال حائرة؛ لأنها خمنت الغلات تخمينًا فقد يضل المخمنون أو يتعمدون الخطأ أحيانًا فيظلم الفلاح إذا جاء التخمين زائدًا عن الحقيقة، وإلا فيخسر بيت المال. وإذا باعت العشر بالمزاودة العلنية من ملتزمين فهم لا يقدمون على سوى قرى الفلاحين فيظلمونهم بطرق شتى دون أن يجسروا على المزاودة في

عُشر قرى الوجهاء، فيكون الضرر مزدوجاً على الفلاح وعلى بيت المال معاً. وقد رأت الحكومة أخيراً أن تعتمد إلى معدل عُشر أربع سنين ماضية فتقره وتستوفي ضريبة محدودة مساوية له سواء زرع الفلاحون الأرض أو لم يزرعوها. وهذه الطريقة في استيفاء العشر وإن كانت أصلح من الطريقتين السابقتين إلا أنها ليست عادلة إذا قلَّ المطر في إحدى الناطق بعض السنين هذا عدا أن أساسها فاسد؛ لأن متوسط عُشر سنين أربع في قرى الفلاحين يكون قريباً من العشر الحقيقي غالباً. أما في قرى الوجهاء فيكون أنقص لأن الأعيان لا يدعون الحكومة تصل إلى حقها.

والخلاصة أن مسألة العشر في الشام من أعقد المسائل وكثيراً ما اقترح أرباب الفلاحة على الحكومة أن تسمح الأرض كما في بلاد الفرنج وتضع على الأرض وما تنتجه ضريبة واحدة لا تبدل تخلصاً من العشر كما يجري العمل به في أرض مصر. وإن هذا الاقتراح في غير محله أو هو مما يتعذر اتباعه في كل أنحاء الشام على السواء؛ لأن الأمطار في الشام متفاوتة التهاطل؛ فقد يهطل في سنة ثلاثة أضعاف ما يهطل في السنة التالية، لا سيما في سهول الشام الشرقية، ولهذا يختلف محصول الأرض اختلافاً عظيماً كل سنة. وقد تمحل منطقة واسعة في إحدى السنين ولذلك لا يجوز أن يستوفي منها في تلك السنة ضريبة كالتي تستوفي في سني الخصب. أما إذا كانت الأرض تسقى بماء نهر أو قناة فعندها يمكن وضع ضريبة ثابتة عليها كما في الغوطة مثلاً.

طرائق استثمار الأرض

إذا قلنا: إن أكثر من ستين في المائة من سكان الشام يعملون في الفلاحة رأساً

أو بالواسطة فلا نكون مغالين في قولنا؛ لأن سكان المدن الكبيرة والمتوسطة وإن كان عددهم يقرب من نصف مجموع السكان في الشام، فكثير منهم لا عمل له غير الفلاحة. ويتصرف الشاميون اليوم بالأرض على نسبة غير عادلة، ومعنى هذا أن أرباب الوجاهة والثروة على قلتهم يتصرفون بمساحات واسعة جدًا في كثير من المناطق، بينما الفلاح يعمل في الأرض دون أن يكون له في تملكها نصيب ففي أطراف حماة مثلاً ١٢٤ قرية منها ثمانون في المائة لأرباب الوجاهة من عيال لا تتجاوز عدد الأصابع، والباقي وهو عشرون في المائة يتصرف به الفلاحون ورجال الطبقة المتوسطة من الشعب. وفي أرجاء حمص ١٧٦ قرية منها ثمانون في المائة للوجهاء دون غيرهم وعشرون في المائة مشاع بين هؤلاء الوجهاء والفلاحين إلا بضع قرى لم تمتد إليها أيدي المتغلبين فلبثت للفلاحين وحدهم. وهكذا قلّ عن كثير من مناطق الشام كقرى معرة النعمان وغيرها في حلب. وليست الحالة كذلك في حوران حيث ترى ٩٥ في المائة من الأرض موزعة بين سكانه على نسبة عادلة، وكلهم أرباب فلاحة وكذا في جبل حوران وعجلون والبلقاء والكرك ووادي التيم وإقليم البلان، وما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة إلا ويملك مساحات واسعة في الغوطة بل نصف الأرض فيها بيد متوسطي الزراع والربع بيد صغارهم والربع الأخير يخص أرباب الوجاهة بدمشق.

وبعد، فقد كان السلطان عبد الحميد العثماني من أقدر السلاطين على تملك الأرضين وجمع الثروة، فقد تملك لشخصه شرقي حمص وسلمية نحو مليون هكتار من الأرض تشتمل على جبل البلعاس والشومرية وتمتد إلى مقربة من تدمر، وعمر فيها نحو مائة وعشرين قرية ومزرعة تستثمر نحو مائة ألف هكتار. وتملك في أنحاء حلب نحو ٥٠٠.٠٠٠ هكتار فيها اليوم ٥٦٧ قرية ومزرعة عامرة حوالي منبج والباب وعلى

الشاطئ الغربي من الفرات من مصب الساجور إلى مسكنة ويشمل معظم جبل الحاص ومساحات واسعة جنوبي حلب عند مصب نهر قويق واقتنى أيضًا سبع قرى في حوران منها قرية المسمية كما اقتنى بيسان وبضع قرى بالقرب منها. وكان يوطد الأمن في هذه المملكة الخاصة الواسعة ويعفي الزراع المستأجرين من الجندية ويحميهم من تعدي أرباب الوجاهة ويسلفهم المال بلا ربا حتى عمرت تلك الأنحاء بعد أن كانت منازل للعربان يعيشون فيها فسادًا. ولما حصل الانقلاب العثماني سنة (١٩٠٨) اضطر السلطان المشار إليه إلى التنازل عن هذه المعمورات إلى بيت المال، فأصبحت ملكًا له وأصبح فلاحوها مستأجرين لدى المالك الجديد، وهو بيت المال أو الحكومة. ويدفع الفلاحون إلى الحكومة عشرين في المائة من المستغلات في بعض الأماكن و٢٢.٥٠ في المائة في أماكن أخرى (عشر وأجرة أرض معًا). وهم وإن كانوا مستأجرين لا يملكون الأرض رسميًا فهم يتوارثونها كأنهم مالكون لها والحكومة لا تخرج فلاحًا من قريته إلا إذا أتى عملاً منكراً من إحداث فتنة أو التماهي على الأضرار بالناس. ولما كانت الحكومة تسلف هؤلاء الفلاحين أموالاً بلا ربا وكانت تستوفي من غلات الأرض نسبة أقل منها في قرى الوجاهاء، رجحت حالة الفلاح في أملاك الدولة من كل وجه على حالة الفلاح المسكين الذي يستعبده المتغلبون في قراهم. ومع هذا اقترح على الحكومة منذ نحو سنتين أن تبيع هذه الأملاك من الفلاحين أنفسهم دون سواهم على أن يدفعوا الثمن أقساطاً خلال خمس عشرة سنة، وعلى أن يضمن عدم مد المتغلبة أيديهم لهذه الأرضين، فأقرت الحكومة البيع مبدئيًا. وقد أثبتت لنا الأيام أنه لا يستطيع أن يزيد في غلات الأرض سوى الذين يملكون فيها مساحات متوسطة أو صغيرة.

ولنرجع إلى طريق استثمار الأرض المتبعة اليوم في الشام فنقول: إذا استثنينا الغوطة والمرج وبعض ما يسقي وما حوالي المدن من المزارع، حيث يستغل بعض أرباب الزراعة أرضهم مباشرة ويدفعون إلى الفلاحين المشتغلين بها أجورًا مقطوعة سنوية أو شهرية، فإن الأرض في سائر الأنحاء تستغل على طريق المزارعة بشرائط مختلفة (بالقسم). ففي حمص وحماة يأخذ صاحب الأرض ربع المحصول فيدفع منه العشر وتبقى الثلاثة الأرباع للفلاح. وفي هذه الحال يلزم الفلاح بجميع النفقات والأعمال، ولكن صاحب الأرض قد يقرضه البذار بربا في الغالب على أن يستوفيه من البيدر. ويأخذ أصحاب الأرض ربع المحاصيل في بعض قرى حوران ويدفعون منه العشر وضريبة الأرض ويكون الباقي للفلاح مقابل النفقات والأتعاب؛ لكن الطريقة الشائعة في حوران هي إيجار الأرض بمقدار معلوم من الحب كأن تؤجر (الربعة) بنحو ٥٠-٦٠ مدًا من الحنطة، ولما كان يزرع في الربعة أرض تستوعب ٥٠-٦٠ مدًا من البذار، فإذا أغل المد أربعة أمثاله أو خمسة أمثاله تكون الأجرة التي استوفاهها صاحب الأرض معادلة لربع المحصول أو خمسة.

وكلما كانت القرية في منطقة سكانها كثار وأرضها ضيقة، يزداد المقدار الذي يستوفيه صاحب الأرض من المحصول والعكس بالعكس. ففي البقاع مثلاً يأخذ صاحب الأرض نصف المحصول ويؤدي العشر منه إلى الحكومة. وفي الحولة حيث الأرض تروى تكون حصة صاحب الأرض ثلث المحصول ويكون عشر المحصول عليه. أما في الغوطة والمرج فحصة صاحب الأرض الثلث لكنه لا يدفع إلى الحكومة سوى عشر هذا الثلث، وعلى الفلاح أن يدفع العشر عن ثلثيه.

هذه بعض طرائق استثمار الأرض وتعود فيها جميع النفقات والأتعاب على الفلاح؛ أما إذا أحب صاحب الأرض أن يكون رأس مال

الاستثمار منه فالفلاح الذي يشتغل في أرضه يسمى (مربعا) وهو مطالب بأعمال فدان من البقر (زرع نحو ثمانية هكتارات حبوبًا وتجهيز مثلها للسنة القادمة) ويأخذ ربع المحصول أو خمسة بعد رفع العشر من المجموع في الغالب.

اقراض الزراع

يعوز الفلاحين في الشام النقود الكافية لاستثمار أرضهم على مقتضى قواعد الفن. وهم كثيرًا ما يستدينون المال من المربين بفوائد فاحشة لا يبعد أن تبلغ ١٠٠ في المائة أحيانًا. ولهذا ترى غلة أرضهم تكاد لا تكفيهم للإنفاق على حاجياتهم الضرورية، وقلما ترى فلاحًا في سعة، يكدحون كلهم طول السنة لتحصيل بُلغة من القوت، وسبب ذلك ضيق ذات يد الفلاح، فهو لا يستطيع أن يحرق الأرض حرثًا عميقًا بأبقاره الصغيرة المهزولة التي لا تُعلف غير التبن، ولا يستطيع أن يتناع آلات زراعية حديثة أو أسمدة معدنية، ويستحيل عليه أن يخزن محصوله بقصد بيعه عندما يغلو ثمنه؛ لأنه في حاجة دائمة إلى المال. والسعيد من الفلاحين من لم يثقل الدين كاهله ومن كان مفلتًا من براثن المتغلبن والمربين.

اتضح للحكومة العثمانية أن الأكارين وأصحاب الأرض في حاجة كبيرة إلى مصرف زراعي يقرضهم المال بفائدة محدودة إلى مدة طويلة. فأسست المصرف الزراعي وجمعت له رأس مال صغير بأن أضافت إلى العشر الذي تستوفيه من حاصلات الأرض ٠.٥٠ في المائة من الربح باسم هذا المصرف، وأنشأت له فروعًا في الأطراف وسنت له قانونًا محكمًا بعد درس واختبار فأقبل الفلاحون عليه أيما إقبال. ولما كان رأس ماله قليلًا فقد لبثت فائدته محدودة، فعسى أن تهتم الحكومة الحاضرة

بتزويد رأس ماله وهو من أنفع أعمالها ولعلها لا تسمح لبرائن الأجنبي أن يناله أذاها.

الخلاصة

الشام فقير جدًا بمعادنه المفيدة من الوجهة الاقتصادية؛ ومعناه أن عدد هذه المعادن وإن كان عظيمًا وكذا أنواعها فهي لا كبير فائدة منها اللهم إلا معدن الحمر في حاصبيا. والأرجاء التي ليس فيها معادن ذات شأن (لا سيما الفحم الحجري الخالص لا اللينيت) لا يمكن أن يكون فيها صناعات كبيرة. ولهذا لا نرى في الشام إلا صناعات يدوية كنسج الملابس الأهلية في دمشق وحمص وحماة وكالمصنوعات الخشبية والنحاسية وغيرها. فالشام إذن لا يمكن أن يكون له عظيم شأن في المعادن والصناعة، وليس له اليوم شأن يذكر في التجارة؛ لكن له مستقبل حسن في قضية الاتجار بالسيارات مع العراق وبلاد العجم عن طريق بادية الشام. ونستنتج من بحثنا عن الفلاحة أن لها في الشام شأنًا غير شأن الصناعة والتجارة. فإذا أحصينا بالمكس مثلًا أنواع الأشياء الأهلية التي تصدر من الشام إلى البلدان الأجنبية نجد أن أكثر من ٩٠ في المائة من هذه الصادرات هي غلات أو مصنوعات زراعية نباتية أو حيوانية. ثم إذا أمعنا النظر في أنواع واردات الحكومة في الشام نرى أن نحو ٥٠ في المائة منها هي واردات زراعية مثل عشر المستغلات والضريبة على الأرض والماشية وواردات أملاك الدولة وواردات الحراج وغيرها. فزراعة القطر الشامي إذن وإن كانت لا تساوي زراعة الأقطار الغزيرة الأمطار أو التي منحتها الطبيعة أنهارًا كبيرة هي الركن الأعظم في حياة هذا القطر الاقتصادية اهـ.

الصناعات الشامية

مواد الصناعات

تتوقف الصناعات في بلد على وجود المواد الأولية فيه، وكان ذلك في القديم أقوى عامل في قيام الصناعات، والمواد الأولية في الشام على حصة موفورة لا ينقصها اليوم إلا الفحم الحجري وبعض الأصباغ. وكانت الشام منذ عرف تاريخها مشهورة بصناعاتها لتوفر موادها المستخرجة من سطح أرضها وبطنها. وتسلسلت الثقافة بها تسلسلاً عجيباً في البيوت الصناعية، وكانت الأمة الخالفة تأخذ عن الأمة السالفة هذه الثقافة والدربة على نحو ما يعلم الصناع أبناءهم. والصنائع كما قال ابن خلدون لا بد فيها من العلم، وإنك لتجدها في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل، وعلى نسبة رسوخ الحضارة وطول أمدتها تكون جودة الصنائع في الأمصار.

إنَّ قطرًا هو معدن الحرير والصوف والوبر والمرعزي والقطن والكتان والقنب يفيض عن حاجياتها وكمالياتها. وفيها الحديد والنحاس والقصدير وغيرها من المعادن، وتوجد في سهولها وجبالها الأخشاب على أنواعها، وتكثر في أرجائها الحيوانات الداجنة والمفترسة، وفيها المياه الدافقة والشلالات البديعة. إن قطرًا يحوي هذه الخيرات لا يحتاج إلا إلى أيدي صناع لصنعها، وعيون عوّدت النظر إلى الجميل واقتباس

النافع منه، ونفوس طبعت على حب التقليد والاحتذاء، حتى تخرج ما به تفاخر، وتعيش من عملها عيشاً غصاً نضراً.

الغزل والحياكة والنساجة

كانت النساجة والحياكة والغزل راقية في معظم ما عرف من أدوار الارتقاء وقلما أخرجت الشام رذالة المتاع وردئه؛ بل كانت تخرج جیده ونفيسه، وكان أهلها ولا يزالون يحسنون غسلها ونفشها ومشطها وحلجها وقتلها ومشقها وحياكتها ونسجها. واشتهر القطر منذ القديم ببزّه وقماشه وديباجه وخزه وبروده وكان للدباجين صناع الديباج والأكسية والمسوح صناعة رابحة، وإلى اليوم لم يبرح حلاجو القطن، ومنهم من يستعمل لها الآلات الإفرنجية الحديثة، ومنهم من اقتصر على القوس والنداف على الطريقة القديمة في الحلج والغزل في مغازل أولية تدار بالأيدي يخرجون بها كل ما يقوم بالحاجة.

أخذت معظم المدن والبلدان حظها من هذه الصناعات، فاشتهرت في غابر الدهر مدينة أعناك في حوران بأكسيّتها الجيدة اشتهارها ببسطها، وعرفت بعلبك بثيابها المنسوبة إليها من الأحزام والمشدات وثوبها المعروف بالبلعبيكي. وتأفقت شهرة الثياب البلعسية نسبة إلى كورة البلعاس من عمل حمص على الأرجح. وعرفت منبج بالأكسية التي كانت تعمل فيها وتنسب إليها فيقال: «الأنبجاني» والأنبجاني كساء صوف له خمل ولا علم له وهي من أدون الثياب. ومن ثيابهم الخميصة الشامية وهي بزّكان أسود مُغْلَم من المرعزي والصوف ونحوه أو كساء أسود مربع له علمان، وقد تكرر في الحديث الشريف ذكر الأنبجاني والخميصة. والخميصة قد تكون من الحرير والبزّكان والبزّكان والبرّكاني والبزّكاني الكساء الأسود وجمعه برانك.

وكان يعمل في صفد من الثياب ما يقال له الصفدية. وتعمل الثياب الحفية نسبة لكورة الحفة غربي حلب. وكان لأهل رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة حذق في عمل الأكسية وكل رجل فيها غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف والنساء ينسجن. وكانت تعمل في الشام الأكسية المربانية قال ابن سيده: يقال كساء مرباني ومؤرنب؛ فالمرباني لأنه لون الأرنب والمؤرنب ما قد خلط في غزله وبر الأرانب، ويقال: بل هو كالمرباني. وكانت تصنع فيخا القطيفة المخملة؛ أي ذات الخمل وهي المخمل.

واشتهرت حمص بمصنوعاتها من ثياب وفوط وغيرها وقيل: إن حمص تتلو إسكندرية مصر فيما يعمل فيها من الثياب الفائقة على اختلاف الأنواع، وحسن الأوضاع، لولا قلة مائه، وقحولة جسمه، مع أنه يبلغ الغاية في الثمن، وإن لم تلحق بالإسكندرية فإنها تفوق صنعاء اليمن. وقال الإدريسي في صور: إنه يعمل فيها من الثياب البيض المحمولة إلى الآفاق، كل شيء حسن عالي الصفة والصناعة، ثمين القيمة، وقليل ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها. وكذلك حماة وطرابلس وحلب. ولكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها في نوع من الصناعة تبرع فيها، وأهم ما كان منها في مدينة دمشق.

فقد ذكر الإدريسي أنها كانت في عصره جامعة لصنوف من المحاسن «وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالحز والديباج النفيس الثمن العجيب الصناعة، والعديم المثال، الذي يحمل منها إلى كل بلد، ويتجهز به منها إلى كل الآفاق والأمصار المصابقة لها، والمتباعدة عنها. ومصانعها في كل ذلك عجيبة، تضاهي ديباجتها بديع ديباجة الروم، وتقارب ثياب دستوا، وتنافس أعمال أصبهان، وتشف على أعمال طرز نيسابور، من جليل ثياب الحرير المصمتة، وبدائع ثاب تنيس، وقد احتوت

طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة، ومحاسن جمّة، فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال».

وقيل: إن اسم «الدمقس» مشتق من اسم مدينة دمشق. ونقل الشاميون إلى الأندلس صنعة الثياب المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان من دمشق فنسبت إليها عندهم وقالوا في فعلها Damasser أي عمل ثيابًا على النمط الدمشقي. قال البدرى: ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش، وهو النسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه، ومنها عمل القماش الأطلس بكل جنسه وأنواعه، ومنها عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه، ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله، وتباين أوصاله، ومنها عمل القماش الأبيض القطني. وكان من أنواع الثياب في القديم ما أنسيناه وأنسينا أسمائه ومنها المنير والمعين والمسير والمفوف والمسهم والمعمد والمعزج والمهلhel والمكعب والمطير والمختل. ولاشتهار دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية الفاتحة بوشيتها وحسن طرازها، عرفت هذه الصناعات باسم المدينة فيقال لها «الداماسكو» والداماسكو ثوب غليظ برسوم جعلت في جسم الثوب ويتفننون في ذلك تفننًا غريبًا ويعملون كل ما يجمع إلى المتانة الإبداع في الصناعة. قال ابن عربشاه: إن الحريريين في دمشق نسجوا لتيمورلنك قباء بالحرير والذهب ليس له درز فإذا هو شيء عجيب. ولما نجحت الصنائع الإفرنجية - وكانت صنائع الحرائر والطرائف تروج زمنًا ثم تنحقر وتكسد - واخترع أحد صناع الإنكليز نسيج الشيت (اليمني) كاد يقضى على صناعاتنا هذه، لولا رجل دمشقي اسمه عبد المجيد الأصفر من أهل هذه الصناعة، فاخترع القماش المعروف بالديما فحال دون النساجة والبوار دفعة واحدة. ثم إن رجلًا اسمه الروماني من أهل دمشق أيضًا، تفنن في المنسوجات الحريرية تفننًا عجيبًا، فلما مات كادت هذه الصناعة

تموت معه، وتغلبت المنسوجات الأوربية على منسوجات حلب وطرابلس وحماة وحمص ودمشق لرخص ثمنها، وكثرة تفننهم في تلوينها، وتغيير أشكالها وطرازها، وإن كان البلى يسرع إليها، وعلى الرغم مما تقدم لم تنفك هذه الصناعة متماسكة أحوالها. على ما أصاب القطر من الأزمات الاقتصادية. ويزعمون أن ما يتعلق بها من الصنائع حتى تصلح وتصير أثواباً، يقرب من سبعين صنعة. تصرف مصنوعات في الشام ومصر والجزيرة، وكانت قبل الحرب العامة تصرف منها كميات وافرة في آسيا الصغرى والروم ايلي، فلما وضعت في العهد الأخير الحواجز الجمركية في وجهها في تركيا عادت إلى الكساد.

ومع هذا لا يزال بعض أهل هذه الصناعة يصنعون الديما وأنواع الحرير والحبر والشال البديع والأعبئة الحريرية للنساء، ما يتفاخر سياح الإفرنج باقتنائهم في بيوتهم، وإلباس أسرهم منه في السهرات وأوقات السمر، على حين كان الناس هنا ولا سيما في المدن يزهدون فيها على متانتها وجمالها؛ لأنهم بلوا بداء التقليد يقبلون على كل ما تأتاهم به أوربا ولو كان فيه بوارهم. وأهل معامل الحرير والقطن اليوم في المجدل من عمل غزة وبירות وبكفيا وزوق مكاييل ودير القمر وبيت شباب والكفير وحمص وحماة وحلب وأنطاكية ودمشق، تعمل فيها الأعبئة والكوفيات والزنانير والملاءات والشراشف والديما والألاجة والنمارق والأرائك والسجوف والشفوف واللحف والبرانس والطبالسة والميازير والبراقع والأزر والجلابيب والقطائف (المخمل).

ومن الصناعات^(١) التي كانت الشام وما برحت تفتخر بها صناعة الشقق الحريرية والقطنية، وهي عبارة عن قماش محوك طوله تسعة أذرع في عرض ذراع. ولصناعه تفنن في نقشه وصبغه، يدل على رسوخ قدم في الصناعة، وذوق جميل فيها، واشتهرت مدن الشام بإتقان تلك الصناعة، ومنها دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس، وأشهرها المسماة بالمصرية والحامدية والحموية والحمصية والحلبية. وتفصيل تلك الشقق على الطراز العربي وهي قطنها وحريرها على غاية من المتانة والجمال. وكانت قديمًا لباسًا عامًا للأهلين فقيرهم وغنيهم رجالهم ونسائهم وقل المنفق منها الآن لاعتیاد الناس اللباس الإفرنجي، ولا تزال مع هذا لباس أكثرية الأهالي يعملون منها القفاطين (القنايين) وتدر تلك الصناعة عليهم أرباحًا وفيرة، وتصدر إلى الأناضول ومصر والحجاز والعراق، ويعد تجار تلك الصناعة من الأغنياء غالبًا. ومن الصناعات الدقيقة الصنع أيضًا الشال القطني والحريري والزنانير والشمالات، وأتقنها ما عمل في طرابلس وبيروت وحلب ودمشق، ومن صناعات الشام الكوفيات الحريرية على اختلاف ألوانها ووشيتها بالقصب الفضي بنقوش ورسوم غاية في الإبداع وسلامة الذوق والمتانة، وما فتئت هذه الصناعات إلى الآن زاهرة رغم مزاحمة الأوربيين بكل ما عندهم من قوة تجارية وصناعية وتفنن وإبداع.

ومن الصناعات التي كانت من متممات اللباس لكنها ضعفت للغاية صناعة المشدات المعروفة بالكمار، وهي تنسج بالصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الخصور، ولا تزال لباس الوطنيين الذين لم يتأوربوا؛ أي لم يتشبهوا بالأوربيين فضعفت صناعتها. وقد أحدث السادة كسم وقباني معملًا لحياكة الحرير في دمشق ضاهيا به ما يصنع من نوعه

(١) استرشدت في بعض الصناعات الحديثة برأي السيدین حسنی العمري ومحمد شخاشيرو.

في فرنسا، وكذلك أحدث السادة توفيق وكامل وسعيد الكحالة معملًا لصنع ثياب الكتان والشراشف ينافس مصنوعات أوروبا، وأحدث السيد أنطون مزنر في دمشق معملًا لصنع الشال الحرير غاية الغايات إتقانًا وجمالًا. وفي دمشق ثلاثون آلة لغسل الحرير على الطرز الحديث. ومما تمتاز به حماة عن سائر المدن الصناعية نسج المآزر للنساء مما يستعمله في الحمام وتسمى المناشف، وما تغطي به الفرش ويسمى الشراشف وينسج بالكتان ويوشى بالحرير من كل الألوان وهو غاية الغايات في دقة الصنعة والمتانة يصدر إلى كثير من جهات العالم. وتصنع حلب من هذه المآزر أنواعًا كانت تضاهي بها المآزر التي ترد من العجم إلى أن بذتها وقامت مقامها. ومن المنسوجات الرائجة أيضًا صناعة الأعبئة فهي من أهم الصناعات على اختلاف أنواعها ومنها الخشنة التي يلبسها الفلاحون، وحياتها غاية في المتانة ولها ألوف من الأنوال في دمشق وحمص وحلب وقرى القلمون، وذلك لتوفر مادتها الأولية ولأنها لباس عامة الفلاحين، ويوجد أيضًا ألوف الأنوال في دمشق وقرية جرمانا وحمص وهي تصنع أعبئة من الصوف النحيف والوبر برسم الأمراء والكبراء ويصدر منها إلى الخارج؛ ولا سيما إلى فارس وبيتاع الحجاج أيام الموسم من دمشق خاصة من تلك الأعبئة ألوفًا وهي مشهورة بحسن صناعتها وعلى غاية المتانة، مع أنها من النسج النحيف الناعم، ومما يدل على ذوق صناعتها تفننهم في ألوانها على اختلاف ضروبها، وفي دمشق وبيروت ولبنان وحمص وحلب من الأنوال لعمل الأعبئة من الحرير وهي على غاية الرواء والجمال والمتانة وفي النهاية من سلامة الذوق بوشيا وألوانها. وتصدر إلى أوروبا وأميركا ومصر وإيران. ومما يؤسف له الآن دخول الحرير النباتي إلى الديار الشامية وصنع العباءة منه مؤثرين له لرخص ثمنه مما يكون منه بعد بضع سنوات القضاء على صناعة العباءة الحريرية في الشام إن لم تتدارك بما يحفظ رواءها.

واشتهرت حلب بالمناديل الحريرية والمقصفة المعروفة بالبوشية وفيها ٥٣ معملًا كما فيها ١٢٤ للخام و٢٤٧ لمنسوجات الغزل و١٥٩ للحريز و٢١٧ للأغباني أو تقليد الزنار الهندي، وصناعة الأغباني في دمشق رائجة كل الرواج وهي عبارة عن قطعة ثوب مربعة طولها ذراعان في مثلهما، تعمل من الحرير الدقيق، لونها أبيض وأدكن، وتطرز بألوان الحرير الجميلة، وبأنواع الرسوم التي قد تعجز عنها ريشة المتفنين من المصورين، وكانت تلك الصنعة مختصة أولاً بالهند تصدر منها إلى أطراف العالم، وكان قليل منها يطرز في حلب ويستعمل للعمائم فقط على قماش قطني وبعض الحرير. وأما الآن فقد تناولتها أيدي جميع الشاميين أذكاء وأكثر من يصنعها النساء يطرزن منها أثوابًا طول الثوب تسعة أذرع وعرضه ذراع واحد، وتعمل منها القفاطين، وهي الألبسة الوطنية في الشام، وفيه اليوم ألوف من الآلات تصنع هذا النوع من القماش، وتسمى القطعة منه -أي ما طوله ذراعان وعرضه كذلك- «سُلك أغباني» وهو يستعمل في الشام غطاء للرأس؛ أي كوفية، وزنارًا، وملفًا للأولاد الرضع، وعمامة، ويصدر منه إلى الخارج كميات وافرة، وله تجار كثار إخصائيون في دمشق وحلب وبيروت وحماة وحمص وطرابلس وفلسطين وجميع المدن الصغيرة، ويصدر إلى الهند وفارس وتركيا والحجاز والعراق ومصر والسودان والصين.

واشتهرت الشهباء بصناعة الأشغال الحريرية المعمولة بالقصب وأقمشة الجوخ المعمولة بالسليم والثياب المفصصة بالجواهر والزبرج؛ أي الزينة من وشي وذهب، ويقال لهذه الصناعة صنعة القصبجية والألتونية فهي ممتازة بعمل الفضوي ومشهورة بالزركشة والتطريز، وعرفت زوق مكاييل بصناعة الوشي وزركشة القصب والنسيج أيضًا، واهتدى صناعتها منذ تسعين سنة إلى رسم الأشكال التي يريدونها على المنوال بالمحواك،

واصطنعوا من الأثاث والأكسية والطنافس ما يأخذ بمجامع القلوب إتيقناً، وعملوا نسائج هذا القز فأبدعوا فيه وأظهروا الصور الشمسية على النسيج فجاءت كأنها لم تمس بيد، صنعوا بها صور العظماء والملوك والأمراء مجسمة، فكانت من أنفُس أَعلاق القصور. وصناعة زركشة القصب هذه كانت راقية جداً في دمشق، وصفها أحد سياح القرن الحادي عشر بقوله: وبياب جيرون على يسار الخارج منه حارة الذهبين، وهي أماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظاً أولاً، ثم لا يزالون يعالجونها بالإدخال خرقاً بعد خرق، وكل ثان أضيق من قبله، حتى تنتهي إلى الرقة، إلى أن تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة وصناعة محكمة، ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيتركب منه القصب المعلوم ونحو ذلك عملهم للفضة اه. وسمى هذه الصناعة البدرى «صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجروح والمرفوع والممدود والمرصوع» وكان القوم يغالون في لبس الأردية والأكسية والمعاطف والسراويلات التي تعمل من هذا القصب على الجوخ ويلبسه المترفون والغرس وأرباب النعيم، وبقاياها اليوم يلبسها الأذنون عند قناصل الدول والرؤساء الروحيين.

الدباغة وصناعات الجلود

كان للدباغة شأن مهم في هذا القطر تعمل من الجلود الأحذية والسروج والمطارح والمقاعد والقرب والروايا والمحافظ والمظاهر والركوات والأدوات وما أشبهها، وكانت أهم معاملته في حلب وفيها اليوم ٤٠ مدبغة على الطريقة القديمة، وفي حماة ودمشق وزحلة ومشغرة والخليل. وتدبغ جلود الثعلب وبنات آوى التي تصلح للفراء في جوار طرابلس وبيروت. ويقدر عدد ما يدبغ من الجلود في الشام بمليون ومائتي ألف جلد منها مليون من المعزى والغنم. وقد أنشأ في دمشق السادة رومية وعمرى معملًا لدبغ الجلود وعمل الشراك والشسوع

للأحذية، فجاءت مصنوعات كمصنوعات أوروبا من كل وجه وزادت عليها رخص أثمانها، فأصبحت تباع حتى في الغرب، ومعظم معدات هذا المعمل الكبير من صنع دمشق، ولم يجلب له غير أدوات قليلة، والصناع كلهم من أرباب هذه الصناعة القدماء، وفي دمشق نحو ٣٠ دباعة على الطراز القديم ودباغات الخليل مشهورة، وأشهر منها صناعة القرب في تلك المدينة، تعمل من جلد الماعز وهي صناعة خاصة بها. وفي عكا معمل جيد للدباجة.

وصناعة الأحذية والسروج والكنابيش والبرادع والرباطات والرشمات من أهم صناعات دمشق وحلب. وصناعة السروج من الصنائع المشتركة في الشام، ومما يعد في جملتها لوازم الحيوانات كالعذر والهمامين «الخراج» والبرادع «المراشح» ويعمل كل ذلك على غاية من الإتقان. ومن السروج ما يصنع وجهه من الجوخ، ويطرز أحسن تطريز بالحرير والقصب. والجلد الذي تعمل منه السروج هو غالباً من دباعة الشام.

ومن صناعة السروجيين أيضاً أحزمة الجلد ويسمونه «قشاطاً» وجعاب رصاص البنادق ويسمونها «جناداً» وأرسان للخيل، وصناديق للسفر من الجلد وغير ذلك من الحاجيات المحلية، ويصدر ذلك إلى الداخلية فقط وهو يضاهي أعمال الأوربيين أنفسهم من ذلك النوع.

وتعمل الأحذية في جميع المدن ومنها ما تستخدم فيه الجلود الإفرنجية المعروفة بلمعانها ومتانتها وحذاءو الشام مشهورون منذ القدم، وأهل الرفاهية والبذخ اليوم يأتون بأحذيتهم من الغرب جاهزة وخصوصاً النساء يرينها ألطف شكلاً وأدق صنعة ويقبلن عليها وإن كانت أغلى قيمة وأقل متانة مما يعمل هنا. ويلحق بصناعة الدباجة أو القرظية صناعة عمل

الأوتار من المصير والمري، وهي نافقة يبعثون بها بعد تحضير قليل إلى معامل الغرب فتعمل منها أوتار الأعواد والقيثارات وغيرها.

تربية دود الحرير

ومن أهم الصناعات تربية دود الحرير (الفيالج أو الشراتق) وهو عمل خاص باللبنانيين وبسكان أرجاء أنطاكية. وكانت مساحة الأراضي التي تغرس التوت الصالح لتربية دود الحرير واسعة أكثر من الآن في أرجائنا. فقد ثبت أن عمالتي وادي التيم والبقاع كانتا كلتاهما مغروستين بشجر التوت. واقتبس أصحاب تربية الدود في العهد الأخير طريقة باستور في تربية دود القز فزادوه إتقاناً. وتصدر منه كميات وافرة إلى معامل ليون في فرنسا وهناك يصلح الإصلاح المطلوب حتى يكون منه الحرير المعهود في نسج الثياب والطرائف. ومن تربية دود الحرير يعيش عشرات الألوف من الناس في هذه الديار. والغالب أن مناخ لبنان وأنطاكية وما إليها وبعض الأرجاء المعتدلة القريبة من الساحل تصلح فقط لتربيته ومنذ القديم لم يحظ الحظ سائر الأرجاء أن تشترك في صنعه. وقد أسس في الزبداني في العهد الأخير معمل لحل الحرير على الطرز الحديث وتصدر مصنوعاته إلى إيطاليا وفرنسا.

النجارة

لم يكتف الصناع في منجوراتهم بأخشاب الشام على كثرتها؛ بل أخذوا يجلبونها من قلقية ورومانيا وغيرها، ومنهم من يجلبونه من أميركا وهو الجوز الأميركي يعتمدون عليه وعلى خشب الحور والجوز والزيتون والشربين والتنوب والميس والعرعر والدردار، وكان اعتمادهم أكثر في القديم على الصندل والصنوبر والسرو. وخشب السرو والصنوبر

كما قال قسطا بن لوقا من أشرف الأشجار التي تستعمل أخشابها في البناء يتخذ منها مصاريع الأبواب والدعائم والسفن، ويستعان بها في كثير من الأمور.

ينشرون الخشب اليوم بمناشير ميكانيكية بالبخار أو بالكهرباء أو بالطرق القديمة فيعمدون إلى أيدي العملة في إحضارها، يصنعون منها مناضد وأصونة للثياب وإطارات ومقاعد وكراسي ومغاسل وصناديق وتواييت ورحالاً وألواحاً لدرس الغلة وأعواد الطرب. وهذه الصناعة صناعة الأعواد قديمة جداً في دمشق ودخلت حلب منذ نحو سبعين سنة. وقد اشتهرت دمشق بصناعاتها التي كانت تعمل من خشب الجوز وتبقى القرون لا تتشقق ولا يسرع إليها البلى ولا تتآكل، وعليها من النقوش ما يدل على ذوق جميل، كما اشتهرت إلى اليوم بمصنوعاتها الخشبية. وفي حلب معملان للنجارة بأنواعها، وكذلك مدينة بيروت فإن معامل هاته المدن الثلاث كادت تستأثر بتجهيز الدور والقصور والفنادق، ومنها ما لا تقل جودته عن أدق ما يعمل من نوعه في الغرب مع الرخص والجودة والمتانة.

وإن ما يسمى بالحلقات في القصور والقاعات القديمة دليل كاف على رقي فن النجارة. فإن القصر أو القاعة يبلغ طوله على الاعتدال ستة أمتار في مثلها عرضاً وارتفاعه أيضاً يتسامى إلى الستة أمتار، فجهااتها الأربع وسقفها مما يشهد للمتقدمين من النجارين بسلامة الذوق وإتقان الصنع، وبيع منجور بعض هذه القصور إذا كانت سليمة من الأوربين بأثمان باهظة، وهو عبارة عن أخشاب فقط. وصناعة الدهان المدهون به ذلك الخشب هو من أبرع الصناعات يشهد بذلك من له أقل إلمام أو ذوق من الناظرين في المحلات الخصوصية عدا ما كان من نوعه في المساجد وغيرها من المحال العامة، وكله يشهد للمتقدمين من النجارين الشاميين

بالبراعة والحدق. والنجارون في الشام اليوم من أشهر نجاري العالم باعنائهم بصنعتهم، والنجار بطبيعته ينبغي له أن يكون ذكيًا، لما يقتضي لصنعة من الإلمام بالهندسة والمساحة وضبط المقاييس والحساب وأن يكون على جانب من سلامة الذوق في الوضع والصنع. فالنجار الذي يخلو من هذه الصفات لا يحق له أن يصير نجارًا. إن هذا النجار الشامي الموصوف أنفًا يعمل بيده وتدل عليه آثاره في البناء الخشبي في دور دمشق وحلب وغيرها وما يسمونه الصلب وغيره من أبواب ونوافذ غاية في الإتقان. ومن صنع النجارين أيضًا قديمًا الصناديق الخشبية ومنها ما هو مغشى بالصدف ومنه ما يسمونه بالحفر. ومنذ نحو أربعين سنة دخلت بيروت ودمشق آلات النجارة الحديثة التي تدار بالكهرباء فاستطاع مديرو المعامل أن يقولوا على بنايات كبيرة لصنع أبوابها ونوافذها بغاية السرعة.

وظهرت صناعة جديدة على الطراز الغربي تسمى صناعة (الموبيليا) أي فرش الدور وتنضيدها ويتناول اسم الموبيليا جميع أسماء الخزائن والمغاسل والمقاعد الخشبية المغلفة بالنسيج الحريري ولوازم غرف النوم وغرف الطعام وغرف الاستقبال، وكل ذلك يصنع في دمشق وحلب وطرابلس وبيروت، وهي تضاهي المصنوعات الأوربية جمالًا وإتقانًا ومثانةً، وتعد هذه المعامل بالثاث، ومما يدل على الذكاء في الصناعة أن تلميذات المدارس الصغيرات يشتغلن اليوم من جملة الأشغال اليدوية على اختلاف أنواعها وأوضاعها ما تقر به العيون ويشر بمستقبل مجيد. وقلما تجد واحدة من النساء إلا وتجد أكثر من صناعة يدوية.

ومن الصناعات التي تمتاز بها دمشق خاصة، صناعة خشبية تسمى اليوم بالمصري، وهي يواقي خشب الجوز اليابس. تفصل حسب المطلوب، وتصل صقلًا تامًا، ويرسم عليها بالقلم عروق غاية في الإبداع، ويحفر على حسب رسم القلم، وينزل به الغراء وفوقه الصدف.

وتقسم قسمين فما كان دقيق الرسم يسمى بالمصري، وما كان رسم عرقه ظاهراً كل الظهور يسمى في عرف الصناع بالعرق. ويصنعون منه أنواعاً، فمنها ما يسمى «بالجاردينيه» وهي أثانة يوضع فيها قحف زهور صناعية، بعرض مترين أو ثلاثة أذرع، ويجعل فوقها إطار من تلك الصناعة النفيسة طوله متران وعرضه متر. وفي داخل ذلك الإطار مرآة وبجانبه من الطرفين جناحان لطيفان لهما رفوف توضع عليها التحف المتنوعة، وفوقها تاج على علو متر أيضاً. وكل ذلك محلى بتلك الصناعة الصدفية يتخلله صباغ أسود قليل يزيد في لمعان الصدف.

ويصنع من تلك الصناعة أشكال وأنواع متعددة منها الأصونة خزائن الثياب ومنها ما يسمى بالعرف بالبيرو (مكتب) وهو عبارة عن أربعة دروج كبيرة فوقها درجان صغيران ويصنع منه إطار للمرأة، وإطارات للصور ومناضد، وجميع ما يصنع من الخشب البسيط. ومنذ خمسين أو ستين سنة كثر طلب هذا الصنف إلى أوروبا. ولكن الحكومة والبلدية لم تأخذا تلك الصناعة تحت رعايتهما فكثر الغش فيها، وصارت إلى البوار وانقطع عنها الطلب إلى الخارج بتاتاً، وهي لا تروج الآن إلا في دمشق وضواحيها تقريباً، ولو غُنت البلدية بمراقبة صناعاتها، وجعلت لهم رئيساً مسؤولاً لدردت تلك الصناعة على دمشق أرباحاً هائلة ولأصبحت أجرة الصانع يومياً نصف دينار وراجت في أقطار العالم أجمع لجمالها ودقة صنعها.

ومن أهم معامل النجارة والفرش معامل الياس جرجي السيوفي في بيروت زرتها في سنة (١٣٣٠هـ ١٩١٢م) ومما قلته فيها: رأيت صورة مصغرة من صورة الغرب في الشرق، وتمثل لي فضل الذكاء العربي، وأنه وإن لم يفق الغربي فليس دونه، وأن يد أبنائنا صنّاع في الأعمال لا يفوقها ابن فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وألمانيا وسويسرا وبلجيكا إلا بأن الإفرنج

يرجعون إلى أساليب في العمل تنقصنا، أو تكاد في أكثر الأصقاع لا تجد لها أثراً بيننا، وهي ترجع إلى أسباب رئيسة مهمة، أولها الصبر على العمل، وثانيها تجويد العمل، وثالثها القدر اللازم للعمل من المال والمعرفة، ورابعها الاقتصاد في الوقت والأيدي العاملة، وخامسها تنشيط الأهلين والحكومات للمصنوعات الوطنية وحماية التجارة الداخلية بقوانين تنفذ على الصادر والوارد، وسادسها وجود المواد الأولية التي يمكن بها الاستغناء عن المواد الخارجية في الجملة.

دلت معامل السيوفي على أن الشرقي بمفرده أمة، وأن الأمة بمجموعها ضعيفة؛ بمعنى أن الشرقي يعمل مفرداً أحسن من عمله مجتمعاً، وذلك لفقد التربية المشتركة بين المشاركة يرجعون إليها وتضم عراهم. فلو كان معمل الغزل في دمشق لفرد واحد منذ إنشائه له خيره وعليه شره، لما اضمحل هذا الاضمحلال الذي نراه عليه، ولو كانت معامل السيوفي في بيروت لشركة لما رأينا فيها هذا النظام والنجاح، وبذلك صبح لنا إثبات ما قدمناه من أن الشرقي أمة بمفرده والأمة ضعيفة بمجموعها، وأن لا سبيل إلى قيام الأعمال الكبرى وأن نقدر لها النجاح المطلوب إلا إذا اتحدت مناحينا وتعلمنا تعليمًا وطنيًا اقتصاديًا واحدًا.

على هضبة من هضاب بيروت الجميلة في حي الأشرافية، في مكان بعيد عن مركز حركة هذا الثغر، يطل على سفوح لبنان وبيروت وعلى البحر الرومي من أخرى، قامت هذه المعامل البديعة في بقعة فسيحة من الأرض تدخلها فتخال نفسك في إحدى معامل الغرب الكبرى، وأول ما يبدؤك بعد الدخول من الرتاج ساعتان عن اليمين والشمال بجانبهما صندوقان معلقان مقسومان إلى بيوت صغيرة، وفي كل بيت مقواة كتب عليها اسم أحد العملة وطبعت عليها ساعات الغدو والغداء والرواح، فمتى وصل العامل بعد الفجر وقبل الإشراق في الشتاء مثلاً يضع مقواته

في بيتها، فلا تلبث أن تكتب عليها ساعة مجيئه والدقيقة التي جاء فيها بحروف عربية، وفي آخر اليوم أو الأسبوع يرجع إليها مدير المعمل، ويحسب المتأخر من المتقدم، ويعدون ذلك بموجب نظام خاص لهم جروا فيه على مثال نظام العمال في سويسرا والبلجيكا والنمسا وألمانيا. ومن قوانين العملة في هذه الممالك اختار مؤسس المعمل أحسن ما يلائم هذه الديار وينفع في نجاح عملته ويعود عليه وعليهم بالربح واقتصاد الوقت.

وهذه الساعة من نفع ما يجب استخدامه في معاملنا ومطابعا ودواوين أعمالنا وبيوتنا التجارية والمالية ودوائرنا العسكرية والملكية ليتعلم قومنا مراعاة الوقت والتدقيق في حسابه حتى يبارك لهم بساعات العمل وأيام الحياة، ويتعلموا أن التدقيق في المواعيد أحد دعائم التنظيم في فروع الأعمال، ومن أهم أساليب النجاح الذي غفل عنه معظم سكان هذه الديار وعدوا من ينظم أوقاته ويدقق في عودته واستقبال خاصته ومن لهم علاقة به في ساعات محدودة متكبرا أو مهوسا.

يباكر العملة في معامل السيوفي في الصيف والشتاء والخريف والربيع على السواء وينقطعون ساعة وقت الظهر، ثم يعاودون العمل إلى قبيل الغروب أو إلى بعده بقليل بحيث لا يتجاوز معدل ساعات العمل في اليوم تسعا بخلاف عملة أوربا، فإنهم يعملون في بعض الممالك كبلجيكا مثلاً زهاء اثنتي عشرة ساعة، ولكثرة الأيدي العاملة وللعادة والإقليم دخل كبير في هذا الاصطلاح.

وفي معامل السيوفي اليوم ٢٨٠ عاملاً مع أن الأدوات التي اقتناها صاحبها تشغل ضعفي هذا العدد فيستفيدون ويفيدون.

أكثر ما يعمل في هذه المعامل منجورات الدور الخشبية وأنواع الفرش وأثاث البيوت تعمل كما تعمل في الغرب وتتأق الأيدي والعيون في تجويدها وتساعدها الأدوات التي تدار بالفحم الحجري وتبلغ نحو الستين آلة ومنها لقطع الخشب وصقله وحفره وتقويره ونقشه وتنشيفه، فترى خشب الجوز والزان من واردات الروم (الأناضول) والاكاجو من كوبا وشوح النمسا وسنديان أميركا والخشب البياسي من قلقية تعمل في تلك الأدوات وتحركها تلك المحركات والآلات كأنها العجيين في يد خبازه أو الملاط بيد البناء الحاذق.

قال لنا صاحب المعمل: إن الآلة الكبرى المحركة في معمله هي بقوة مائة حصان تنفق في النهار ١٣ فرنكاً من الفحم، وكانت الآلات التي هي أصغر منها تصرف من قبل أكثر من ذلك، وبهذا يستدل أيضاً أن نفقات المعامل الكبيرة أدنى إلى الاقتصاد وأعمالها أقرب إلى الجودة من مصنوعات المعامل الصغيرة؛ لا سيما والمعامل الكبرى تتجلى فيها قاعدة تقسيم العمال فتجد العملة في معامل السيوفي مقسومين إلى عدة أقسام؛ قسم الأدوات وقسم النجارة وقسم الحفر وقسم البرдах، وللمحل رسام خاص وكلهم من أبناء العرب ليس بينهم إفرنجي. وتختلف أجرة العامل في اليوم من ستين بارة إلى ستين قرشاً ويحاسب عن أجرته كل يوم سبت من كل أسبوعين في الشتاء ويحاسب في الصيف كل سبت قبل الظهر ليتيسر له الخروج إن أحب إلى الجبل يصرف ليل الأحد وليل الإثنين فيه للنزهة، ويقضى على كل عامل أن يعمل ستة أشهر تحت التجربة أولاً، ثم تحسم من مياومته أجرة أسبوعين تجعل في صندوق المحل حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من العمل كل يوم أو كل أسبوع كما يفعل بعض العملة في المعامل ويتركون أصحابها معطلين. ومن جملة ما شهدته من النظام داخل المعمل قاعة كبرى وموائد يتناول عليها

العملة طعام الظهر، وآلة تضغط النشارة عندما توضع فيها، وهي من اختراع أحد العمال هنا، وتلقي بها إلى مكان بعيد خارج بناية المعمل ومن هناك يبتاعها أرباب القمامين. ومما رأته خارج المعمل من النظام رصف الطريق الموصلة إليه على نفقة صاحب المعمل وغرس بعض الأشجار على جانبيها ويبلغ طولها نحو كيلو مترين.

هذا ما رأته في معامل السيوفي من النظام الذي لا أبالغ بأني قلما رأته في معمل يرأسه شرقي، ولذلك يصفق لصاحبه؛ لأنه بدأ به صغيراً سنة ١٨٨٨ في مدينة بيروت وكبره في سنة ١٩٠٨ في حي الأشرية على الصورة التي رأيناها اليوم ونفقة عمارته وأدواته تساوي خمسة وعشرين ألف ليرة، ولكن لا يتيسر لمن معه مائة ألف ليرة أن يقيم مثله بأدواته ونظامه إذا لم تسبق له معرفة كمعرفة السيوفي ولم يقض سنين مثله في التجارة ويحيط بما جل وقل من أساليب العمل وتجويده. فليت كل أعمالنا تجري على هذا المثال من النظام البليغ والنجاح الأكيد اهـ.

ومما يصح أن يلحق بالنجارة صناعة تنزيل الخشب وتنزيل الصدف أو خشب الليمون فيه، وهذه الصناعات كانت رائجة جداً، ثم عمدت وجدد شبابها صناع دمشق منذ نحو سبعين سنة حتى أصبح ما يعمل منها مما يتنافس في اقتنائه. ونسبت هذه الصناعة لدمشق فيقال لها بالإفرنجية (داماسكينة).

القيانة والحداة والنحاسية

كانت العرب تطرق المعادن في دمشق بإتقان أكثر من إتقان الغرب على ما قال ميشو، واشتهرت كثير من مدن الشام بهذه الصناعة منذ عرف تاريخ القيانة أو القردحة؛ أي صناعة عمل السلاح؛ وذلك لأن الحديد كان يكثر في الجبال ولا سيما في لبنان وحلب. وقد اشتهرت في الجاهلية

سيوف مشارف الشام في أقصى تخوم الجنوب، وكانت تطبع بها السيوف وتنسب إليها فيقال: السيوف المشرفية، وكانت حاضرة المشارف مدينة مؤتة قال كثير:

إذا الناس ساموكم من الأمر خطة لها خطة فيها السهام الممثل
أبى الله للشتم الأنوف كأنهم صوارم يجلوها بمؤتة صيقل

والصيقل هو الذي يجلو السيوف. ونسبت السيوف إلى دياف وإلى بصرى وكلتاهما في أرض حوران فيقولون: للسيوف البُصرية قال الحصين بن الحمام المري:

صفائح بصرى أخلصتها قيونها ومطرذا من نسج داود محكما

والقيون جمع قين صانع السلاح. وسيوف دمشق لا تزال يفاخر بها لتفنن الصياقلة في صنعها، وقد عرفت بصفاء مائها، واخضرار لونها، وإرهاق حدها، ولطف فرندها، وكانت تكتب عليها آيات وأشعار بماء الذهب، وكذلك على الخناجر والرماح، عرفها الصليبيون في القرون الوسطى ونسبوا إلى دمشق وغدوا يفاخرون بتقلدها ولا مفاخرة العرب بالسيوف اليمانية والرماح السمهرية. وصناعة تنزِيل الذهب على السيوف والخناجر والمدى والبنادق كانت من أهم الصناعات الدمشقية ويحسب أربابها من أهل اليسار ويعدون اليوم على الأصابع ولا يسع المنصف إلا أن ينحني إعجاباً أمام جمال هذه الصناعة. وقد نقل الفاتحون من العرب إلى الأندلس صناعة صقل السيوف وهي الصناعة التي نسبت إلى دمشق حتى اليوم ف قيل لها بالإفرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أي تنزِيل الذهب والفضة في الفولاذ، وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner.

وكانت تعمل السيوف في زحلة والشويز ودومة من عمل لبنان وتعمل النبال الفاتقة في عمتا من بلاد الغور. وكانت الدروع تسرد بيد الدارعين والخوذ والسابرية تصنع في دمشق خاصة. ويعمل من الحديد كل ما يلزم من الطبر

والخناجر والمرادن والمغازل والصنارات والأسياخ والعقافات والقيود والزرذ والمباضع والمبازغ والمشارط والآنية، يطرق كل ذلك في كيرة الحدادين وسنداناتهم ويضرب بمطارقهم، وكانت وافية بالغرض.

ومن أهم أعمال صناعة النحاس في دمشق حلقة باب المدرسة الخضيرية في حي الخضيرية، وكذلك الحلقتان اللتان على بابي المستشفى النوري. والأولى من القرن الثامن والحلقتان الأخريان من القرن السادس وهي آية الإبداع والمتانة، وفي هذا البيمارستان أبواب من خشب من عصر صلاح الدين عليها مرايا المفاتيح على طرز الغرب إذ ذاك. وفي مستودع الجامع الأموي بقايا النحاس الذي كان على باب جيرون من أبواب الجامع تصور للمرء نموذجاً من إتقان النحاسين والحدادين لصناعتهم في القديم. وفي بعض مدارس حلب حلقات قديمة من هذا القبيل تدل على مبلغ صناعتها من الحذق وفيها أبواب من الحديد صنعت لبعض البيوت والمدارس القديمة آية الجمال الصناعي. ومن صناعة الحديد أمثلة كثيرة مثل أبواب بعض خانات دمشق كخان الحرير وخان أسعد باشا وخان الزيت وأبواب التكية السليمانية وشبائيكها. وشبائيك المدارس والديارات والجوامع والكنائس القديمة وأبوابها ودرفاتها في دمشق وحلب والقدس والناصرية وبيت لحم ولبنان وغيرها، وكلها تدل على ترقى الحداثة والنحاسة دلالة عظيمة مثل أبواب القلاع كقلعة عكا وحصن الأكراد وغيرهما. ولكثرة الحديد في أرباض حلب عمل كثير من أبواب حلب القديمة من الحديد.

وكذلك قلٌّ عن سائر صناعات الحديد والنحاس وكانت تعمل منها السرج والمصابيح والمواقد والشمعدانات والشبابيك والكتوس والصحاف والزهريات والمباخر والقماقم وأوعية القهوة (الدلات) والألبان والطسوت والموائد والصواني والصحون والمصافي والمغارف والملاعق والقذور، والقدر الشامية كانت مشهورة بكونها لا تنش، والسطول والمساخن والهواوين والمدقات والمناشير والجرار والحقاق والأجراس والنعال والمسامير والمعاول والمساحي والمناجل والمطارق والأقفال والمفاتيح والمغالق والمناصب والملاقط والسكاكين والمدى والمقال والمواسي والمبارد والقيود والجواشن والدروع والصنجات والجُرُز (العمد) والحسك والدرابزون والمناجيق والدبابات.

ومن الصناعات النفيسة صناعة الأجراس الكنائس فإنها تصنع في بيت شباب، واستأثر بهذه الصناعة لبنان من دون أقطار الشرق الأقرب، وقد دخلت صنعتها أرضنا مع الصليبيين على الأكثر، وكانت البيع قبل ذلك تستعمل أجراسًا من الخشب، وما زالت هذه الصناعة محصورة بكثير من الصناعات في أسرة واحدة. ولما جاء حديد الغرب الرخيص السهل على التطريق كثرت أدوات الحديد وتفنن صناعه في صنعه ومنهم من عمد إلى اتخاذ الأدوات الحديثة كمعامل بيروت، ومنهم من اعتمد على الطرق القديمة في تطريقه، وكثير من الأدوات الزراعية كالفتوس والقُدُم (جمع قدوم) والسكك الزراعية والمقاريض وأدوات السيارات تعمل في حلب ودمشق وبيروت والقدس وسائر المدن الشامية. ولا يزال الحدادون على تفننهم حتى يساؤوا معمولات الغرب، والحاجة أم الاختراع.

وقد قامت دمشق في الحرب العامة بصنع أعمال نفيسة من حاجيات الجيش كالقدوم والمنشار والكلاب واللولب والفأس والرفش والقدر

والمركن والمرجل والدلو والبرميل وعجلة النقل والركوب ومحفة الجرحى والمرضى، كنت إذا رأيتهما تظنها لجمالها ومتانتها من صنع الغرب. وقد جلب كثير مما يستعمل في هذه الصناعة من حلب ولبنان وبيروت، ويستعمل فيها الحديد والنحاس والصفائح (التنك) وتوفر الجيش التركي في تلك الأيام على ملء الخراطيش وصنع القذائف والمدمرات واستجادة أحسنها طرازًا وأفعالها في وقت الحاجة وإصلاح البنادق والمدافع ما دل على ذكاء ابن هذه الديار إذا عُلِمَ التعليم العملي المنظم بنظام المعامل الغربية. ولقد صنع أحد مهرة الصناعة مدة الحرب بندقية من الخشب أخف من الماوزر فنال استحسان أهل هذا الشأن في الدولة.

ويصح أن تلحق صناعة النحاسين والصفارين بالحدادة، وكانت في القديم ذات شأن، ولم يبرح في المتاحف والبيوت القديمة في المدن والقرى نماذج من صبرت على ممر الأيام بحالها، وما عمل منذ ستة أو سبعة قرون كثير جدًّا، والقديم أقل منه، وكان ما يصنع منه في دمشق يقال له الظاهري نسبة للملك الظاهر فيما زعموا ولا ندري أي ظاهر هو؛ لأنه كان من المنشطين لصناعته فنسب إليه تحببًا، وما فتئت هذه الصناعة رائجة تعمل من النحاس الثريات والمصابيح والفوانيس والتعليق والجفان والكؤوس والمباخر والقماقم والصحاف والصواني والبطوس والأباريق والصنجات، مصنوعة من النحاس الأصفر منقوشة في العهد الحديث حروفًا لا تقرأ إذ تعاور صناعتها أناس أميون على الأكثر، وكان يطرز ويرقش في القديم بكل معنى جميل. وفي حلب ودمشق وزحلة وبسكتا وبتغرين ودومة لبنان مسابك حديد، يقينون فيها الحديد قينًا جيدًا، والنحاس يعمل في كل بلد للآنية وامتھانات البيوت، وأجله ما صنعه صنّعو الأيدي في دمشق وحلب. ومن أوسع معامل النحاس الأصفر معمل السادة النعسان في دمشق فقد تفنن بصنع الزهريات

والكتوس والثريات وغيرها، والسياح يتنافسون في اقتناء مصنوعاته وكثير من أرباب الثراء في مصر وأميركا وأوربا يزينون ردهاتهم بقطع منه ولا يقل العاملون والعاملات فيه عن مائتي نفس.

وصناعة النحاس المنقوش من الصناعات القديمة في الشام، وكل ما كانت تستعمله قديماً في بيوتها وحوانيتها هو من صنعها، من صحاف كبيرة وصغيرة وبواطٍ على غاية من دقة الصنعة والقديم منها يباع الآن بأثمان باهظة، وبيع من مدة من أحد تجار الآثار القديمة صحنان من النحاس بسبعين ليرة عثمانية ذهباً ويشترى الأوربيون ذلك تقديرًا للفن وخدمة للتاريخ، وفي الشام معامل كثيرة لصنع النحاس المنقوش وله رواج عظيم وهو أنواع كثيرة منها ثريات للتعليق في قصور الملوك والعظماء تزين برسوم جميلة، ومنها ما ينار بالكهرباء ومنها ما ينار بالشموع وصحاف كبيرة وصغيرة، وما يلزم للاستعمال والزينة في البيوت وهو أنواع. والمعقول أن يدوم تصدير هذه الأنواع وتزداد، لما في نقوشها من الإتقان ودقة الصنعة والاعتدال في الأثمان.

الزجاج

من أهم الصناعات التي اقتصت بها الشام من القديم الزجاج؛ صناعة الزجاج. وعدها الثعالبي من خصائص الشام وقال: إنه يضرب به المثل في الرقة والصفاء فيقال: «أرق من زجاج الشام». وقال بعض الحكماء: وارفق بالعدو كما برفق بزجاج الشام، إلى أن تجد الفرصة فيما أن يضربه الحجر فيفضه، وإما أن تضربه بالحجر فترضه، وربما كانت تعمل من هذا الزجاج المناظير للعيون قال أحمد بن محمد الدنيسري القاهري المتوفى سنة (٧٩٤).

أتى بعد الصبا شيبى وظهري رمي بعد اعتدال باعوجاج

كفى أن كان لي بصر حديد وقد صارت عيوني من زجاج

وقد اشتهرت صور منذ القديم بزجاجها، وكان الرمل الذي يعثر عليه في جوارها يزيد الزجاج بهجة ليست له في غيرها من البلدان. وكانت معامل الزجاج في حلب وأرمناز مشهورة تصدر منه إلى العراق ويتباهى به في قصور الخلفاء. واشتهرت معامل الزجاج في عكا إلى القرن الرابع عشر، وعرفت دمشق بزجاجها كما اشتهرت الخليل، فكانت الزجاجاة من صناعتها وهي مشهورة بعمل المصاييح التي تعمل فيها اشتهاها بأساور النساء. وكان الزجاج معروفاً بالدمشقي يتخذ للزخرفة والزينة ومنه والأكواب والآنية على اختلاف ضروبها ويفهم مما وصفه الشعراء مبلغ تفنن الزجاجين بزجاجهم. واشتهرت الرقة بصنع الزجاج. وفي دار المتحف بدمشق مجموعة من الزجاج الملون المنقوش المرقوش، وهي أثمن المجموعات التي عرفت حتى الآن من نوعها. ومن أجمل النماذج في هذه الطرائف البديعة، ومنها الأكواب والأباريق والجامات والسكرجات والمضخات والأقداح والقوارير والكيلان والبواطي، وكانت معاملها في دمشق وحلب والرصافة والخليل وصور وعكا على ما يظهر. وقد انحطت هذه الصناعة حتى انحسرت في دمشق وأرمناز والخليل بأناس فقراء يعملون من الزجاج القناني والبواطي العادية فقط؛ لأن صنع الزجاج النفيس الذي تعمله البنادقة من معاملنا في الحروب الصليبية وتلقنوه عن معامل صور وانتشر صنعه في أرجاء أوروبا بعد أن كانوا يستبضعونه من ديارنا قد نافس هذه الصناعة فقضى عليها أو كاد. وكانت معامل الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموي في دمشق رآها الرحالة بوجيوجي سنة (١٣٤٦م)، وبعد أن كانت معامل عكا وصور مما يضرب بمصنوعاته المثل فقدت أسرار الجمال في هذه الصناعة. وقبل الحرب العامة (١٩٠٨) أنشأ في دمشق السد مسلم العمري معملاً لصنع الزجاج،

أنفق عليه عشرين ألف ليرة عثمانية ذهبًا، وجرب عمله بواسطة صناع غربيين فجاء كالزجاج الذي يجلب من الغرب، ووافق الرمل الذي استعمل لكن المعمل لا يزال معطلًا، وكانت الشركة الوطنية بنته على آخر طرز في شرقي المدينة. وفي الحرب العامة الأخيرة قل الزجاج المجلوب من معامل الغرب فهب أرباب معامل الزجاج في دمشق وبيروت وأخذوا يصنعون الأكواب والصحون والأقداح من كسرات الزجاجات القديمة فسدت بعض حاجة الناس.

الدهان

ومن الصنائع الدهان، وكانت مما تمتاز به بعلبك. قال في مسالك الأبصار: ويعمل في بعلبك الدهان الفائق من الماعون وغيره، ولكن دمشق وحلب وغيرهما من المدن حيث كان للرفاهية أسواق نافقة، لم تكن دون بعلبك في هذه الصناعة، فكان يدهن الخشب والحجر ويبقى بحاله القرون الطويلة. ومن يدخل قاعة من قاعات دمشق وحلب مثلاً يرى الألوان زاهية باهرة كأنها نقشت الآن، وفي دمشق اليوم قاعات وأبهاء وأواوين مضى عليها زهاء مائتي سنة ولا تزال برونقها تدهشك كما يدهش الداخل إلى متاحف الآثار المصرية من نقوش بيان الملوك وبني حسن وسقارة وكتاباتهما ورسومها، وقد مضى عليها قرابة أربعة آلاف سنة، على حين تنصل الألوان المستعملة لعهدنا وتكمد في سنين قليلة.

والسبب في نصول الدهان الجديد، ومواده تأتي من الغرب، أن الدهانات القديمة كانت من صنع القطر ترجع إلى أصل ثابت ويحافظ عليها من المطر والشمس؛ لأن الأقدمين لم يكونوا يعنون بفتح الطيقان والنوافذ وتوسيع الأبواب مثل المحدثين، ولذلك صبرت الأصباغ على الأيام، زد إلى ذلك عنايتهم في تخير الأخشاب وأكثرها من الدف الرومي

أو الجوز أو السرو وهذه مما يصعب تطرق التشقق والبلى إليه كالكريش والشوح وفيه مواد قطرانية أو غيرها، وكانت لهم في دمشق صناعة من الدهان تعمل من الحفر والتنزيل ويقال لها: الأبلق وهي أن يرسم الدهان الحجر مما يريد من الأشكال والنقوش ويحفرها النقاش والحفار، ثم يدفعها إلى الدهان فيدهنها بصبب الأصباغ في الشقوق التي يريدونها ثم تجلى وتصل فيجيء صبغها كأنه من أصل الحجر ثابتاً براقاً، ولا يعمل منه شيء اليوم.

وفي دمشق أسرة عرفت بأسرة الدهان اختصت بصناعة الدهان الذي يقال له العجمي، كما اختصت بصنع هذا الأبلق. وتصنع هذه الأسرة مناضد وخزائن واسكمالات بهذا الدهان المعروف بالعجمي من النوع المقرنص تكون آية الإبداع وحسن الذوق ويتنافس في اقتنائها العظماء لتزيين قصورهم وتبقى السنين الطويلة زاهية زاهرة. وقد دهنت عدة قاعات فجاءت آية الإبداع. وذكر الغزي أن أحد شبان حلب تعلم في أميركا صناعة الدهان على الأصول الحديثة، فجاء عمله غاية في الرونق والإتقان. والمنتظر تعميم هذه الصنعة على هذا المنوال مع مراعاة المعرفة القديمة فيها.

هذا في دهان الغرف والأبهاء والقاعات، وأما صبغ الثياب والحريز والقطن

والغزل، فكان الاعتماد فيها على أصباغ لهم جميلة يعرفونها، ربما كان أكثرها من تركيبهم أو من معادن القطر. وكان للصبغ الدمشقي صيت بعيد في الأقطار؛ لثبوت ألوانه ولطافة لمعانه، وكانت أصباغه معدنية ونباتية لا غش فيها فلما تغلبت الأصباغ الغربية بطل استعمال القديم منها بل نسي أمره واعتيى عنه بالحديد. وجودة الأصباغ القديمة كانت السر

في اشتهار الديباج الدمشقي قديمًا حتى أوشكت لطافته أن تجري مجرى المثل. وفي حلب اليوم نحو ٣٠ مصبغة بالنيل و٥٦ مصبغة للغزل والحريز، وفي دمشق مثلها ونحوها وكذلك في كل بلد بحسب حجمه وأرباضه.

وكان من أصباغهم الأصفران؛ أي الزعفران والورس، والبرفير أو الفرفير وهو الأرجوان (أحمر وأزرق) وكان ولم يزل للنيل الذي يخرج من الحولة أو يؤتى به من الهند، شأن في صبغ ثياب العملة والفلاحين. وانحطت هذه الصناعة تبعًا لانحطاط أكثر الصناعات، لما جاءت الأصباغ الألمانية الحديثة حتى إن بعض معامل ثياب الحرير ترسل حريرها إلى الغرب ليصبغ ويعاد إليها، فتعمل منه الشقق والثياب وتوشى على ما يشاءون، والوشي في الثوب كالرقش في القرطاس والنقش في الحائط، ويحاولون أن تكون ألوانها ثابتة لا تنصل.

الفخارة والقيشاني

وصناعة الفخارين اشتهرت بها الشام أيضًا، وكان في صور الخزافون المبدعون في الأعصر القديمة، وكذلك في كفر طاب، وكانت تعمل فيها قدور الخزف وتجلب إلى غيرها ومنها نموذجات لطيفة حفظت في داري الآثار في دمشق وبيروت، وكان ولا يزال يعمل من الخزف القلل والخوابي والأجانات والدوارق وأصاصي الزهور وغيرها، يصنع ذلك في حلب ودمشق وطرابلس وبيت شباب وصيدا وبيروت وغزة وعيتا وراشيا (ويقال لهاتين البلديتين عينا الفخار وراشيا الفخار) وصناعة الفخار على كثرة منافسة الخزف الغربي لها لا تزال متماسكة؛ لأنه لا يتيسر جلب كل شيء من الخارج. وأجمل الخزف اليوم ما عمل في حلب من الصيني الجميل.

ومن الصناعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر البلدان على ما علمنا، صناعة القيشاني التي دثرت وكانت مورد ربح، وعنوان فخر ومباهاة. ترصف بها الجدران والمحاريب والفساقي والسلسبيلات والباذهنجات والقماقم والزهريات والقلل وغير ذلك. وكان يصنع على ما يظهر من الرمل الأبيض والجبس يجبلان معًا ويفرغان في قوالب على الشكل المطلوب، وتكتب على سطوحها آيات وأحاديث أو أشعار، أو ترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة، ويذر عليها مسحوق الزجاج، أو تطلّى به ممدودًا بسائل غروي، وتشوى في تنور معد لذلك، فيسيل الزجاج ويكسوها قشرة رقيقة تقيها من الغوائل والمؤثرات زمنيًا طويلًا، وتظهر النقوش والكتابات زاهية بألوانها الطبيعية. وفي سلسبيل جامع الدرويشية بدمشق نموذج منه أرخ بسنة (٩٨٢)، وقطعة أخرى كانت على قبر لطفي باشا أرخت بسنة (٩٩٨) وهي محفوظة بدار الآثار بدمشق، وقد كتبت عليها الآية الكريمة: {كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون} بخط تعليق مشرق وفي أعلاها رحمة المولى عليه كل حين. ولا تزال في بعض الجوامع والمدارس من هذا القيشاني العجيب نماذجات تأخذ الأبصار.

وكان في المسجد الأقصى مصنع للقاشاني له كامل الأدوات وذلك في عهد سليمان القانوني العثماني؛ وهو أول من استعمل القاشاني في زخرفة خارج قبة الصخرة، ولا تزال بعض قطعه محفوظة في المسجد. ويوجد الآن مصنعان فيها لرجلين أرمنيين أتيا القدس من كوتاهيه، وكانت هذه من أشهر معامل القاشاني في الدولة العثمانية، ويشغل المصنعان بالصنف من القاشاني الذي يرغب الفرنج في اقتنائه وهي جيدة بعض الشيء؛ لكنها لا تحاكي الأنواع القديمة. ويؤخذ تراب هذا النوع من مطحون حجر الصوان يسحق بآلة بخارية قوية.

ومن أجمل النماذج من القيشاني بدمشق عمودان منه على طول متر في محراب جامع التبان في المداخلية جوار باب الفرج، ومنه نموذج كثير ويظن أنه حديث في تربة جامع المرادية، وفي مدخل السويقة في مدرسة أقوش النجيبى كتبت عليه آية الكرسي بالقيشاني البديع. وفي تكيّتي السلطان سليمان وسليم وفي قبر في زقاق القرشي بالميدان كتب عليه هذا قبر الجنين الطفلين يونس وفرج، محفوظ في إدارة الأوقاف، والقيشاني في جامع تنكز مكتوب عليه آية التوحيد، وفي مدفن بلال الحبشي الصحابي ١٤٦ قطعة من القيشاني المعمول في كوتاهية.

ولا يعلم تاريخ اندراس هذه الصناعة، والمشهور أنها كانت خاصة بأهل بيت يتوارثون صنعها خلفاً عن سلف، فدفثوا ودفثت معهم منذ أكثر من قرنين. أخبرني أحد أساطين العلم أنه رأى القيشاني في جامع الدرويشية بدمشق مصبوعاً على الأحجار طبقة لطيفة وهو في غاية الحسن. ويظهر أن المادة القيشانية كانت تمد على الحجر كما تصنع صفائح وألواحاً. وقد قام في العهد الأخير في كثير من المدن أناس لعمل الخزف الملون لتبليط البيوت دعوه بالقيشاني وهو لا يشبه القيشاني إلا بالاسم فقط. وانتشر وعم استعماله في الشام كلها ونقل إلى الأصقاع المجاورة.

الوراقة

فقدت الشام عدة صناعات كادت تكون خاصة بها، وتعد في جملة موارد عيشها، ومنها الوراقة صناعة عمل الورق. فقد كانت من الصناعات التي تعدّها من حاجياتها. وكانت العرب تكتب أولاً في أكتاف الإبل والحجارة الرقيقة البيض وعسيب النخل، بعدما كانت الكتابة في الأديم والرقوق على ما قاله المقرئزي. وفي أيام بني أمية عمل الورق من الكتان

وسمي بالخراساني. والغالب أن الشام أخذت في صنع الورق في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة ومنبج قبل هذا التاريخ. وعامة المؤرخين من الفرنج على أن الورق من اختراع أهل (الصين سنة ١٢٣ ق.م) ونقل صنعه أسرى من الصين إلى سمرقند في سنة (٧٥١) وفي سنة (٧٩٤م) أسس معمل للورق في بغداد ثم في دمشق، ويظهر من بيت طرفة في معلقته أن القرطاس ينسب للشام والبيت:

وخذ كقرطاس الشامي ومشفر كسبت اليماني قده لم يجرد^(١)

وأن القرطاس كان يعمل في الشام على عهده أو قبله خلافاً لما قاله مؤرخو الفرنج، وأن الورق من صناعات الجاهلية. وكان يرتفع منه كميات من دمشق ومن طبرية على ما ذكر ذلك المقدسي. وقد تعلم صنع الورق في دمشق أسيران فرنسيان على عهد الحروب الصليبية، فلما عادا إلى ديارهما نشرا صناعته في فرنسا، ومنها انتقل إلى جميع أوربا، فلدمشق على فرنسا بل على المدنية بأسرها الفضل الأول في تعليم هذه الصناعة للغربيين، وناهيك بأنها أهم صناعة نشرت العلم والأفكار في العالم. وقد حمل الشاميون الوراقاة إلى الأندلس وصقلية في جملة ما حملوه من صناعته، على نحو ما حملوها إلى شمالي إفريقية. وكانت شاطبة من مدن الأندلس تصدر منذ سنة (١٠٠٩م) الورق بكثرة ويحمل منها إلى سائر أرض الأندلس.

وكان الورق يصنع أشكالا في مكابس صغيرة، ويعمل من الخروق البالية أو الحرير واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة (٧٠٦م) رجل اسمه يوسف بن عمرو، ولا يزال في خزانة دار

(١) في جمهرة أشعار العرب أنه شبه خدها بالقرطاس؛ وهو الورق من جهة الشام، وشبه مشفرها بالجلد المدبوغ بدباغ القرظ لئله.

الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة (٢٦٦هـ) على ورق يظن أنه من الورق الشامي وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته. وقال الرحالة ناصر خسرو: إن الكاغد الجيد الذي كان يصنع في طرابلس يشبه ورق سمرقند إلا أنه أحسن صنعًا. وذكر القلقشندي أن الورق المعروف بورق الطير؛ أي الورق الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة حمام الزاجل، وهو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام. وهذا هو الورق الرقيق، والورق القديم أشبه بالبردي أو الرقوق بمتانته. ولا نعلم في أي زمن انقرضت هذه الصناعة. وحدثني أحد علماء حلب أن الورق كان يصنع في الشهباء وأن حيًا من أحيائها لا يزال اسمه الوَزَاقَة حيث كانت معامل الورق. والورق الحلبي الصقيل المتين مشهور إلى عهدنا.

وقد قام في أوائل هذا القرن رجل بيروتي من بيت الباحوط، فأسس معملًا مهمًا في أنطلياس على ساحل البحر، وأصدر ورقًا جيدًا كورق النمسا وفرنسا، لكن معامل الورق في الغرب أرخصت صادراتها من الورق إلى الشام فاضطر هو أن يُنزل أيضًا ثم خفضت السعر ولم تنزل تخفضه، حتى قضت على هذا المعمل النافع في زمن أصبح المجلوب من الورق كل سنة يساوي عشرات الألوف من الدنانير إلى الشام، وأصبح الورق حاجة من حاجات المدنية.

المرايا

المرآة (بكسر الميم) ما تراءيت فيه أو رأيت فيه صور الأشياء وجمعه المرآئي والكثير المرايا وصنعها من صناعات هذا القطر كانت تصنع في صيدا على ما قال بليونس وتصدر إلى الخارج، وقد وجدت في خرائب بومبي ألواح كبيرة من الزجاج وكانت مرايا الأقدمين من صفائح المعدن،

وهي المعروفة عند العرب بالوذائل واحدها وذيلة، اتخذوها بادئ بدء من مزيج القصدير والنحاس ثم من الفضة خالصة أو ممزوجة بمعدن أدنى، ومنها مرايا من الذهب، وقد اطلعنا على مرايا من الشَّبه والفضة استخرجت من أرض حمص. وهذه الصناعة مما تعلمه البنادقة على ما يظهر من الشاميين وانتقل إلى الغرب ثم تنوسي عمله عندنا. وكان يرتفع من فلسطين خلال القرون الوسطى المرايا وقدر القناديل في جملة ما يحمل منها من أنواع الصناعات.

الصياغة

ومن أهم الصناعات القديمة التي لم تبرح على شيء من العناية الصياغة صياغة الذهب والفضة والتفنن في تصويرها ووضع الأحجار الكريمة عليها، وكانت تعمل هنا أكلة الجواهر وأقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت والشنوف والخواتيم والدمالج والقلائد والأطواق والخلاخيل على أشكال ورسوم جميلة. والغالب أن المصنوعات المزيفة من الصياغات الأجنبية نازعت هذه الصناعة وزاد كسادها اختلاف شروط الحياة في هذا العصر عما كانت عليه في الأعصر السالفة، وصارت رفاهية القرون الخالية مما يتعذر على ابن هذا الجيل إلا قليلاً. فصياغة الحلبي كما لا يخفى من الصناعات اليدوية الدقيقة جداً، وهي تحتاج إلى ذكاء ومهارة لتغير أوضاعها وأشكالها بحسب ذوق كل عصر ورغبة أهله، وهي تقسم كما أكد العارفون إلى سبعة أقسام رئيسة؛ الأول ما يحلى به الرأس وأعظمها شأنًا ورواء ما يسمى بالتاج، وهو عبارة عن دائرة من الذهب الرقيق، يختلف شكلها بحسب الزمان مرصعة بأحجار الماس المختلفة حجومها، وهي إجمالاً من أحسن ما صنع لتزيين رعوس السيدات، ويوجد اليوم أسماء كثيرة وأنواع عديدة لما يزين به الرأس، منها ما يسمى

بالمشط، والبرش، والقمر، وكثير من أشكال الطيور والحشرات، كل ذلك من أبدع الأشكال والصور مرصع بالجواهر الكريمة.

ومما تزدان به الصدور من الحلي أنواع متعددة أيضًا منها ما يدعى بحسب صورته وأشكاله مثل «قلب، حبة، فراشة زنبقة، غزال، دبوس، كردان، ضفدع» كل ذلك جميل في صنع ذهبه وترصيعه، وتناسب تركيب أحجاره يدل على رسوخ قدم في تلك الصناعة، وغالب ما تزين به النحور عقود اللآلئ ومما تحلى به الزنود أساور الذهب الدقيق الصنع ويرصع غالبًا بفص واحد كبير الحجم ورسمه على الأكثر حية أو أفعى، ومما تحلى به المعاصم ويسمى أساور ترسم على أشكال متعددة من الذهب، وترصع بأحجار ماس، ولها بحسب أشكالها أسماء متعددة منها «حبة، برغي، ماس، سحب، عصافير» وغير ذلك. وكلها بما فيها من دقة صنع تدل على سلامة ذوق صناعها.

وحلي الأنامل وهو ما يسمى بالخواتم، وعامتها من الذهب ويركب عليها غالبًا فص كبير الحجم من الماس أو الياقوت أو الزمرد أو الفيروزج أو فصوص صغيرة متناسبة الوضع، ولها أسماء متعددة منها «مركيز، زيتونة، فريشة، ذو الثلاثة أحجار». ومن أكثر أنواع الحلي الأقراط حلي الأذان وهو أشكال متعددة أيضًا منه ما يسمى قرط كف ماس قفل، طارة، خروسة، عصافير، تركي، بغدادي، حرية، وقرط الطويل، وهو عبارة عن قطعة واحدة من ماس كبير الحجم، معلقة بسلسلة من الذهب، بطول ثلاثة سانشيمات تقريبًا لها خفقان على الجيد جميل.

ويجيد فوقه القرط يلوح شبه نجم خافق خلف القمر

وفي الشام ألوف من صناعات الحلي وتجار الأحجار الكريمة، وليس من بلد في القطر إلا وفيه عدد من أرباب هذه الصناعة النفيسة. ومن غريب

الأمر فيها أنك لا تجد شكلاً راج في بلد إلا تجده قد راج في الشام من أقصاها إلى أقصاها خلافاً للباسهم وبقية أزيائهم.

ولا بد من الإشارة إلى سبب ترقى هذه الصناعة؛ ذلك أن الشام مدينة للفتح العربي بها، فن هذا القطر كما يعلم الباحثون ليس فيه مناجم ماس ولا ذهب ولكن الفاتحين من العرب بعد فتحهم أغلب آسيا وإفريقية وعاصمتهم دمشق هادتهم الملوك، وأغلب هداياهم هي الجواهر الكريمة والذهب حتى امتلأت منها خزائهم، وكان الخلفاء منهم يهدون منها القواد والأمراء والأطباء والشعراء والعلماء والفقهاء فكثرت في أيديهم وزادت بطبيعة الحال في أيدي الصاغة، وتنافسوا في إتقان تلك الصناعة حتى صارت كما ترى اليوم في أعلى درجات الارتقاء.

ويمكن أن يعد في جملة الصياغة طبع الدراهم وضرب الدنانير من النقرة المذابة من الذهب والفضة، فإن الشام كانت من أول الأقطار التي طبعت فيها السكة الإسلامية، وكانت الدنانير تضرب في الجاهلية بأيلة على البحر الأحمر، وفي متاحف دمشق وأوربا نقود ضربت في دمشق وحمص وإيليا وأنطاكية وبعبك وطبرية أيام عمر سنة (١٧) وعليها كلها رسم ملوك الروم، ثم اسم المدينة بالعربية واليونانية.

وكان لهم مهارة في معرفة البهرج والزيوف من النقود الصحيحة ويذهب بعضهم إلى أن الأكسير إذا أضيف مثقال منه على ألف قنطار من الحديد يستحيل ذهباً خالصاً، ولم يثبت ذلك من طريق الكيمياء وما برح الأحمران الذهب والفضة معدنين خاصين، ويمكن أن يعد في جملة هذه الصناعة صناعة لصق المينا بالمعدن، ومنها نموذج في دار الآثار بدمشق. وفي التاريخ العام أن معامل الشام كانت تصنع الخرز والآنية الذهبية ذات الميناء، أما صناعة الجواهر والصياغة فإن ما بقي منها يدل دلالة كافية

على رقي العرب في صنعها. وكانت العرب تحسن قطع الأحجار الدقيقة ونقشها بالرسوم وزبرها بالصور.

صناعة الصدف والرخام

واشتهرت بيت لحم والقدس بصناعة الصدف يعملون منه الصناديق الصغيرة لوضع أدوات الزينة، والمسابع والصلبان والدبابيس والدوي والمقاطع ورسومًا وطيورًا وحيوانات الفيل والأرنب، وما يصنع من خشب الزيتون أشكالًا دليل على رسوخ الصناعة، وتباع في الغرب كميات كثيرة منها، لما فيها من دقة الصنعة وجمال الأسلوب والتفنن في الوضع والشكل، ويتنافس الغرييون في اقتناء هذه المصنوعات ويحبها إليهم كونها من الأرض المقدسة.

وتفرد أهل بيت لحم منذ قرون بصنع أدوات التقوى كالسبح والصلبان وبعض مشاهد التوراة، يصنعونها من عرق اللؤلؤ كما يعملون المرجان وحجر الخنزير أو الحجر المتنن، وهو مؤلف من الطباشير والحرمر المستخرج من بحيرة لوط.

وكانت عكا في الدهر السالف تعمل صنوفًا من حاجيات الكنائس. ولبعض صناع الرخام صنائع دقيقة في دمشق؛ فمنهم من يعمل أحواض الماء من قطع صغيرة، فيها أنواع الرخام الملون، وقد عمل أحدهم خزانة للكتب من أنواع الرخام الملون لا تتجاوز القطعة الواحدة السنتيمتر الواحد فكانت طرفة من الطرائف التي آثروا بها القصر السلطاني في فروع. وهذه الصناعات من الكماليات قلما يرغب فيها حتى الأغنياء أرباب القصور، ولذلك رغب عن صنعها أربابها فكادت تدر. وللبعض الصناعات مهارة في تقليد العاديات القديمة وغيرها من الأعلاق، لا تكاد تختلف عما صنع من نوعها منذ قرون، يقتنيها بعض السياح على أنها من

القديم. وتقليد العاديات مما عمت به البلوى في الغرب اليوم وهي مورد من موارد ربح الفقراء من الأغنياء، وهي تحتاج إلى معرفة زائدة ومهارة غريبة.

السجاد والحصير

ومن أهم الصناعات صناعة نسج البسط، يقلدون فيه السجاد العجمي والتركي، وهو أحط من العجمي؛ لأن هذا السجاد الشيرازي والأصفهاني يصعب أن يدانيه سجاد في العالم لا يكاد يفنى حتى بعد استعماله قروناً، كالأعبثة الشامية تلبس عشرين سنة وهي برونقها ومتانتها. وبحق ما يقولون: إن السجادات والأعبثة أجراء دائمون بلا أجرة. واشتهرت البسط الشوبكية وبسط أعناك في البلقاء وحوران وسجاد دمشق، ومنها المصور بأشخاص ورسوم.

وفي دمشق وحوران وجبل قلمون ولا سيما في جيروود وفي حمص وحلب ألوف من الأنوال، تحيك البسط من الصوف الخالص وكانت تصبغ بالأصباغ النباتية الثابتة من استحضار القطر، فتحفظ بألوانها بعد عشرات من السنين وتصبغ الآن بأصباغ أوربية قليلة الثبات وهي على غاية من دقة الصنعة وتناسب النقوش ومثانة الحياكة بحيث تضاهي أحسن ما يعمل من نوعها في الأقطار الأخرى. ويأتي بعدها صناعة السجاد والطنافس، وتعمل في قرى حمص وحماة وهي المسماة بالحزوري والعدموني، نسبة لقريتي حزور وعدمون، وهي على غاية الجودة والمثانة تعمل من الصوف الخالص، ومما يعاب عليها أنها لم تزل تعمل من لون واحد وهو الأحمر القاني، ونقوشه متشابهة لا تفتن فيها. ودخلت صناعة الطنافس على طريقة أحدث من الطريقة القديمة في حلب وبيروت ودمشق وذلك بدخول جاليات من آسيا الصغرى في السنين العشر

الأخيرة، يحسنون صنعه جد الإحسان، لكن النفوس لا تزال ترغب في سجاد فارس؛ فإنه لا يعادله بمئاته وثبات ألوانه وتصويره ورقشه. وفي بعض قرى قلمون يصنعون من الوبر بسطاً غليظة متينة تستعمل في الضياع والبوادي، وتوضع على الأدراج في المدن. ويعملون الجوالق (الشوالات) والعدول على شيء من الجودة والمتانة وكذلك البلاس والمسوح.

وكان نسج الحصر والباري من أفضل الصناعات تقوم بالحاجة. واشتهر أنه كان «إلى جانب طبرية غابة حلفاء ورفقهم منها، أكثرهم ينسجون الحصر ويفتلون الحبال» وقد رأى ناصر خسرو في القرن الخامس حصراً من هذه الحصر الطبرانية تستعمل للصلاة وتساوي الواحدة منها خمسة دنانير مغربية. وقد ضعفت هذه الصناعة بانهيال البسط الإفرنجية والحصر اليابانية الرخيصة، ولكن القرى وكثيراً من المدن ما زالت تعتمد على المصنوع منها في أرض الوطن والحصر البيروتية مشهورة بحسن نسجها ولطافة ألوانها ومتانتها التي تفوق البسط الإفرنجية كثيراً.

الصناعات المحدثه

ومن أهم الصناعات المحدثه صناعة القرميد وهو صنو الآجر القديم تقررمد به السطوح، وفي لبنان واللاذقية وبافا معامل منه وفي سنة (١٩١٨) أسس رجل فرنسي في اللاذقية معملاً لعمل القرميد، والقرميد الآجرة العظيمة. ويعمل في هذا المعمل الفخار الصيني وبلاط الملاط لجودة التراب الخزفي في تلك الأرجاء، وفي القدس معمل للقيشاني أو البلاط الملون. ومن الصناعات الجديدة صنعة لفائف التبغ تصنع منها كميات مهمة في حمانا وبكفيا وزحلة وبعض قرى بيروت الساحلية وتعمل منها كميات عظيمة في فلسطين ودمشق وحلب. وقد استفادت فلسطين في

الأيام الأخيرة من الإكثار من زرع الدخان استفادة عظيمة وأخذت تصنع من اللفائف ما يقوم بحاجتها وتبيع منه إلى الخارج. ومنها صناعة الطباعة وصنع الصور والحفر على النحاس والزنك، وفي بيروت أحسن مصانعها ودمشق تقلدها. ومن الصناعات المحدثه صنع الجليد وأهم معاملته في بيروت وحلب وطرابلس وصيدا واللاذقية ودمشق وحيفا ويافا والقدس وهو يقوم مقام الثلج الطبيعي في التبريد. وكان الثلج السماوي يدخر إلى آخر أشهر الصيف بحاله وكان هذا ينقل في القرون الوسطى على البغال من صيدا وطرابلس إلى قلعة الجبل بالقاهرة في ثلاثة أيام لتبريد المياه في قصر الملك وعظماء الدولة هناك. وفي حيفا معمل للأسمنت المسلح يستخرج من حجر الجبل المتاخم لها ومعمل للبنزين والسبيرتو. وقد أنشئ معملان للأسمنت أحدهما في شقة قرب طرابلس والآخر في دمر قرب دمشق ونجحا نجاحًا باهرًا. وفي كل من عكا ويافا معمل للثقاب (الكبريت) ومثله في دمشق. وأهم ما دخل مجددًا من الصناعات صناعة الجوخ في دمشق أنشئ لصنعه معملان أحدهما شرقي المدينة والآخر غربيها، وأنشئ فيها معمل لحفظ الفواكه والثمار والبقول نجح نجاحًا كبيرًا، وأسس في حلب معمل عظيم للنسيج أتى بأعظم الأرباح وسد حاجة البلاد في الحرب الأخيرة.

هذه أهم الصناعات الشامية وغالب الصناعات «تبدل عليها أيدي الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناعات حتى يتم» وقد أفاض صاحب قاموس الصناعات الشامية بتعداد هذه الصناعات والحرف في دمشق خاصة على اختلاف أسمائها وضروبها فبلغت نحو ٣٤٠ حرفة وصناعة. ولابن الصائغ الدمشقي منظومة في ثلاثة آلاف بيت في الصناعات قال ابن جماعة: واعلم أن هذه الصناعات استخرجها الحكماء بحكمتهم، ثم تعلم الناس منهم بعضها وصارت وراثه من الحكماء

للعلماء، ومن العلماء للمتعلمين، ومن الأستاذين للتلامذة، ومن التلامذة للصناع. وكان ولا يزال لكل حرفة زعيم أو نقيب أو شيخ أو عريف، ويسمى شيخ الحرف كلها بسلطان الحرافيش، ثم كني عنه احتشامًا بشيخ مشايخ الحرف والصنائع. وكان لأرباب الصنائع ترتيبات أشبه بالنقابات الصناعية في الغرب ولذلك دام رواجها طويلًا. في العهد الأخير نقبت الصناعات النقابات على مثال النقابات الصناعية في الغرب، وأصبحت أصوات العمال تسمع ويزيد صدها رنة كلما كثر الصناع.

تأثير الصناعات في الماديات والأخلاق

قلت من خطاب في الصناعات يوم الاحتفال بافتتاح الدباجة الوطنية الفنية (٥ كانون الأول ١٩٢٤م - ١٣٤٣هـ) لقد فقدت معظم الصناعات ويا للأسف وآخر ما سيفقد منها صناعة النسيج الضرورية النافعة، فقد كانت صادراته من حلب وحماة وحمص وطرابلس ودمشق تسد جانبًا عظيمًا من الموازنة بما تأتي به من الأموال كل سنة، فأصبحت الآن إلى انحطاط ونازعتها الأقمشة الإفرنجية البراقة الدقيقة. قيل: إنه كان في دمشق وحدها ثلاثون ألف نول للنسيج قبل الحرب فأصبح عددها اليوم نحو ثلاثة آلاف، ولا تلبث إذا دامت الحال على هذا المنوال أن تضمحل كما اضمحل غيرها من الصناعات، ويفتقر أربابها ويهاجرون أو يهلكون. وفي كل ذلك خسارة وفجيعة، وأي فجیعة أعظم من الفجيعة بالمال أو الرجال أو بهما معًا.

ومما يجنيه القطر من اجتماع الناس على مثل هذه الأعمال الصناعية تربية الروح القومي فيهم وإصلاح ما أمكن من شئونهم الاجتماعية. وإليكم مثالاً جرى في هذا المعمل يتخذ منه العاقل عبرة. ذكر لي مدير مدبغتنا هذه منذ مدة أن مستشار الأمور الاقتصادية في المفوضية العليا زار

المعمل وسر بنجاحه كل السرور ونشطه بالقول والفعل، إلا أنه بدت منه حركة استغربها، وذلك أنه سأل كثيرًا من العملة عن مذهبهم، وبالطبع فيهم من أهل الأديان السماوية الثلاثة ومن غير الشاميين أيضًا. فاستغربت مع صاحبي هذا السؤال منه ولم أهتد لتعليقه. ولم يلبث المستشار أن زارني من الغد وذكر لي في جملة حديثه سروره بالمذبغة الجديدة، وقال: إنكم معاشر الدمشقيين قد حللتُم مسألة من أعضل المسائل في بلدكم لم نتمكن نحن في بيروت من حلها؛ وذلك أننا أردنا مرة أن نقوم بمشروع صناعي فيها فجاءنا أهل كل مذهب يريدون أن يستأثروا بأكثر المنافع لأبناء طائفتهم. ونحن كنا بالطبع نريد أن يتفجع به من يعمل ويعرف. وهكذا ضاع الوقت في المجادلة على غير طائل ولم نتقدم شبرًا واحدًا في الموضوع الأصلي، وسقط المشروع وهو جنين؛ لأن الناس هناك يريدون أن يقوم بذلك الروح. ولقد سررت أن رأيت في معملكم المسلم والمسيحي والإسرائيلي على اختلاف مذاهبهم. وكل فرد يعيش مع أخيه متساندًا متعاطفًا قلت له: ولذلك استغرب بعض عملة المذبغة سؤالكم ولأمس عن دين من رأيتموه فيه. فقال: ليس في العالم عمل اقتصادي قام على أساس الدين، ولبنان الكبير غريب في حالته هذه فقلت له: هذه قاعدة قديمة سارت عليها دمشق منذ الفتح الإسلامي، فكل من يحسن عملًا يوسد إليه مهما كانت نحلته. فسرّ لقولي وسررت لتوفيقنا.

بقيت هناك مسألة لا بد من الإشارة إليها وأعني بها تأثير الصناعات في الأخلاق؛ فقد ثبت أن الأقطار التي تكثر فيها الأعمال الصناعية والزراعية أحسن أخلاقًا من غيرها، ويقل فيها المتشردون والثرثارون؛ لأن من طبع العاملين الأخذ بالنافع وترك الفضول على الجملة. ولذلك يضعف الشغب في أرباب الصنائع، وتقل الموبقات المهلكات؛ لأنها لا تبقى للعامل إلا الوقت الكافي لراحته ونومه، وهو على ثقة من أنه إذا لم

يحصر ذهنه في عمله يخرج به صاحب المعمل أو الحقل من خدمته. فالحكومة التي تحب أن يقل الشغب بين من وسد إليها أمرهم يجب عليها أن تفكر ليلها ونهارها في إيجاد أعمال رابحة لهم، وبذلك يقل المتشائمون والمشاغبون والمرجفون والناقمون. وليس أحسن ولا أنجع من هذه السياسة.

لا جرم أن اشتراك أهل البلد الواحد بل القطر الواحد والمملكة الواحدة في عمل اقتصادي مما يرفع مستوى القومية أيضًا ويلقن الناس معاني التكافل الوطني. فقد رأينا في الدهر السالف سكان الجنوب وسكان الشمال من فرنسا يقتتلون ويتحاربون ولم تنقطع شأفة الفتن من بينهم إلا عندما اشترك الجنوبي مع الشمالي في الأعمال الاقتصادية، فأصبحت مصلحتهما واحدة وارتفع النزاع من بينهما وأحسا أنهما أبناء أمة واحدة. لذلك نرى إلى اليوم من بقايا تلك الأخلاق أن ابن الشمال يهزأ بابن الجنوب على حين كلهم سواء في مناحيهم ومنازعتهم؛ بل إن أهل شمالي فرنسا لا يعنون بغير صناعاتهم وتجاراتهم على الأكثر ويقل فيهم السياسيون والشعراء الأدباء وهم كثار جدًا في أهل الجنوب كثرة فاضت عن الحاجة.

فيا حبذا اليوم الذي يشترك فيه قاصينا ودانينا، فقيرنا وغنينا، في إقامة الشركات على أنواعها، إحياء لصناعاتنا واستبقاء للبقية التي صبرت على الأيام من ثروتنا. فالزراعة عشر الثروة العامة في العادة، والباقي من أسباب السعادة والنماء ثمرة الأعمال الصناعية. وما السكك الحديدية والبواخر والسيارات والقصور والمصانع الفخمة وكل ما في المدينة من ضروب الراحة والرفاهية مما يلذ وينفع، إلا نتيجة عمل العملة في المعامل، وكل ما نشاهده وندهش به من أنواع الصناعات في أميركا وأوروبا وفي اليابان والصين والهند هو ثمرة التعاون والعلم العملي.

ولذلك ساغ لنا أن نقول: إن كل ما يدفعنا ولو خطوة واحدة إلى الأمام لنقترب بسفينتنا الفقيرة من ساحل السلامة يستحق ثناء الأمة جمعاء ولا رجاء لنا في الحصول على الحاجيات ثم التطلع إلى الكماليات، إلا بتأليف شركات صغيرة بادئ بدء تقوم براءوس أموال وطنية، وتستعمل من الأدوات الجديدة ما لا غنية عنه، تنمو بنمونا في مظاهر الحياة والانبعاث. فنحن لا نقل عن الغربي ذكاء ونشاطاً وإنما ينقصنا التنظيم والتدريب. وفي أرجائنا أكثر المواد الأولية اللازمة في الصناعات لا تحتاج إلا إلى معرفة قليلة للانتفاع بها، والله الموفق والملمهم.

التجارة الشامية

موقع الشام من التجارة وتجارة القداماء

كان من وقوع الشام في طرف آسيا وإفريقية، وقربها من الساحل المقابل لبحرها من أوربا، أعظم مركز تجاري في القديم، ومن أهم ما حمل أبنائها على الرحيل بتجاراتهم، منذ عرف التاريخ امتداد سواحلهم. وكثرة الأخشاب التي تجود في غاباتهم، تساعدهم على صنع السفن المتينة الكثيرة، ثم إن مرونة أخلاقهم تدعوهم إلى الاختلاط بغيرهم، وتقليده وتعلم لغته ومماثلته في عاداته وبهذا كانت شهرة الفينيقيين الذين استولوا على جزء مهم من تجارة شمالي إفريقية وجنوبي أوربا، وبلغوا جزائر بريطانيا، وأقاموا لهم مكاتب تجارية في كثير من سواحل هذا البحر المتوسط وبحر الظلمات، وما زال الفينيقيون أعظم أمة تجارية بحرية في الدهر السالف، ينقلون إلى الغرب حاصلات الشرق وإلى الشرق بعض ما كان يعمل في الغرب، إلى أن قامت دولتا الرومان واليونان.

عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الأرض، ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين وآشوريين، ولا قبائل الغرب البربرية (الإسبان والغاليون والطلليان)، عهد بركوب البحار وشق العباب. والفينيقيون وحدهم جرأوا في تلك الأيام على تجشم البحر ومعاركة العباب. فصيح أن يدعو من أجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة البيع والشراء، يتناعون من كل شعب سلعه ويقايضونه على غلات

البلاد الأخرى، تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق برًا والغرب بحرًا.

واعتاد الفينيقيون أن يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاثًا؛ إحداها إلى أرض العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبر والعطور العربية واللؤلؤ والأبازير والعاج والآبنوس وريش النعام وقرود الهند، والثانية ترحل إلى بلاد آشور لتعود منها بأنسجة القطن والكتان والحرير والأحجار الكريمة والماء العطر وحرير الصين، وتقصد القافلة الثالثة إلى أنحاء البحر الأسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والأواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال القوقاز.

وكانوا يتاعون محاصيل صناعات الشعوب المتقدمة، ويبحثون في الأصقاع المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل. يصطادون الصدف من شاطئ اليونان، ومنه يستخرجون صباغًا أحمر وهو الأرجوان. وكانت الأنسجة الأرجوانية تستعمل عند الأقدمين كافة ملابس الملوك والأمراء، ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل إسبانيا وسردانية من مناجمهم. وكان القصدير من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الأصفر، وهو مركب من نحاس وقصدير ولا أثر له في أرض الشرق، يرحل الفينيقيون في طلبه، وينشدونه حتى في شواطئ إنكلترا في جزائر القصدير وحيثما حلوا يتخذون الرقيق يتاعونه تارة كما كان يتاع النحاس العبيد في ساحل إفريقية. وينزلون طورًا في إحدى السواحل فجأة فيختطفون النساء والأطفال وينقلون بهم إلى أهلهم ويبيعونهم في القاصية. وإذا واتتهم الحال ينقلون قرصانًا، ولا يتحامون إطالة أيدي التعدي على غيرهم.

وقد أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في الأرجاء التي اتجروا فيها، وهي مراكز للبرد حصينة، واقعة على مرفأ طبيعي يخرجون إليها بضائعهم من البحر وهي في العادة أنسجة وفخار وحلي وأصنام، فيأتي أهل تلك الأقطار بغلاتهم يُقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الأوربيين زنوج إفريقيا. وتقام أمثال هذه الأسواق في قبرس ومصر وجميع بلدان البحر الرومي مثل إقريطش ويونان وصقلية وإفريقية ومالطة وسردانية ومالقة وقادس، وربما أقاموها في موناكو من بلاد الغول، قاله المؤرخ سنيوبوس.

وكانت الشام في الزمن القديم كثيرة السكان زاهرة على ما يظهر، وهي مدينة بوفرة سكانها واستبحار عمرانها، لمركزها الطبيعي وتجارها العجيبة ورباعها الخصيبة، وكان في وسع مصر أن تنازع الشام مكانتها التجارية، بيد أن الحسد المتأصل في الطبقات الدينية والسياسية كان يمزقها ويحول بين المصريين القدماء وبين كل صلة بالشام. فكانت الشام إذاً المستودع الوحيد للعالم المعروف تأتي حاصلات آسيا وإفريقية مع القوافل إلى موانئ الشام حيث تحمل على سفن فينيقية، وأتت أزمان على الشام كانت تخرب بأيدي الفاتحين، وتخرب أيضًا بالحروب المتواصلة بين الممالك الصغرى التي كانت تنازع هذا القطر، فأضاع بها مكانته، خصوصًا منذ تخلصت مصر من نفوذ كهنتها، وغدت منافسة لها بأن جعلت من مركزها الواقع على بحرين مستودعًا سهل التجارة بين أنحاء العالم.

وكان السبب في كثير من الحروب التي نشبت بين الشاميين والآشوريين والبابليين والمصريين، ثم مع ممالك الروم في الغرب، مسائل التجارة على الأغلب وإرادة الشاميين أن يفتحوا صدر أرضهم لتنفذ إليها تجارات جيرانهم أو غيرهم من الشعوب. ومن أهم المدن التي استأثرت بالتجارة في القديم البتراء ثم تدمر ثم حلب ودمشق. وكانت

مدن فينيقية لولعها بالتجارة تترك الزراعة حتى بلغت الحال بأهل صور أن أغفلوا تعهد الأرض وكانوا يشترون مئونتهم من الجليل والسامرة واليهودية، ولما حاصر الإسكندر صور اضطر أن يستجلب أزودة جيشه من هذه الحال.

وذكر ديودوروس أن ثروة الأنباط أصحاب البتراء كانت من الاتجار بالطيوب والمر وغيرهما من العطريات، يحملونها من اليمن وغيرها إلى مصر وشواطئ البحر المتوسط، ولم تكن تجارة تمر في أيامهم بين الشرق والغرب إلا على أيديهم، وكانوا يحملون إلى مصر خاصة القار لأجل التحنيط. ولما استولى الرومان على القطر انتقلت التجارة إلى تدمر وفارس. ووفق الفرس إلى تحويل

التجارة عن مصارفها القديمة إلى أصقاع الفرات والخليج الفارسي. وأخذ الرومان يعنون بإنشاء الطرق المعبدة في الشام، والوصل بين الشام والأقطار الأخرى كالجزيرة والعراق والحجاز ومصر وآسيا الصغرى، ولا تزال إلى اليوم بعض هذه الطرق ماثلة للعيان في صرخد والشرأة والكرك وأيلة وجرش، وهذه كانت طرق البتراء إلى داخل الشام، وكانت أنطاكية ترسل إلى رومية الأصواف والأنسجة والحنطة، والشرق يبعث إليها بأدوات الزينة والرفاهية كالعطور والأبازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والأحجار الكريمة وثياب الصوف والحرير والعبيد السود والحيوانات النادرة؛ ولا سيما القروود فكانت تجلب إلى الإسكندرية من طريق البحر الأحمر أو في النيل وتأتي إلى أنطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام مع القوافل.

يقول بيرين المؤرخ البلجيكي في كتابه محمد وشارلمان: لقد عظم نفوذ الشاميين من وراء الغاية في رومية جاءوها بكثرة وكان عدة من

الباباوات من الشاميين كما كان بعض أباطرة رومية من أصل شامي وإلى الشام تصل قوافل الهند والصين وبلاد العرب، وكان الشاميون يومئذ رجال البحر على نحو ما صار الهولنديون في القرن السابع عشر وبواسطتهم تصدر الأبازير وأعمال الصناعة من المدن الكبرى في الشرق كأنتاكية ودمشق والإسكندرية ... إلخ، وكنت تراهم في كل الفرض البحرية كما كنت تجد منهم جاليات في داخل البلاد. وكان لهم على عهد ملوك الرومان منازل في إسكندرية ورومية وإسبانيا وغاليا وبريطانيا العظمى حتى مدينة كارنوتوم على نهر الدانوب. ثبت ذلك بنصوص العاديات التي عثر عليها. وفي القرن السادس كثر المشاركة في جنوبي غاليا وكان منهم من يستوطنها ولا سيما في الجنوب من أرجائها، وكان سكان أربونة في سنة (٥٨٩) من القرط والرومان واليهود واليونان والشاميين. وكثر سواد الشاميين في نابل

وفي جوار باريز. قال: وكانت الميناء التي نعرفها أكثر من غيرها مرسلية ويظهر أنها كانت فرصة كبرى متنوعة السكان ويبين عن مكائنها تنافس الملوك في الاستيلاء عليها عند تقسيم الإمبراطورية الرومانية، وقد كثر فيها اليهود والشاميون والروم والقوط.

فالتدمريون ومن قبلهم النبطيون غنوا بالتجارة جد العناية؛ لأنها مورد معاشهم وعلة حياتهم، لضعف الزراعة في كورهم، فكانت القوافل على عهد ارتقاء تدمر تحمل إليها من جزائر العرب الذهب والجزع واليشب واللبان والصمغ والصبر وعود الند، ومن العراق اللؤلؤ، ومن الهند أنواع المنسوجات والقرنفل والبهار والحرير الصيني والنيل والضجاج والفولاذ والعاج والآبنوس. كل هذا يأتيهم من طريق القوافل في البوادي والقفار فيحملونه إلى رومية عاصمة الرومان. أما الأرفاق التي تأتيهم من البحر فكانت دون ذلك، قاله رنزال.

وقد اكتشف أمير روسي في سنة (١٨٨٢) كتابة رسمية كتبت بالتدمرية واليونانية يرتقي عهدها إلى سنة (١٣٧) للمسيح فهمت منها أحوال التجارة القديمة ومضمونها تعريف جمركي مطول أصدره مجلس شيوخ تدمر حسماً لفتن وقعت بين التجار وعمال الخزنة، وفيها بيان ما يضرب من المكوس على البضائع والمعاملات التجارية إجمالاً وإفراداً وهي باهظة، فكان كل حمل جمل أو حمار يرد أو يصدر تُضرب عليه أولاً ثلاثة دنانير رومانية (وكان الدينار الروماني يساوي نحواً من ٧٢ سنتيماً) ثم فريضة أخرى تختلف باختلاف جنس البضائع. والبضائع التي ورد ذكرها في هذه الجريدة كثيرة فمنها الرقيق والجَزَر والأرجوانية والزيت العطرية المبعولة في قماقم من الرخام الأبيض، أو في ظروف من جلد المعز، ثم زيت الزيتون والشحم والملوحات المتنوعة والجلود والثياب والأنسجة والغلل المختلفة والأفاويه والأثمار اليابسة كحب الصنوبر والجوز واللوز والعقاقير والملح إلى غير

ذلك. وينقسم كل حمل إلى ثلاثة أقسام حمل الحمار وحمل الجمل وحمل العجلة، وكان ثقل الأول نحو مائة كيلو والثاني أثقل منه بثلاثة أضعاف والثالث يبلغ نحو ألف كيلو. قال دي فوكيه: وكانت القوافل التي تحمل إلى تدمر خيرات المشرق تستخدم من الدواب الإبل والحمير، وإذا وصل التجار إلى حاضرة زنب (تدمر) أنزلوا عن ظهر الدواب الجوالق والأنقال المختلفة وحملوها على العجلات ليوصلوها إلى جميع أنحاء المملكة على السكك والشوارع الرومانية، فإذا بحثت عن أسباب تقدم تدمر وبلوغها ذروة العمران وجدت لذلك سببين: الأول: مرور البضائع بها وإقامتها فيها مدة ودفع المكوس إلى خزنة المدينة، والثاني: شهرة أهالي تدمر دون سواهم بقيادة القوافل في المفاوز والصحاري، فلذلك صارت هذه الحاضرة في القرن الثاني للمسيح أشبه بمرفأ عظيم على بحر

البراري ترسو عند ساحلها تجارة الأمم فتغني خزائنها كما جرى في القرون الوسطى لمدينة البندقية سلطنة بحر الروم. وقد اكتشف علماء العاديات عمودين نصباً للدلالة على مسافة الطريق ميلاً ميلاً عليها اسم زينب واسم ابنها وهبلات. وأول هذين العمودين قريب الجبيل والجسر الواقع على وادي العذار، والثاني برج الريحان شمالي الجبيل.

وكانت الشام أهم محال التحرير ولا سيما صور وبيروت، والشام من أهم ولايات الإمبراطورية الرومانية. وذكر بروكوب عند كلامه على أنطاكية أنها أول مدينة رومانية مهمة في الشرق لغناها واتساعها ووفرة نفوسها وجمالها وعادياتها. وتعجب أنطونين الشهيد من الترف الذي كان على أتمه في أنطاكية ومن عظمة أفامية وبيروت وغزة. وقد اضمحل ذلك على عهد يوستينانوس لأنه أراد أن يضع سعراً وسطاً للتحرير فهلك تجاره وصانعوه وخربت معاملهم. ويرد تاريخ زراعة التحرير إلى القرن الأول للحكم اليوناني على الشام ولا سيما في ضواحي بيروت. قال هيد بعد أن ذكر ذلك: وقد حدا حب الربح تجاراً مسيحيين على أن يبيعوا أبناء دينهم بيع الرقيق لغرب إسبانيا وإفريقية والشام، فاتخذ شارلمان والبابا زكريا وأدريانوس الأول الأسباب لمنع ذلك.

وقد وجدت في غاليا وغيرها من المدن التجارية في الغرب كتابات فيها أسماء الشاميين الذين كانوا يسكنونها للتجارة منذ الزمن الأطول، ومنها ما وجد في جنائي على مقربة من مدينة تريفو ذكر فيها شامي اسمه تيم من قرية عتيل من أهل مدينة قنوات في جبل حوران كان يتجر مع غاليا بما يحمله إليه مواطنوه إلى أرل على سفنهم ومنها إلى ليون فما فوقها من مدن فرنسا.

ولم يكن تجار الغرب يهتمون بالسفر إلى الساحل الشامي لأخذ البضائع اللازمة لهم؛ بل يحمل الشاميون أنفسهم بنشاطهم المعهود تلك البضائع، مع أن حاصلات آسيا كانت مما يلفت نظر الغربيين. واشتهر خمر غزة في فرنسا على عهد الملك كونتران في القرن السادس للميلاد، وحرير الشرق وأحجاره الكريمة تتألف منها زينة العظماء والسادات. قال هيد: إن الشاميين كانوا يرحلون إلى فرنسا على عهد حكومة الميروفنجيين ونزلوا في جنوبي فرنسا مثل ناربون وبوردو بل في أواسطها مثل أورليان وتور وكانت تحمل إلى فرنسا أكياس الأدم من فلسطين. والظاهر أن الشام كان يفوق غيره بأعماله الصناعية والتجارية، وصلات الشاميين محكمة مع الشرق والغرب، وكانت بلادهم على عهد الروم محط رحال قوافل الخليج العربي والخليج الفارسي وأواسط آسيا وهي أهم ولاية تجارية للروم. وفي الحق أن صلاتنا بالغرب زادت لما توطدت أقدام النصرانية في أوربا، وأصبح زوار بيت المقدس يأتون إلى فلسطين أفواجا أفواجا ويحملون معهم شيئا من تجارتهم ويأخذون ما عندنا مما يروج في أسواقهم.

تجارة العرب

العرب أهل تجارة لضعف زراعتهم، وكانوا يوغلون في الشرق والغرب لغرض الربح، وقد كان لهم أسواق يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها عامة قبائل العرب ممن قرب منهم أو بعد، فكانوا ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، وكان يعشرهم فيها أكيدر دومة -وهو ملكها- وربما غلب على السوق كلها فيعشرهم بعض رؤساء كلب، فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر ثم ينقلون إلى سوق هجر، قاله القلقشندي. وما زال يقام في الشام إلى اليوم

في أماكن مختلفة أسواق لبيع المصنوعات والحاصلات أشبه بمعارض هذه الأيام في الغرب. وكانت تقام في دمشق في كانون الأول سوق تعرف بسوق قضيب البان، رواه البيروني، وروى القالي أن قريشًا كانت تجازًا، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، أي تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر وتمكن عنده وقال له: إن قومي تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لي كتابًا تؤمن تجارتهم، فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه، فتباع عندكم فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب. فجعل كلما مرّ بحي من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافًا. والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم من غير حلف، إنما هو أمان الطريق، وعلى أن قريشًا تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون إليهم رءوس أموالهم وربحهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام، حتى قدم مكة فاتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يجوزهم، يوفيههم إيلافهم الذي أخذه لهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلهم قراها، فاتسعت قريش في التجارة في الجاهلية. وهاشم هذا هو جد الرسول مات بغزة فنسبت إليه ف قيل لها غزة هاشم؛ لأن الروم كانوا يقيمون لهم سوقًا في غزة في موسم معلوم وكانت قريش في الجاهلية تحضره وتمتار منه.

وكانت لهاشم بن عبد مناف رحلتان رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم. قال الثعالبي: وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين؛ إحداهما أن ذؤبان العرب، وصعاليك

الأعراب، وأصحاب الغارات، وطلاب الطوائل، كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم، والخصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدراً، كبني طيء وخثعم وقضاعة. وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له. ومعنى الإيلاف إنما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه، ويسوق إليهم إبلاً مع إبله، ليكفيهم مئونة الأسفار، ويكفي قريشاً مئونة الأعداء؛ فكان ذلك صلاحاً للفريقين، إذ كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً. وفي غزة استغنى عمر بن الخطاب في الجاهلية لأنها كانت متجراً لأهل الحجاز.

وخصبت قريش وتاها خير الشام واليمن والحبشة، وحسنت حالها وطاب عيشها، ولما مات هاشم قام بذلك عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب قام بذلك عبد شمس، فلما مات عبد شمس قام به نوفل وكان أصغرهم. وذكر اللغويون من جملة التخريجات في اسم قريش التي كانت سادة العرب جاهلية وإسلاماً، أنها سميت بذلك لتجرها وتكسبها وضربها في البلاد تبتغي الرزق، وقيل لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع وضرع من قولهم فلان يتقرش المال؛ أي يجمعه. وكان ساداتهم على حبههم للتجارة إذا تولوا أمراً من أمور الأمة تخلوا عنها. ففي التذكرة الحمدونية أنه كان لعمر بن عبد العزيز سفينة يحمل فيها الطعام من مصر إلى المدينة فيبيعه وهو واليها، فحدثه محمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم ((أيما عامل اتجر في رعيته هلك رعيته)) فأمر بما في السفينة فتصدق به، وفكها وتصدق بخشبها على المساكين.

وكان الأنباط يحملون من الشام إلى الحجاز الزيت والدّرمك «دقيق الحواري» ويعودون إلى هذا القطر بحاصلات الحجاز. وفي السنة الثانية للهجرة أقبل أبو سفيان بن حرب والد يزيد ومعاوية من الشام في قريب

من سبعين راكبًا من قبائل قريش كلهم كانوا تجارًا بالشام. وكانت تجارة أبي سفيان بيع الزبيب والأدم كما كان الصديق وعثمان وطلحة بزازين. وخافت قريش لما أسلموا من انقطاع السفر إلى الشام للتجارات لمخالفتهم أهل الشام بالإسلام فقال عليه الصلاة والسلام ((إذا هلك قيصر فلا قيصر، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده)) معناه لا قيصر ولا كسرى بعدهما في الشام والعراق، ولا ضرر عليكم، ففويت نفوس العرب على الاتجار مع هذين القطرين وكانوا من قبل يملكون المزارع في الشام ويسيرون وينعمون. واتجر الرسول في الجاهلية وكذلك بعض أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان، ولما رفرف علم الإسلام على الشام اتسعت الدنيا على الصحابة حتى إن عبد الرحمن بن عوف الزهري أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام كان تاجرًا كثير الأموال بعد أن كان فقيرًا، باع مرة أرضًا له بأربعين ألف دينار فتصدق بها كلها وتصدق مرة بسبعمئة جمل بأحمالها قدمت من الشام، وأعان في سبيل الله بخمسمائة فرس عربية، وكان الزبير بن العوام ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة كثير المتاجر والأموال قيل كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فربما تصدق بذلك في مجلسه، وقد خلف أملاكًا بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم، وهذا لم يسمع بمثله قط، قاله الذهبي.

وكانت مراكز صور وطرابلس تقلع من هاتين الفرضتين بالتجارة إلى سواحل خليج القسطنطينية (بحر إيجه) وخليج البنادقة (الأدرياتيك) وبحر بنطس (الأسود) وجزائر قبرس ورودس واقريطش، وكل ما قام به خلفاء المسلمين ووزراؤهم لتسهيل الحج على المسلمين من إنشاء الطرق وإنباط المياه على طول الطريق إلى أم القرى، وإقامة معالم الأمن والراحة فيها للحجاج قد أفاد التجارة.

وكانوا قسموا أرض الشام إلى مراحل وبرد وفراسخ وعُنوا بالأمن من وراء الغاية حتى يتجر الناس. وكانت طريق القوافل إلى مصر على الكرك أو على غزة ورفح. قال ريسون: وكانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة مركز تجارة شبه جزيرة العرب ومصر والشام، وإن العرب رقوا الصناعة البحرية ووضعوا قوانين لحقوق الملاحة واستعاروا بيت الإبرة من الصينيين، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر أي ضبط وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ووضعوا السفاتج المألوفة وردود التمسك وبعثوا روح الحركة في مصارفنا الحديثة، وكنت تراهم حيثما سكنوا مهدوا السبيل وأمنوها، وعمرُوا المرافئ والفرص، وأصلحوا وأنشأوا الفنادق والرباطات ورتبوا سير القوافل الاقتصادية ولم تكن المدن الكبرى غير أوساط تجارية كبرى.

وكان الفرات بن حيان أهدى الناس بالطرق وأعرفهم بها، وكان يخرج مع عيرات قريش إلى الشام وله يقول حسان:

إذا هبطت حوران من رمل عالج فقولوا لها ليس الطريق هنالك
فإنك نلتق في تطوافنا وانبعاثنا فرات بن حيان يكن وهن هالك

ويقول بيكولوتي: إن أربع موانٍ: عكا وبيروت وطرابلس واللاذقية، وخمس مدن داخلية؛ الرملة ودمشق وحماة وأنطاكية وحلب استفادت من التجارة مع اللاتين ولا سيما مع البيزيين والجنوبيين والطسقانيين والبنادقة وكلهم إيطاليون وهذه الجمهوريات الأربع، بيزة وجنوة وطسقانة والبنديقية التي كانت تقسم إيطاليا هي أول من اتجر مع الشام من أمم الغرب وجاراهم بعض تجار من أهل بلجيكا وإنكلترا ثم عدلوا لبعد ديارهم. وكان لهؤلاء الطليان ولتجار أمالفي ومارسيليا مكاتب تجارية في الإسكندرية وفي المدن الساحلية والداخلية في الشام، يقايضون بواسطتها

حاصلات الشرق مع حاصلات الغرب، ولما فتح الجنويون ثم البنادقة جزيرة قبرس زادت صلات الشام مع هذه الجزيرة التي هي على ٩٣ كيلو مترًا من ساحل الشام في طرف جون الإسكندرونة وتعد من الشام. وجعل ملوك فرنسا لهم تاجرًا إسرائيليًا يذهب كل سنة إلى الشرق يتاع منه حاصلات آسيا. وكثيرًا ما كان اليهود سفراء في المفاوضات مع أمراء آسيا.

وذكر ابن خرداذبة أن التجار اليهود الراذائية، وكانوا يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية (الفرنسية) والأندلسية (الإسبانية أو البرتغالية) والصقلية (السلافية) يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا، ويجلبون من الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف يركبون من فرنجة (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالقرما «على ساحل مصر» إلى القلزم «البحر الأحمر» وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية «في حوران»، وأما تجار الروس وهم من جنس الصقلية فإنهم يحملون جلود الخنز وجلود الثعالب السود، والسيوف من أقصى صقلية «بلاد الروس» إلى البحر الرومي والخارج منهم في البر يخرج من الأندلس أو من فرنجة، فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى إفريقية «تونس» ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد.

وكان يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخروب والملاحم والصابون والقوط والجبن والقطن والتفاح والقريش والمرايا وقدور القناديل والإبر والنيل والتمور والحبوب والخرفان والعسل وشقاق المطارح والشبج والكاغد والبز والأرز، ومن قدس «حمص

وحماة» الثياب المنيرة والبلعسية والجبال، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات، ومن مآب قلوب اللوز، ومن دمشق المعصور والبلعيس والديباج ودهن البنفسج والصفريات والكاغد والجوز والقطين والزيب، ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة، ومن بعلبك الملاين. واختصت حلب أيضًا -كما قال ابن الشحنة- بالصابون الذي يجلب منها إلى ممالك الروم والعراق وديار بكر وهو أفخر صابون، ويباع منه بحلب في اليوم الواحد ما لا يباع في غيرها في الأشهر، ومن خصائصها نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش العجمي وأنواع الفراء من السمور والوشق والفنك والسنباب والثعلب وسائر الوبر والبضائع الهندية، فإذا حضر إليها مائة حمل حرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه اهـ. وذكر ابن بطلان من أهل القرن الرابع من عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكانًا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعًا قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن اهـ. وكانت تجارة الشام في هذا القرن والذي يليه زاهرة جدًا، وقد قسم جعفر بن علي الدمشقي التجار إلى ثلاثة أصناف وهم الخزان والركاض والمجهز.

التجارة في القرون الوسطى

كانت مراكب باري تسافر إلى مواني الشام قبل الحرب الصليبية، وقد عقد أمراء سالرن ونابل وجايت وأماشي في سنة (٨٧٥م) معاهدة مع العرب كما عقد صلاح الدين يوسف وجمهورية بيزا معاهدة مؤرخة في ١٥ صفر سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٢م) منح بها البيزنطيين عدة امتيازات خاصة بالتقاضي والمملكة. وحصل الفلورنتيون (أهل فلورنسه) من قايتباي سلطان مصر والشام على عدة امتيازات وكانت هاتان المعاهدتان من

أوائل ما وضع من الامتيازات الأجنبية للأوربيين في الشرق، وكان المقصد منها ترويج التجارة الصادرة والواردة.

قال أحد كتاب الإنكليز: إن عكا بقيت بخليجها الجون الطبيعي الوحيد على طول ذلك الساحل، وكانت مرسى السفن في العصور الوسطى، ولما كثر اعتماد سكان الشام في طعامهم على الأرز عظم شأن عكا؛ لأنها كانت الميناء الوحيد لتوريده، وكان الناس يقولون: إذا أراد «باشا» عكا تضرب المجاعة أطنابها في الشام، ولذلك صار امتلاك عكا ضروريًا لكل فاتح يريد امتلاك القطر، فحوصرت أكثر من سائر مدن الشام وكان اتصال أوروبا بها أكثر من اتصالها بسواها.

كانت التجارة من أعظم العوامل في الحروب الصليبية، وأكثر أمم أوروبا انتفاعًا منها الإيطاليون أهل جنوة وطسقانة والبندقية وبيزا، وهؤلاء كانت لهم قصور في الشام تدل على غنى، وسفن الطليان هي أهم الأساطيل التجارية في القرون الوسطى.

واعتاد الأوربيون بعد الحروب الصليبية حاصلات الشرق، فلم يعد لهم طاقة على الاستغناء عنها، وملك أزمة التجارة في البحر مع الطليان الكاتالانيون والبروفانسيون والقبرسيون والروديسيون، وأصبحت جزيرة رودس بمثابة مالطة وجبل طارق اليوم، وكانت قبرس تهدد شواطئ الشام ومنافذ النيل.

قال صالح بن يحيى: إن مراكب الإفرنج أخذت تتردد إلى بيروت بعد الحروب الصليبية بالمتاجر قليلًا قليلًا. وكانت مراكب البنادقة تحضر إلى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم في شونتين كانتا له إلى بيروت نقلة بعد أخرى، وكان للقبارسة جماعة من التجار يسكنون فيها. أي في بيروت، ولهم خانات وحمامات وكنائس ثم بطل ذلك.

وتكاثر حضور مراكب طوائف الإفرنج وكانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ في بيروت، وهي تبلغ جملة مستكثرة، وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشاذ يوليهم نائب دمشق والمتوفر من المرتبات يحمل إلى دمشق. وذكر لامنس أنه في نحو سنة (١١٣٦م) جاءت مراكب فرنسية عليها تجار إفرنسيون من مرسيليا ثم أخذت بعض مرفأى جنوبي فرنسا كمونبيلية وارل تبعث سفنها، وبذلت جنوة جهدها لتبقى لها الأفضلية في التجارة مع الشام، وكانت عكا المرفأ الأعظم بين الموانئ وقاعدة التجارة ومركز القناصل العاملين، ثم مرفأى صور وطرابلس والسويدية التي كانت تسمى ميناء مارسمةان ثم بيروت. ومنذ القرن الخامس عشر تقدمت بيروت سائر موانئ الشام، وكان تجار الإفرنج يستضعون من ديارنا الحرير والقطن بكميات وافرة والكتان والخام والأنسجة الكتانية والحريرية، وكانت صور لا تزال تتجر بالأرجوان واشتهرت بأنيتها الصينية وزجاجها الفاخر، ويُقبل الأوروبيون على حرير أنطاكية وزجاجها، ويتعاون السكر بالكميات الكبرى من صزر وطرابلس وغيرهما من مدن الساحل، إلى غير ذلك من ضروب الثمار والعقاقير والحشائش الطبية والأفاويه العطرية، وكان البنادقة يجلبون من حلب مقادير عظيمة من القطن والشب والبهار، وخيرات الهند والعجم تندفق إليها. ومبدأ اشتداد صلات الشام مع الغرب منذ الحروب الصليبية. وقد أخذ تجار الإفرنج أنفسهم بفضل صلاح الدين ثم أخلافه من بعده يغدون ويروحون في هذا القطر، والحرب ناشبة بين الفريقين لا يمس أحدهم بأذى، ولا يعتدى على حقوقه، حتى اضطروا الصليبيون أن يعاملوا تجار العرب على هذه الصورة في الأرض التي بقيت في أيديهم إلى آخر مدة الحرب مثل صور وعكا وأنطاكية لا ينال التجار منهم كبير أذى، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في أرضهم، وتجار النصارى أيضًا يؤدون في أرض المسلمين على سلعمهم. وقد تعقد المعاهدات مع

الملوك الإفرنج وتذكر فيها أنواع المتاجر التي يحملونها إلى مواني هذا القطر ومنها الخشب والحديد.

ولم تكن جمهوريات إيطاليا في حرب الصليبيين دولاً بحرية من الطراز الأول بل كانت منظمة بأحسن النظم الجمهورية، ومع هذا فكثيراً ما كانت تشب الحرب بينها حتى تستأثر إحداها بالتجارة في الشام، فكان الجنويون أعداء البنادقة، وكذلك كان الكتلاونيون، واضطر البروفانسيون أن يدخلوا تجارتهم إلى هذه الديار بواسطتهم، وهم يريدون أن يستأثروا بنقل زوار بيت المقدس وأن تمر تجار ما وراء جبال الألب من مثل جوخ الفلاندر في مواني إيطاليا، وتنقل عن سفنهم وتستوفى عنها رسوماً خاصة. ولما احتل الجنويون الماغوسة في قبرس بدأ اللاتين بزيارة دمشق وبقية الشام، وكانت حال التجارة في الدور الثالث من أدوار القرون الوسطى في دمشق على أحسن ما يكون، فكان التجار الأوربيون إذا انتهوا إليها رأوا فيها عدة زملاء لهم من ممالك مختلفة مثل البندقية وجنوة وفلورنسة وبرشلونة وغيرها، فيبيعون ويبتاعون، وكان اجتماعهم في خان برقوق، وقد أقام بعض البنادقة في حماة ومنها كانوا يبتاعون القطن. وكان للأوربيين قناصل في الشام منذ الزمن الأطول وأول قنصل كان للبنادقة في مدينة دمشق سنة (١٣٨٤م) واسمه فرنسيسكو داندللو وكانت دمشق مستقر القناصل، إلا أن لامنس يقول: إن أول ما ورد اسم القنصل في جملة النزلة الجنوبية التي كانت في عكا أواسط القرن الثاني عشر ودعوه أولاً بنائب القمص vicomte vice-comg ثم انتشرت هذه الرتبة في أماكن شتى في النصف الثاني من ذلك القرن وعرف أصحابها بالقناصل وأطلق أولاً على الإيطاليين، وبعد زمن طويل صار للفرنسيين قنصل.

التجارة في القرون الحديثة

كانت حلب في هذا الدور من أول المدن التي اتجرت مع الطليان، وقد أقام لهم البنادقة فيها منذ عهد المماليك قناصل من الدرجة الأولى، وكان البنادقة يتاجرون من مليونين إلى ثلاثة ملايين دوكا مع حلب كل سنة، وقد احتفظت الشهباء بمركزها التجاري المهم فكانت نقطة الاتصال بين الخليج الفارسي والبحر المتوسط. ثم انتشر فيها الفرنسيون ولكنهم اضطروا أن يغادروها للاضطرابات السياسية إلى أنطاكية، كما اضطرت تجار الإفرنج في دمشق إلى مبارحتها إلى صيدا وبيروت وعكا. وفي سنة (١٥٠٧م) عقدت الدولة العثمانية مع فرنسا معاهدة تجارية فكانت سفن فرنسا تأتي إلى مواني الشام ولا سيما طرابلس وصيدا وتأخذ منها حاصلات وتجلب إليها بضائع. وكثر عديد الإفرنج في حلب أكثر من دمشق؛ لأنها أقرب منفذ لاتصال الشرق بالغرب، فكان تجارهم يأتونها من ثغر السويدية يتجرون مع أهلها ويقايضون محاصيلاتهم بمحصولاتها ومحصولات الشرق، ولا سيما الهند وفارس والعراق، وكانت فرنسا والبنديقية أول الممالك الأوربية التي اتجرت مع حلب وعقدت معها الصلات التجارية وأقامت المكاتب، ثم جاء الإنكليز في القرن السادس عشر وتلاههم الهولنديون، وقد تناسل بعض الإفرنج في حلب وارتاشوا وتأثّلوا وعدوا كأنهم من أهلها، وكان البنادقة يتجرون بالبهار يأخذونه من حلب بمقادير وافرة كما كانوا يجلبون منها الشب والقطن.

وكان في حلب وكلاء لتجار الهند وبلاد الكرج والفرس والأرمن وغيرهم، وللبنادقة بين أمم البحر المتوسط موقع ممتاز، ولئن أفقد حلب فتح الطريق البحري إلى الهند الشرقية بعض مكانتها التجارية، فقد كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر زاهرة بتجارتها. وكان في حلب سنة

(١٧٧٥) ثمانون وكالة تجارية لبيوت تجارية أوربية، وأكثر اعتماد الأوربيين على سماسرة من اليهود يتجرون بالصادر والوارد، وكثر تجار الإنكليز فيها منذ عهد ملكهم جاك الأول (١٦١٣-١٦٢٥).

ونما عدد تجار الأوربيين في عكا وصيدا وبيروت ولا سيما في هذا الثغر، فأصبح على ما روى لامنس في القرن الخامس عشر ولا سيما بعد عهد تيمورلنك ملتقى شعوب البحر المتوسط. وكنت تشاهد في بيروت مزيجاً يصعب وصفه من العمائم والطرايش والكوفيات الحرير وأكيسة وبرانس وقفاطين. وفي القرن الثامن عشر اقترح تجار الفرنج أن تعمر ميناء اللاذقية مبنين للحكومة حسن مستقبلها، فلم يقبل المتصرف هذا الاقتراح وقال: ربما أكون غداً في جدة، فلماذا أتخلى عن الموجود وأتطلب مستقبلاً مجهولاً؟

وممن كان لهم اليد الطولى في تنشيط التجارة في هذه الديار فخر الدين المعني الثاني في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة. وكثيراً ما كانت مراكب الإفرنج تأتي لمشتري الحنطة إلى موانئ عكا وصور والرملة وطنطورة وربما بلغت السفن الصغيرة (البرش) الراسية في عكا نحو ١٥٠. ولقد توسع فخر الدين في الامتيازات الأجنبية فسمح للفرنسيين أن يبنوا خاناً عظيماً في صيدا، ولأهل فلورنسة أن يفتحوا قنصلية، فأصبحت صيدا ومينائها أوائل القرن السابع عشر أهم موانئ الشام.

وفي عصر فخر الدين كان يحمل من دمشق إلى الديار المصرية عشرة قافات كما قال صاحب محاسن الشام: وهي قصب الذهب، قبع، قرضية، قرطاس، قوس، قبقاب، قراصيا، قمر الدين، قريشة، قنبريس. ونقل الغزي عن معجم التجارة العام المطبوع سنة ١٧٢٣ (١١٣٦) أن حلب لا تضاهيها بلد بتجارها الذين يقصدونها من أقطار الدنيا، فإن خاناتها التي

لا تقل عن أربعين خاناً لا تزال غاصة بالهنود والفرس والترك والفرنجة وغيرهم بحيث لا تقوم بكفائتهم. قال: ومن خصائصها التجارية وجود الحمام الذي يأتي تجارها بالأخبار من إسكندرونة بثلاث ساعات بسبب تربيته بحلب وحمله إلى إسكندرونة بأقفاص، فإذا طراً خبر علقت البطاقة في رقبة الطير وسرح، فيصير إلى حلب طالباً لفراخه.

وفي كتاب «الشام على عهد محمد علي»: ما زالت حلب ودمشق المركزين العظيمين للتجارة في الشام، وما برحت حيفا وبيروت وطرابلس وأنطاكية وإسكندرونة هي الموانئ التي يكثر اختلاف السفن الأوربية إليها، وهي المحطات الرئيسة لتجارة الشرق، فتأتي قوافل بغداد إلى دمشق وحلب حاملة من العجم التبنك والسجاد، ومن غيرها اللؤلؤ والأحجار الكريمة، ومن الهند الطيب والعقاقير والأفاويه، وفي عودتها تحمل جوخاً وثياباً من عمل أوربة، وألبسة حريرية من صنع دمشق وحلب، وبضائع متنوعة ومصنوعات خشبية وصدفية ونحاسية، وبسوء السياسة المخالفة لما هو جار في أوربا، إذ كان ينشط التجار الغرباء دون التجار الوطنيين، أصبحت معظم التجارة العربية في الشام تجري تحت اسم أوربي. وقبل أن يفتح إبراهيم باشا الشام كان التجار الوطنيون يدفعون إلى الإفرنج ثلاثة ونصفاً أو أربعة في المائة ليتأتى لهم أن يتجروا بأسمائهم؛ لأن الإفرنج لا يدفعون على الأكثر زيادة على أربعة في المائة من كل ما يطلب من المكوس والضرائب، على حين كانت العرب خاضعة لأداء ١٨ أو ٢٠ وربما ٢١ في المائة. وقال: إن عمال إبراهيم باشا كانوا يتجرون ويحتكرون أصنافاً من التجارة.

ولما قلّ الأمن في البحر على عهد نابليون وبسوء الإدارة العثمانية وبثورات الإنكشارية سنة (١٨١٤ و ١٨٢٦) وبزلزال سنة (١٨٢٢ و ٢٧ و ٣٢) ووباء سنة (١٨٣٢) وطاعون سنة (١٨٣٧) خربت تجارة حلب

ودمشق، وكثرت البضائع الإنكليزية التي كانت تباع بأثمان بخسة تجيء من طريق ليفورنا في إيطاليا. وكانت الحاصلات الخام التي تعود إلى الشام معمولة، سبب خراب هذا القطر، مثل حرائر ليون التي أخذت تسحق حرائر دمشق وحلب، وبمنافسة حرائر ليون التي تقلد حرائر دمشق أحسن تقليد وتباع بأثمان بخسة، قضى على صنائع دمشق بعد أن كانت تعمل أكثر من ٤٠٠ ألف قطعة من الحرير والثياب الحريرية الممزوجة بالقطن. وكانت تجارة الحاصلات التي تبتاع بالسلف والسلم، خراب الفلاح الشامي البائس. وكان كثير من تجار الأوربيين يستحسنون هذا النوع من التجارة، ومنهم من كان يمقتها وقد يربح المتجر بها خمسة وعشرين في المائة، ويعلها صاحب الذمة غبنًا، وكان يصل إلى بيروت كل سنة ١٣٤٠ سفينة تحمل ٧٨٤٨ طنًا ويخرج ٨٠٥ سفن تحمل ٥٠٠٥ يخرج منها القطن والحرير والتبغ والإسفنج والقوة والزيت والصابون بمقدار وافر والسمن والكمون والعفص. وتجارة الواردات تبلغ ٤٤٣٦٦٦٧٠ منها نحو ١٥ مليونًا من مصر وتجارة الصادرات ٢٦٨٧٤٢٧٠ منها نحو ١٣ مليونًا لمصر، فكانت الشام تخسر مساهمة نحو ١٨ مليون قرش تسدها سبائك ذهب أو نقودًا، وهذا على عهد الحكومة المصرية. وبعض هذه الصادرات قد بطل إصداره اليوم من الشام.

ولقد تضررت حلب ودمشق بفتح البرتقالين طريق رأس الرجاء الصالح في جنوبي إفريقية سنة (١٤٩٧م)، وكان أول من اكتشفه من البيض الفينيقيون نحو القرن السابع قبل المسيح، وتأذت تجارة حلب ودمشق بفتح الفرنسيين ترعة السويس سنة (١٨٦٨)، وكان من نكبة الشام بفتح هذه الترعة أن انتقل كثير من تجار دمشق وحلب إلى بيروت والإسكندرونة والقاهرة وطنطا وإزمير وسلانيك والأستانة ومانشستر ومارسيليا وميلانو وغيرها من المدن الأوربية والإفريقية والآسيوية، وقد

تحولت تجارة الصين والهند إلى البحر، وبطل عمل القوافل التي كانت تغدو وتروح بين الشرق الأدنى والأقصى، وقلَّ عدد الذين يمرون بدمشق من الروم وغربي آسيا للذهاب إلى الحجاز، وأصبح معظمهم يركب البحر إلى البقاع الطاهرة تخفيفاً من عناء الأسفار في القفار، وانحصرت التجارة الداخلية في حدود ضيقة، وأصبحت لا تتعدى حد المستهلكات، وصار لها مواسم قلما تروج في غيرها، ولما انتظم سير السفن البخارية، وكثر اختلافها إلى مواني الشام، وكانت رحلاتها من قبل متقطعة مختلفة المواعيد، تجرأ الناس على الاتجار وتضاعفت الصلات التجارية بين الشام والأصقاع الإفريقية.

يقول بعض الكتاب: إن التجارة البحرية لم تنقطع في البحر الرومي في القرن الأول للإسلام إلا بما كان يبدو من حركة الأسطول اليوناني، ولكن تجارة الشام أصيبت بالتأخر مع أوروبا لما أصبح للشام منافس كالבصرة التي كانت لقربها من الهند أكثر منافسة للشام.

وظهرت ظاهرة مهمة في الشام منذ نحو ثمانين سنة أثرت فيه تأثيراً كبيراً، وذلك أن جماعة من تجار بيت لحم في فلسطين حملوا مصنوعاتهم الخشبية والصدفية إلى معرض فلادلفيا سنة (١٨٧٦م) فربحوا كثيراً ولما عادوا كثر المقتفون لآثارهم من التجار وغيرهم من أهل الشام، وبدأ الناس بالهجرة طلباً للربح، وكانت الهجرة مقصورة أولاً على سكان الجبال من لبنان وعامل واللكام ثم تعدت إلى سكان السهول، وكان المستأثر بها سكان القرى فتعدت إلى سكان المدن، وكان التجار على الأغلب مسيحيين فأصبحوا بعد من جميع أهل الأديان من الشاميين، ولم يلبث نطاق الهجرة أن توسع، وما نراه في اللبنانيين الشرقي والغربي، وما إليهما من الجبال من الدور والقصور عمر أكثره بدراهم أميركا، ويقدر

اليوم المهاجرون إلى أميركا الشمالية والجنوبية وأستراليا وغيرها من البلاد التي ترحب بالأيدي العاملة بزهاء سبعمائة ألف مهاجر شامي.

وقد ساعد على دوام الهجرة اختلال المجاري الاقتصادية في السلطنة العثمانية، ثم استرسال الحكومات العثمانية ثم المنتدبة في إهمال الحركة الاقتصادية وإلقاء الحبل على الغارب. وقد كان عمال العثمانيين يودون لو هاجر جميع المسيحيين من الشام، لينجوا من دعوى أوروبا في حماية الأقلية ولكن بهجرتهم ضعفت التجارة، وكيف تنجح التجارة في أمة والحكام هم التجار، وقد رأينا من ذلك أمثلة خلال الحرب العامة، فكان عمال الأتراك لا فرق بين الكبير والصغير منهم يحتكرون معظم الحاجيات دع الكماليات، فكنت تراهم كلهم تجارًا يؤخرون الأرزاق عن الجند في ساحة الحرب ويقطعون مواد الحياة عن الرعية، حتى يشحنوا بضائعهم ويغنموا فرصة ارتفاع أسعارها، فاغتنى بذلك كثير من عمالهم ثم افترقوا بعد حين.

على أن بعض البلدان استفادت كثيرًا من الحرب العامة ومعظم المدن التي استفادت حلب ودمشق وبيروت والقدس. قال الغزي: إن التجارة في حلب آخذة بالتقدم منذ ثلاثين سنة، ولذا كثر عدد التجار زيادة عظيمة بحيث بلغ ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل هذه المدة، وكان معظم هذه الزيادة في أيام الحرب العالمية، فإن أرباح التجارة التي كانت في غصونها جرّت العدد الكبير من ذوي الصنائع اليدوية من صنائعهم إلى الاسترزاق بالتجارة فنجحوا وربحوا أرباحًا طائلة، ونشأ من بينهم أصحاب ثروة تستحق الذكر. إلى أن قال: وفي سنة (١٣٤١) بدأ دولاب التجارة يدور ببطء فأخذت الثروة العامة في حلب بالانحطاط لإغلاق الأناضول أبوابه في وجه تجارة البضائع المعدودة من الكماليات وغلاء أجور النقل في

السكة الحديدية وتلاعب الصيارفة والمحتكرين بالأوراق النقدية والنقود الذهبية إلى غير ذلك من الأسباب.

ومن أهم الفوائد التي نتجت للشاميين من تعلم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنكليزية، أن كان من هؤلاء المتعلمين وأكثرهم من غير المسلمين عمال لتجارة الواردات من الغرب. واستأثر المسلمون بتجارة الصادرات فكان منهم تجار شاميون في الإسكندرية وطنطا والقاهرة والسودان والأستانة وإزمير، وكل بلد في الأرض مهما بعدت الشقة إليه ترى فيه تجارًا شاميين، وأنجح تجارهم في مصر والأميركتين وأستراليا. ولنا تجار في العراق والحجاز وفارس والهند ويابان وجنوبي إفريقية وأواسطها على نحو ما وصفنا شاعر النيل حافظ إبراهيم:

ورجال الشام في كرة الأرض يبارن في المسير الغماما
ركبوا البحر جاوزوا القطب فاتوا موقع النيرين خاضوا الظلاما
يمتطون الخطوب في طلب العي ش ويرون للنضال سهاما

ومن أهم المواسم التي كانت في فصل مخصوص من السنة تدب فيه روح الحركة في التجارة موسم السياح، فكان سياح الغرب يأتون أوائل الربيع لزيارة الأماكن المقدسة والمصانع التاريخية في فلسطين وبعلبك وتدمر ودمشق وغيرها ويقدرون بخمسة آلاف سائح كل سنة على الأكثر إلى المدن الوسطى والشمالية وبأكثر من ذلك إلى فلسطين فقط، والموسم الآخر موسم حجاج إفريقية وآسيا وأوربا وكانوا يقدرون بخمسين ألف حاج، والفضل في ذلك يرجع لسهولة المواصلات البرية في السكة الحجازية، ولرخص أجور البواخر في البحر. وموسم الحج بطل بالحرب فنزل معدل من يزورون الشام ويتجرون ويبتاعون. أما موسم فلسطين فإن كثيرًا من تجارها أصبح رزقهم موقوفًا على ما يربحونه

في موسم الزوار في القدس وبيت لحم والخليل والناصرة وغيرها، وبدأ الشرق العربي يربح كثيرًا من السياح الذين يختلفون إلى ذاك الصقع لزيارة جرش وعمان والبتراء وقصر المشتى وغيرها، كما تربح سورية ولبنان من القاصدين إلى زيارة بعلبك وتدمر وغيرهما، وصار لموسم الاصطياف في لبنان الغربي والشرقي مكانة اقتصادية ذات شأن كبير في تنشيط الصناعة والتجارة. ومتى انتشر الأمن في القطر، وكثرت الخطوط الحديدية في البر، والسفن التجارية في البحر، وحمت الحكومة التجارة بقوانينها وأحكامها العادلة، ومعاهداتها مع الأمم المجاورة، انتبه التجار إلى التجدد في متاجرهم. ولا نعد تاجرًا من يحرق مخزنه أو ما فيه ليربح ضمانه من الشركة الضامنة، أو يتلكأ في أداء الذمم التي عليه، أو يضارب في الأسواق فيؤذي الفقير، أو يعامل صاحب المعمل في الغرب بقليل من الذمة فيتلاعب في الأسعار والصوافي، فإن هذا مما يؤخر الصادر عنا والوارد علينا، وفي كل ذلك ما يزيد الغبن ويورث الخسارة في العاجلة والآجلة لا محالة.

ولقد ثبت في العهد الأخير، وخصوصًا لما أخذ المسلمون يجارون مواطنيهم المسيحيين في تعلم اللغات الغربية، ويتقنون أصول التجارة على أساليب أمم الحضارة، ويتعرفون إلى أوضاعهم الجديدة في استثمار أموالهم في مصارف خاصة بهم، أن الغربيين يتعذر عليهم أن يتوسعوا بعد في الاتجار في القطر، وفتح بيوت تجارية على المثال الذي كان لهم وحدهم في القرن الماضي، وقطع أرزاق الشاميين في عقر دارهم؛ ذلك لأن التاجر الوطني أقل من التاجر الغربي في مطالبه، يكفي بالربح القليل، ويصبر في الأزمات، وهو في بلده يعرف ما يصلح له ويروج فيه، ونفقاته إجمالاً أقل من نفقات الغريب. وإذا تساوى الوطني والدخيل من كل وجه، فالوطني يؤثر معاملة مواطنه لا محالة.

وإذا جرى التاجر العربي التاجر الغربي أو كاد، تجلت في ابن الشام أخلاق التجارة، والنفوذ في قاعدة العرض والطلب، وبدا في هذا الميدان ذاك الشرف المغيب الذي كان كامناً في نفسه، وورثه مع الدم المتسلسل فيه من آبائه الأقدمين، عرباً كانوا أو روماً أو فينيقيين، وبذلك أصبح الرجاء معقوداً بأن يستأثر الشاميون بتجارة ديارهم؛ فإن تعلموا باختلاطهم بالأمم الحية ما ينقصهم من ضبط ونظام، وساعدهم على ذلك قلة من يأتي من الغرب من أرباب الطبقات الأولى في التجارة، وكان التاجر المتوسط الحال بماله ومعرفته منهم أقل حظاً ممن يماثله من الشاميين في أسواق المتاجرات، وإذا كان من البعيد على النوابع من كل صنف في الغرب أن يَغشوا بلادنا، كان في ذلك كله النفع العظيم لنا في تجارتنا، ومتى حللنا روح الشامي وما انطوى عليه من مراعاة الشرف والاحتفاظ بالثقة، والبعد عن التدليس والمؤالسة، وإرادة النصح في الجملة، كان التاجر كل التاجر، الذاهب في الأرض بجماع المفاجر، باستقامة تاجرنا في معاملته، يدفع عن وطنه كثيراً من الغوائل الاجتماعية، ولا يهنأ العيش ويطيب، إلا إذا قل توافد الغريب من الجنس الذي قال فيه حافظ:

يَقْتُلُنَا بِـبَلاَقٍ وَدٍ وَلَا دِيَّةَ وَلَا زَهَبٍ
وَمِشِي نَحْسُو رَايَتَهُ فَتَحْمِيهِ مِنَ الْعَطَبِ

التجارة والاقتصاديات في العهد الحديث^(١)

نشبت الحرب العامة سنة (١٩١٤) ولم تكن الشام على استعداد للدخول في غمارها، ولم تأخذ الأهبة الكافية لمقاومة طوائرها، وما لبثت الدولة العثمانية والبلاد الشامية التابعة لها أن دخلت في صفوف المحاربين إلى جانب الدولة الألمانية وحلفائها، فحصرت موانئ الشام،

(١) كتب هذا الفصل السيد لطفي الحفار.

وبدأت أسعار البضائع ترتفع تدريجيًا، وذلك في أصناف الملابس كأنواع منسوجات القطن والصوف على اختلاف أنواعها، أو في المأكولات كأنواع السكر والقهوة والأرز، أو في سائر الحاجيات والكماليات كالبترول (الكاز) والكحول (السبيرتو) وأنواع المواد القرطاسية والزجاجية والأصباغ والمواد الكيميائية على اختلاف أنواعها، وشعر الناس بالحاجة إلى الاقتصاد والتفكير في استجلاب هذه الأصناف من البلاد المجاورة بقدر الإمكان.

وقد اشتدت الأزمة الاقتصادية بفقدان الأيدي العاملة أيضًا من المدن والقرى، بسبب النفير العام والتجنيد في جميع أصقاع الشام، وكان من تخلصوا من التجنيد الإجباري هم الذين لم يتدربوا على التعليم العسكري فدفعوا بدلات نقدية مرات خلال أعوام الحرب. وكانت هذه البدلات تكلف مبالغ طائلة في السنين الأخيرة، وأعلنت الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب (قانون تأجيل الديون) بقواعد مخصوصة أقرتها.

ولم يلبث الضيق أن عمَّ والنقد أن قلَّ وخصوصًا بعد أن وضعت السلطة العسكرية يدها على جميع وسائل النقل في البلاد مثل السكك الحديدية ودواب النقل والمركبات والسيارات، فكانت أسعار الحاجيات تختلف اختلافًا بينًا في بلاد الشام القريب بعضها من الآخر، وذلك بالنسبة للتشدد أو التساهل الذي كانت تبديه الإدارة العسكرية في استخدام أسباب نقل البضائع. انقضت السنة الأولى للحرب فأصبحت دمشق مركزًا للجيش الرابع الزاحف على ترعة السويس. وأنشأ يعقد البيوع العظيمة والالتزامات الكبيرة سد لحاجات الجيش المذكور، فبدأت هذه الأزمة الشديدة بالانفراج، وأخذت إدارة الجيش تساهل باستخدام المجندين في إدارات المتعهدين والملتزمين، ونشطت الحركة التجارية والصناعية في الشام. ولا ينكر أن الجيش الرابع صرف مبالغ طائلة في أسواق التجارة

لضمان حاجاته الكثيرة التي لم يتمكن من تأمينها بطرق الإكراه أو بواسطة الضرائب الحربية التي رأى أنها عقيمة لا تفي بالحاجة، وبعدئذ فكر بعض التجار باستجلاب بعض الحاجات الضرورية التي غلت أسعارها وعزَّ وجودها من بلاد نجد التي كانت تستورد بضائعها من الهند وفارس على أيسر وجه وطمأنينة؛ لأن أمير نجد عبد العزيز ابن سعود كان مواليًا لإنكلترا لا يجد ضيقًا ولا رهقًا في استجلاب البضائع ومواد الغذاء على اختلاف أنواعها.

ولقد كانت هذه الطريقة من أهم الوسائط لسد حاجات البلاد والجيش، ولإيجاد حركة تجارية جيدة كانت تدر ذهبًا وهاجًا على المتاجرين والمستوردين، كما أن كثيرًا من التجار اتخذوا وسائط عديدة لاستجلاب بعض البضائع الألمانية والنمساوية بواسطة رجال الجيش واستخدام وسائطهم لنقل هذه البضائع بالاتفاق معهم، وبتبادل المنفعة بينهم، وبذلك انفرجت الأزمة الاقتصادية التي بدأت في الستين الأوليين من الحرب، واغتنى كثير من التجار والعاملين والوسطاء من رجال الإدارة والجنديّة باستخدام هذه الوسائط في النقل ونقل أصناف التجارة، والبلاد محصورة لم يرد إليها شيء قط من طرقها البحرية العديدة. وكثرت النقود الذهبية في التعامل بما أنفق من إدارات الجيش، وما ورد البلاد من طرق البر من البضائع، وما كانت بريطانيا العظمى تنفقه في أنحاء البلاد المجاورة عن سعة من الذهب الوهاج لتأييد الثورة العربية، حتى أصبحت البلاد في أواخر الحرب على أحسن حالات اليسر والرخاء.

فارتفعت أسعار العقارات والمزارع، وشعر الناس بكثرة النقد الذهب في أيديهم حتى كان المشتري لا يجد من يبيع عقارًا أو أرضًا إلا بثمن فاحش، إلى أن دخلت الجيوش الإنكليزية والعربية هذا القطر تحمل معها الذهب وتنفقه بلا حساب، ويقدر ما أنفقه الجيش الإنكليزي في سنة

(١٩١٩) والأشهر الأولى من سنة (١٩٢٠) في أرض الشام بما يقارب الثلاثة ملايين من الجنيهات المصرية.

الورق النقدي والعوامل في تدني الاقتصاديات

وحدث خلال الحرب أن اتجر كثير من المالكين بأوراق النقد الدولي على اختلاف أنواعه، وأصبح بعضهم يستورده من طريق ألمانيا والنمسا وسويسرا إلى الأستانة، ومنها توزع في أنحاء بلاد العرب مثل الكورون النمساوي والمارك الألماني والشلن الإنكليزي والفرنك الفرنسي والروبل الروسي وأوراق النقد التركية والأسهم اليابانية والعقارية المصرية والأرجنتينية على اختلاف أنواعها، وأصبحت تباع بقيم تنحط أحياناً عن قيمتها الحقيقية ٢٥ إلى ٥٠ في المائة. وتدنى سعر الروبل الروسي إلى ١٠ و ١٥ في المائة، وكذلك المارك والكرون، فأقبل عدد كبير من التجار وأرباب الأملاك حتى والنساء على مقتناها؛ وذلك على أمل أن تعود إلى أسعارها الأولى بعد أن تضع الحرب العامة أوزارها. ويُقدر الخبيرون أن الشام أدت قيمة ما ادخرته من أوراق النقد هذه ما يربو على خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهباً، كان القوم يأمل بيعها بما يقارب أسعارها الأولى، وبذلك يربحون ربحاً عظيماً من أيسر الطرق.

ثم أعلنت الهدنة عام (١٩١٨) وبدأ تجار الشام يستوردون البضائع المتنوعة التي اشتدت حاجاتها إليها من البلاد المصرية أولاً، ثم عقدوا المبيعات المختلفة من أوروبا بأسعار عالية، وقد اضطر أرباب المصانع والمعامل إلى رفع أسعار بضائعهم لعوامل عديدة، ومنها قلة الأيدي العاملة بعد الحرب العامة، وغلاء المواد الأولية للصناعات المتنوعة، وارتفاع أسعار الفحم وأجور المواصلات، وراح الكثيرون بالنظر للحاجة الماسة إلى عقد مبيعات عظيمة من أنواع البضائع المنسوجة والمغزولة

على كثرة أنواعها، ومن الأصناف الأخرى كموايد الزجاج والقرطاس والكيمياء وغيرها فأدت الشام أثماناً باهظة وقيماً فاحشة جداً في ابتياع البضائع المستوردة في سنتي (١٩١٩ و ١٩٢٠) حتى غصت المخازن والمستودعات بهذه الأصناف وضاحت بها الأسواق، وكان لهذا الاندفاع الكلي الذي لا نسبة بينه وبين حاجة البلاد بسبب الأرباح التي كانت تدر أولاً، فعل عنيف وصدمة قوية أصيبت بها الأسواق فكانت من بوادر الضيق وحدوث الأزمات الاقتصادية للأسباب التالية:

أولاً إن الشام ولا سيما دمشق كانت تكثر كميات عظيمة من ورق النقد المختلف الضروب، فطراً عليها النزول العظيم وأصبح قسم منها في حكم المعدوم مثل الروبل الروسي والكرون النمساوي والمارك الألماني وغيرها، وكانت خسارة بلاد الشام بها عظيمة ولم تعوض منها شيئاً.

ثانياً نزول أسعار البضائع المتوالي منذ عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢ وورود كميات كبيرة من البضائع المتنوعة التي ما زالت مخزونة على التوالي عند أصحابها، فطراً النزول التدريجي عليها، وذهب بقسم كبير من ثروة كبار الأغنياء والتجار.

ثالثاً حدث بعد أن دخلت الجيوش الفرنسية إلى المنطقة الداخلية في أواخر عام (١٩٢١) أن وضعت الحواجز الجمركية بين جنوب البلاد وشمالها وشرقها، وكانت من قبل وخصوصاً دمشق مركزاً عظيماً لتصدير البضائع والمصنوعات الوطنية إلى الحجاز وفلسطين وشرقي الأردن والعراق والأناضول فأصبحت بمعزل عن هذه البلاد المجاورة، بالنظر للتبدل السياسي الذي حدث بعد الحرب العامة، وصارت مصنوعات الشام التي كانت تصدر إلى هذه الأقطار حرة لا مراقبة عليها ولا قيد من

القيود الثقيلة والحواجز الجمركية فكاد يقضى على هذه الصناعات وعلى تجارها وعمالها.

الحواجز الجمركية

عقدت المفوضية الفرنسية العليا في الشام اتفاقاً مع المفوضية الإنكليزية العليا في فلسطين يوم ٢٢ أيلول سنة (١٩٢١م) لتأسيس جباية الجمارك على البضائع التي تتبادل هاتان المنطقتان التجارة بها، وإحداث دوائر مكس على الحدود وداخل البلاد لما تقتضيه هذه الجباية، وعلى أثر ذلك اجتمع عدد كبير من تجار دمشق وتفاوضوا قضية هذه الحواجز وأضرارها على التجارة والصناعة، وقر رأيهم على انتخاب لجنة من كبار تجار البلاد مؤلفة من عشرة أشخاص للعمل في هذه القضية، فبدأت اللجنة عملها بأن قدمت تقريراً مطولاً للمراجع الرسمية بينت فيه مقدار الأضرار التي تتأب الشام من وضع هذه الحواجز الجمركية بين جنوبها وشرقها وشمالها خصوصاً الصناعات الوطنية المتنوعة وضمته إحصاء دقيقاً في أنواع هذه الصناعات ومقدار النفوس والأموال والقيم المقدرة للأنواع المصدرة خلاصته أن في مدينتي دمشق وحمص نحو ١٠٢٦٠ نوّلاً يشتغل بها ٤٦٢٦٠ عاملاً، وهذه الأنواع تخرج مقدار ٤٥٦٨٥٠٠ قطعة قماش قيمتها ثلاثة ملايين ليرة عثمانية ذهباً، وذلك للأصناف الآتية فقط: الألاجـه الحريرية والقطنية التركية، الديما، الحامدية الملاءات الحريرية والقطنية، العباءات، الستور على اختلاف أنواعها، السلوكات الأغباني، الشال الحريري والصوفي، والكمـر والمضربات، وفي مدينتي حماة وحلب مثل هذا المقدار من الأنوال والعمال لمختلف الصناعات الوطنية التي هي برسم التصدير إلى الجهات المجاورة. وتابعت بياناتها في الأضرار التي تعود على البلاد وقدمت احتجاجاً مطولاً بينت فيه

الأضرار السياسية والإدارية والاقتصادية التي تنتج من موضع هذه الحواجز الجمركية وخلاصته:

أولاً: إنه ليس من مصلحة سورية وفلسطين إلغاء الاتحاد الاقتصادي وفصل أحدهما عن الأخرى هذا الفصل المضر؛ لأنه يقلل العلاقات التجارية ومبادلات الأعمال بين المنطقتين، وهذا يُفضي بالتدريج إلى انقسام هذه الأمة الواحدة إلى أمتين ويؤدي إلى تباعد المشارب وتباين الأطوار وانحلال الروابط بينهما تدريجاً إلى أن يصبح البون عظيمًا وتضعف عرى الألفة والاتحاد المستقرة الآن، والصلات التجارية والمعاملات المدنية هي العروة الوثقى التي تربط بين الشعوب وتقارب بين القلوب، والحواجز الجمركية هي الضربة القاضية على هذه المعاملات والصلات، ولما كان السوريون لا يختلفون في شيء عن الفلسطينيين كما أن الفلسطينيين يحسبون أنفسهم قسمًا من الشعب السوري العربي فجميعهم لا يرضون بوجه من الوجوه أن تفتح بينهم هذه الهوة العميقة التي تقوض أركان وحدتهم القومية والعنصرية، وتقضي على آمالهم الوطنية ويرجون من الدولتين المحتلتين أن لا تعاونا الدهر على تفريقهم والإيقاع بينهم.

ثانيًا: سلطت السياسية على إخواننا في الجنوب مناظرًا شديدًا وخصمًا لدودًا، ونعني بهم الصهيونيين الذين لا يفتأون يدسون الدسائس لإضعاف الوطنيين وإذلالهم ليتمكنوا من الاستعلاء عليهم واستلاب أموالهم والأخذ بمخنق أوطانهم. وأي وسيلة أنجح لهؤلاء الصهيونيين من تفريق أهالي فلسطين عن إخوانهم في سورية وقطع العلاقات بينهم تدريجًا!

ثالثاً: ما زالت جمارك البر الموضوعة في داخلية البلاد عرضةً لصعوبات عظمى في ضبطها وجبايتها حتى عند أرقى الدول وأقدرها، والقيام بهذا العمل بين سورية وفلسطين شاق جداً لا يستطيع إتقانه ولا تُرجى سلامته، ولذلك أسباب كثيرة لا تسهل إزالتها، منها أن الوسائط النقلية بالقطر الحديدية بين المنطقتين محدودة جداً، والطرق الأخرى مفتوحة على طول الحدود تجتازها الجمال والبغال وسائر حيوانات النقل في الليل والنهار، ولا سبيل لمنع التهريب منها، وقد يكون المهرب من التجارات أكثر مما يمر بإدارة الجمرک فتكون النتيجة أن الذي يتمكن من تهريب بضائعه بدون جمرک يزاحم التجار الأمين الذي يؤدي جمرکها المفروض عليها، ويتعذر بيع البضائع المدفوع رسومها فتضطر الحكومة إلى مراقبة جميع الطرق وإقامة الخفراء على الحدود، وإنفاق الأموال الطائلة في هذا السبيل، وينتج عن ذلك أشياء منها القتال بين المحافظين والمهربين كما هي الحال في مسائل تهريب الدخان وإفساد أخلاق الناس بفتح السبيل أمامهم لمخالفة القانون وارتكاب جريمة التهريب التي تجملهم أحياناً على ارتكاب جرائم أخرى للفرار بأموالهم، إفساد أخلاق المأمورين الذين يتولون أمر المحافظة بفتح سبيل جديد أمامهم لأخذ الرشوة، والاشتراك مع المهربين كما هو المألوف المعروف في الأعمال التي هي من هذا القبيل.

العامل الاقتصادي

ويقال على وجه الإجمال: إن الحاجز الجمرکي بين القسم الشمالي والقسم الجنوبي من سورية يكون سبباً لبقاء عشرات الألوف من الخلق بدون عمل وتتعطل تجارة البلاد وصناعاتها؛ لأن القسم الأعظم من الغزول والمنسوجات الأوربية التي ترد إلى دمشق وحمص وحماة وحلب ينسج ويفصل ويخاط ويصبغ ويحوّل إلى سلع تجارية من ألبسة وغيرها

وأنسجة متنوعة وتصدر إلى الجنوب، فإذا وضع عليها ضريبة جديدة بمعدل أحد عشر بالمائة رسمًا جمركيًا يتعذر تصريفها ويضطر المشتغلون بها إلى ترك هذه الصناعة والتجارة وعددهم عظيم جدًّا، وهذه الصناعات القديمة في سورية هي المورد الوحيد لرزق الكثيرين من السكان، كما أن هذا الضرر يلحق أيضًا سكان فلسطين بحرمانهم من إصدار معمولاتهم ومصنوعاتهم إلينا وكساد العمل عندهم وعندنا في آن واحد.

ويناقض هذا الاتفاق الجمركي نصوص الحقوق الدولية ولا يتألف مع العادات المعمول بها ويضر بمصلحة الشاميين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويهدم عمران البلاد، ويودي بالتجارة والصناعة الوطنية، ويضعف العلاقات التجارية مع أوروبا ويرجع بالصناعة السورية القهقرى.

فألغى هذا الاتفاق وحل محله اتفاق آخر عقد بين المفوضيتين في سورية وفلسطين وجعلت فيه الصادرات والواردات بين هاتين المنطقتين حرة غير تابعة لتقاضي الرسوم الجمركية إلا ما كان من استيفاء واحد في المائة على قيمة البضائع الصادرة والواردة رسومًا للبلديات، وعلى التجار أن يقدموا قوائم صحيحة بقيمة البضائع الصادرة والواردة، وعلى أساسها يجري الحساب بين إدارة الجمارك في المنطقتين بنسبة ما يوجد في البضائع من المواد الأولية المؤدى عنها رسوم جمركية، حين دخولها إلى ثغور الشام وهو ما يجعلونه على قاعدة الجمارك المشتركة، وعلى قاعدة الجمارك المشتركة عقد اتفاق مع الشرق العربي؛ أي حكومة شرقي الأردن.

ولما كانت قد حصرت جباية الرسوم الجمركية بجميع الواردات الأجنبية إلى البلاد السورية في الثغور البحرية، نشأ خلاف كبير بين حكومتي الاتحاد السوري التي كانت مؤلفة من ولايتي حلب ودمشق

والإسكندرونة وأنطاكية ومنطقة العلويين وبين لبنان الكبير، ومع أن هذه البلاد تستهلك القسم الأعظم من الواردات الأجنبية، كانت حصة الجمارك التي تدفعها الإدارة العامة إلى حكومة الاتحاد السوري لا تتجاوز ٣٢ في المائة، وهي أقل بكثير مما كانت تدفعه إلى حكومة لبنان الكبير؛ وذلك استناداً على طريقة الإحصاء التي كانت متخذة لمعرفة أنواع البضائع التي ترد إلى بلاد الاتحاد السوري. وبعد أخذ ورد أصدر المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان حكمه في أن تأخذ سورية اثنين وخمسين في المائة والباقي يخص ببلدان الكبير، كما أنه قرر فساد طريقة الإحصاء المتخذة قبلاً وإلغاءها.

الواردات والصادرات

تستورد البلاد السورية البضائع المتنوعة اللازمة لأسواقها من الخارج، وأهم وارداتها أنسجة القطن والحرير على اختلاف أنواعها، والأجواخ والأواني البلورية والأدوات القرطاسية والأدوات والآلات من الحديد والكاكاز ومواد البناء كالخشب والأسمنت المسلح والمواد الكيميائية وحاجيات الصيدليات وغير ذلك. وتصدر إلى الخارج ما يزيد عن حاجتها من حاصلات الزراعة وبعض المنسوجات من القطن والحرير المعروف بجودة صنعه وإتقانه وجماله في بلاد الشرق، وكذلك بعض المصنوعات من الخشب والنحاس الممتاز بدقة الصنع والساكنات ومربيات الفواكه والحرير والصوف والجلود والتبغ والصابون وغير ذلك.

ويجري أكثر التصدير والتوريد في أسواق المدن الآتي ذكرها مرتبة حسب مكانتها وهي: بيروت، طرابلس الشام، الإسكندرونة، اللاذقية، صيدا من الثغور البحرية، وحلب ودمشق من المدن الداخلية، ويجب أن لا يفهم أن ما يستهلك في هذه المدن يتبع التصدير والتوريد، بل بالعكس

فإن شأن الاستهلاك غالباً في الحواضر الداخلية وما يتبعها من القرى وكثرة السكان كما تقدم في بحث تعيين المحصة الجمركية بين سورية ولبنان، ولكن المعمول في حركة التوريد والتصدير على الثغور البحرية كما لا يخفى وهي واسطة النقل والشحن.

وقد تبين أن فرنسا وإنكلترا هما في الدرجة الأولى بالنسبة للصادرات إلى الشام ويأتي بعدهما من إيطاليا وبلجيكا والولايات المتحدة. وكذلك يظهر أن المقياضات في التجارة بين الشام ومصر في تقدم مستمر، وأن حركة التصدير من سورية إلى البلاد المجاورة كفلسطين وشرقي الأردن حسنة جداً وعليها المعمول في كثير من المصنوعات الوطنية بالنظر للرغبة فيها والحاجة إليها في تلك البلاد المجاورة، وكذلك حركة النقل (الترانزيت) بين الشام والعراق والبلاد الإيرانية، فإنها قد ارتفعت وتحسنت، وذلك بعد فتح طريق السيارات بين سورية والعراق.

وقد بلغ محصول الشام من الصوف في سنة (١٩٢٥) ٤٦٠٠ طن، ومن مجموع هذا المحصول الذي كان ينقص ٢٠ في المائة عن محصول سنة (١٩٢٤) نتج ٢٣٠٠ طن من الصوف المغسول، وكانت الولايات المتحدة هي التي تستورد صوف البلاد الشامية بالدرجة الأولى.

وبلغ الوارد من الحيوانات إلى هذه البلاد خلال سنة (١٩٢٤) عدد ٣٠١٦٤٣ رأس حيوان والوارد في سنة (١٩٢٥) ١٨٤٧٣٨ رأساً. وأما الصادر في سنة (١٩٢٤) فكان ٢٠١٧٢٦ حيواناً، وفي سنة (١٩٢٥) كان ٢٨٤٣٨٩ حيواناً. وهذه الحيوانات تشمل أجناس الخيل والبغال والحمير والبقر والجمال والخنازير.

صناعة البلاد في سنة ١٩٢٥

ولاية حلب: إن التدابير التي اتخذتها الحكومة التركية بشأن تغيير لباس الرأس الوطني قد أثرت تأثيراً سيئاً في نشاط الصناعة الحليية. فقد اشتغل في حلب ٢٤٠٠ نول في شهر كانون الأول يقابلها ٢٧٠٠ نول في شهر تشرين الثاني، وبلغ معدل ما يحصل منها ٧٥٠٠ ثوب قطني مغزول بطول ستة أمتار و ١٢٠٠ ثوب بطول خمسة أمتار و ١٠٧٥٠ سلكاً أغبانياً كوفيات ومناديل. ويصنع في ديرغطا وأبو الظهور الكتان الأهلي والقماش المستعمل لصنع الخيم (الوبر). وقد بلغ محصول الصابون في حلب ١٢٦٠٠٠ كيلو غرام ومحصول الزيت ١٨٢٥٠٠ كيلو غرام والديباغات قد حضرت ٧٥٠٠ من جلود الخرفان و ١٩٠٠ جلد ماعز و ٢٠٥٠ جلد حملان و ٣٠ جلد ثور يكون مجموعها ١١٤٨٠ وطحنت المطاحن في حلب ما يقدر بـ ٢٥٥٠ طناً من الطحين وأنواعه. وقد شوهد نقص محسوس في تحضير أدوات التعمير في هذه النسبة بالنظر للأزمة الاقتصادية التي بدأت فيه.

لواء الإسكندرونة: لا يزال النشاط الصناعي عظيمًا في حلالات الحرير في السويدية وجبل موسى وفي معامل الصابون في أنطاكية وفي المطاحن.

حكومة العلويين: قد خطط إنشاء معملين لحليج القطن أحدهما في اللاذقية والثاني في جبلة، كما أن المعاصر تعمل عملاً جيداً. وقد أخذت أنوال القطن الخامي في قرى اللاذقية وصهيون تعمل بجهد ونشاط وكذلك مدابع اللاذقية.

ويظهر للناظر الفرق الكبير بين الصادرات والواردات في البلاد الشامية فيحكم بأنها سائرة في طريق الإفلاس، والحقيقة أن الفرق أقل مما يظهر لأول وهلة؛ لأن للبلاد الشامية موارد أخرى غير صادراتها وإن كانت لا تسد هذا العجز، ولولا هذه الموارد لوقعت البلاد في هوة الإفلاس منذ زمن طويل، وهي تنحصر فيما يلي:

أولاً: الأموال المرسلة من المهاجرين الشاميين المنتشرين في أنحاء الأرض ولا سيما في البلاد الأميركية حيث أصبح الشاميون يملكون ثروة كبيرة فيعاونوا أهلهم في الشام، وتقدر هذه الأموال بمليون ليرة إنكليزية وبحسب إحصاء سنة (١٩٢٢).

ثانياً: واردات الاصطياف والسياحة وهي تقدر بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات.

ثالثاً: فوائد الأموال والأسهم والقطع المالية الموجودة في أيدي السكان، وهي تقدر بثلاثمائة وخمسين ألف ليرة إنكليزية، إلى غير ذلك من الموارد الأخرى الضئيلة.

ما يجب للنجاح في الاقتصاديات

لنجاح تجارتنا ورقى صناعتنا لا بد لنا:

أولاً: تأليف الشركات الصناعية لتأسيسها على الأصول الميكانيكية الحديثة، ومتى تم لنا الظفر للقيام بمثل هذه المعاهد نعتقد أننا بدأنا نقاوم تيار الصناعات الغربية لتحل محلها صناعتنا الجميلة، الممتازة بقوتها ومتانتها، خصوصاً وإن رخص اليد العاملة ورخص المواد الأولية كفيلاً بنجاح كثير من صناعتنا بالنظر لتوفر هذين الشرطين الأساسيين.

ثانيًا: وضع الرسوم الجمركية على قاعدة حماية الصناعة الوطنية.

ثالثًا: العناية الفائقة بتحسين زراعتنا وعلى الأخص منها القطن والقنب والفاكهة والعناية بتصديرها إلى الخارج. وكذلك القول في زراعة التبغ.

وعلى ذكر هذا الصنف العظيم لا بد من القول إن بقاء شركة حصر الدخان أضرب بزراعة الدخان ضررًا بليغًا حال دون الاستفادة منه فائدة تعود بالخير والنماء، إذا كانت حرة طليقة من قيود هذه الشركة واستبداد رجالها. ومن المحقق أن تنشيط زراعة الدخان على أنواعه وتشجيعه يقلل من هجرة المهاجرين وتخفيف قوة تيارها الجارف ويقتصد للبلاد مبالغ طائلة تدفعها ثمنًا للدخان الأجنبي.

رابعًا: جعل عملة البلاد على قاعدة الذهب؛ ذلك لأن وضع عملة البلاد الشامية على قاعدة (الفرنك) الفرنسي واستصدار الأوراق النقدية السورية على هذا الأساس قد أضرب الأسواق التجارية ضررًا بليغًا، وسبب لها خسائر كبيرة بسبب صعوده وهبوطه المتوالي.

خامسًا: الإقلال من استعمال الكماليات وأدوات الزينة والترف وبذل الغيرة في استعمال المصنوعات الوطنية بقدر الإمكان لا سيما الحلويات والساكر الإفريقية، فإن مصنوعات البلاد من هذه الأنواع تفوقها جمالًا وإتقانًا ولذة، وقد ارتقت هذه الصناعة في البلاد رقيًا حسنًا كان من أثره تصدير كميات كبيرة منها إلى البلاد الغربية أيضًا وخصوصًا أصناف مرببات الفاكهة على اختلاف أنواعها، والاختصار على مصنوعات البلاد من هذه الأنواع يوفر مبالغ طائلة تقدر بمئات الألوف من الدينار الذهبية.

سادسًا: تخفيف الضرائب على عاتق الأهلين فقد أصبحوا لا يطيقون حملها بالنظر لكثرتها وتعددتها وزيادتها بالإضافة التي طرأت عليها، مع قلة أسباب الرزق وضعف موارد الاقتصاد.

تجارة فلسطين في الدور الجديد

كانت تجارة فلسطين في العهد الأخير في صعود وهبوط وصادراتها أقل من وارداتها؛ لكن التحسن مطرد في حالتها ويؤخذ من تقري إدارة الجمارك والمكوس والتجارة أن مجموع واردات الجمارك والمكوس والمواني كان سنة (١٩٢٥) ١١٠٩٩٥٥ جنيهًا مصريًا يقابله ٦٥٦٨٨٠ ج. م في سنة (١٩٢٤)، وقد زاد الدخل من مكوس التبغ على ١٠٠ ألف جنيه. وأُعفيت من الرسوم الجمركية الفحم والكاو والوسخ وزيت ديزل وسدler والمازوت والبراميل والمواد الأولية التي تدخل في الصابون وكسر بزر الزيت والدباغة والنسج. وأُعفيت أيضًا بضائع قيمتها ٥٩٢٤٤ ج لما تقضي به حقوق المعاهدات الدولية. وبلغ مجموع قيمة الواردات ٧٣٣٨٤٩١ ج مقابل ٥٢٦٦٣٤٩ في سنة (١٩٢٤)، ومجموع قيمة الصادرات من نواتج فلسطين ١٢٩٧٥٥٩ مقابل ١٢٠٠٨١٢ في السنة التي قبلها، وكانت أهم الزيادة في الواردات الحبوب والدقيق ومواد البناء والبضائع القطنية والأدوات والسيارات وأنواع الكاز. وبلغ ما بيع من الملح ٤٧٩٤ طنًا مقابل ٣٤٥٧ طنًا في سنة (١٩٢٤).

إنَّ انتعاش التجارة من أزمة سنة (١٩٢٣) الذي ابتدأ منذ سنة (١٩٢٤) قد ظلَّ مستمرًا بتأثير النازحين الجدد وما جلبوه معهم من رءوس الأموال التي أودعوها المصارف فسهلوا بذلك إعطاء السلفات، وقد هبط معدل الفائدة إلى أدنى رقم منذ الاحتلال، ولكن المشتريات المبنية على المضاربة توقعًا لزيادة الطلب وعلى الخصوص فيما يتعلق بتجارة المباني

واستثمار الأموال في أبنية واسعة النطاق مع مشتري الأرض أدت إلى قلة النقد فنتج عن ذلك قبض المصارف يدها عن التسليف. وقد زاد معدل المعيشة بنسبة ٤.٤ بالمائة عن سنة (١٩٢٤) وارتفعت أسعار الجملة ٧.٢ بالمائة.

وبلغت صادرات البرتقال ١٨٦٨٢٩١ صندوقاً مقابل ١٨٨٠٧٨٣ في سنة (١٩٢٤) وكانت الأسعار عالية وكان معدل المبيعات الأولى ١٢-١٥ شلناً الصندوق. وكسدت تجارة الخمر الصادرة وقلّ الوارد منها ٧٨٥٠ ج م وصدر من الصابون ٥٨٥٥ طنّاً قيمتها ٢٤٧٧٢٥ وأدخل تحسين على صناعته فصار يعمل منه الصابون المطيب. وفي فلسطين سبعة معامل للتبغ واللفائف وسبعة معامل للتبناك، وكان ناتجها من أول أيار ٢١٩٨٠٠ كيلو غرام من اللفائف و١٢٠٠٠ من التبغ المفروم و٤٠ في المائة من التبغ المصنوع في المعامل، وهو من ناتج فلسطين والمساحة المزروعة تبغاً وتبناكاً في فلسطين هي ثلاثة آلاف آكر (الآكر ٥٢ آرًا والآر مائة متر مربع) وما زال تهريب التبغ مستمرّاً على درجة واسعة.

وقسمت الواردات المستهلكة في فلسطين في سنة (١٩٢٥) أربعة أقسام منها ١٩٨٧١١٠ ج ثمن مأكولات ومشروبات وتبغ و٦٢٧٥١٨ مواد خام وبضائع أكثرها غير مصنوع و٣٩٦٧٥١٨ بضائع مصنوعة كلها أو معظمها و٧٥٦٣٤٤ صادرات شتى. وأهم مصادر الواردات ونسبتها إلى المجموع بريطانيا العظمى ٣٠٨٣١٥٦ ج أي ١٤.٥ بالمائة وسورية ١٠١٧٩٠٣ أي ١٤.٥ في المائة وألمانيا ٩٣٠٤٣٩ أي ١٢.٥ في المائة وأميركا ١٦٦٩٩٩ أي ٩.٥ وبلدان بريطانية أخرى ٥٨٣٥٥٠ أي ٧.٥ وفرنسا ٥٦٣٦٨٩ أي ٧.٥ ومصر ٣٧٥١٦٩ أي ٥.٥.

وتقسم الصادرات إلى مأكولات ومشروبات وتبع وقيمتها سنة (١٩٢٥) ٨٨٢٢٣٤ ومواد خام وبضائع أكثرها غير مصنوع ٦٦٨٠٨ بضائع مصنوعة كلها أو معظمها ٣٠٠١٢٨ وأشياء أخرى ٤٨٣٣٩، وأهم موارد الصادرات مصر ويصدر إليها بما قيمته ٥٧٧٢٧٧ ج أي ٤٤.٥ في المائة وبريطانيا العظمى ٤٤٣٧٧٤ ج أي ٣٠ في المائة وسورية ١٥٨١٠٢ أي ١٢.٥ وأميركا ٢٥٦٠٠ وفرنسا ٢٢٩٣٢ وألمانيا ٢٠١٩٠ وإيطاليا ١١٩٦٨، وأهم الزيادة في الصادرات التي كانت في البرتقال وصابون الغسيل فزادت صادرات الأول ٩١١١٥ والثاني ٤٣٨٣٤ ج.

ويعرف مركز البلاد الحقيقي ويقدر ما لها وما عليها من ميزان تجارة البلاد لسنة (١٩٢٣) وهو ميزان صحيح في الجملة مأخوذ من قلم إحصائي دائرة التجارة ومن بعض ذوي الخبرة والاختصاص.

| جنيه مصري | الواردات | جنيه مصري | المصروفات |
|--------------------------------|--------------------------|-------------------|--------------------------|
| الواردات الظاهرة | ١,٣٧٧,٢٠٧ | المصروفات الظاهرة | ٤,٨٢٥,١٨٥ |
| قيمة الصادرات المعاد تصديرها . | | قيمة الواردات | |
| الواردات الخفية | | المصروفات الخفية | |
| ١٥٠,٠٠٠ | الصادرات إلى شرقي الأردن | ٥٠,٠٠٠ | واردات من شرقي الأردن |
| ١٦,٠٠٠ | تجارة السياح | ١٥٠,٠٠٠ | وفر الموظفين الأجانب |
| ٢٥٠,٠٠٠ | أحوال المهاجرين | ١٠٠,٠٠٠ | أرباح المصارف |
| ٥٠٠ | تجارة الترانسب | ١٠,٠٠٠ | أرباح شركات التأمين |
| ٥٠٠,٠٠٠ | اللجنة الصهيونية | ٢٥,٠٠٠ | أرباح شركات غيرها |
| ٨٠٠,٠٠٠ | الجمعيات الخيرية | ١٥,٠٠٠ | مصارف الطلبة الفلسطينيين |
| ٢٠,٠٠٠ | أموال مستثمرة في الخارج | ٩٨,٠٠٠ | خط سكة حديد يافا - القدس |
| ١,٥٠٠,٠٠٠ | نفقات الجيش البريطاني | ٤٤٨,٠٠٠ | المجموع |
| ١٠٠,٠٠٠ | نفقات المهاجرين الشرقية | | |
| ٥٠٠ | واردات المواني | | |
| ٣,٦٧٠,٠٠٠ | المجموع | | |
| ٢٢٥,٩٧٨ | عجز سنة (١٩٢٣) | | |
| ٥,٢٧٣,١٨٥ | المجموع العام | ٥,٢٧٣,١٨٥ | المجموع العام |

ومن الأسباب العديدة التي تحول دون الإنتاج في الوقت الحاضر وفي فلسطين قلة الأيدي العاملة من بشر وحيوان وقلة العمال الفنيين في سبيل الإنتاج المختلفة ومشكلة الأرض وخصوصًا المشاع وقلة رؤوس الأموال اللازمة للقيام بالمشاريع الكبرى.

تجارات الأمم المختلفة في الشام^(١)

يقدر الخبيرون الواردات إلى سورية ولبنان من القارات الخمس بثمانية ملايين دينار ذهبي مسانهة، وغالب ذلك من الأشياء الكمالية التي تقتضيها حالة الحضارة والترف، فمن أهم ما تستورده الشام من فرنسا الكتب المدرسية والمطبوعات العلمية والأدبية والسياسية وأدوات الكتابة من أقلام ومحابر وورق وأنوال النسيج الإفرنجية ومواد الصيدلة والعقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة ومعدات موائد الطعام من سكاكين وملعق ومتممات أخونة الطعام ولوازم القاطرات الحديدية والشاحنات، ومن مواد البناء الترابية الكلسية والطوب والقرميد والبلاط الصناعي وآلات النجارة ومعدات الأبواب والنوافذ الحديدية والآلات الكاتبة من عربية وإفرنجية وأسلحة الصيد والمسدسات مع ما يلزمها من القذائف والبارود، والأجواخ الصيفية على اختلاف أنواعها، وثياب النساء حريرية وقطنية، وأوان خزفية وبلورية وروائح عطرية على اختلاف أنواعها، والخمور والدقيق والمطابع وما يقتضي لها عن حروف وآلات طباعة والمواد الكيماوية وغير ذلك.

ومن أهم ما نستورد من إنكلترا القصدير والمعادن والأجواخ الشتوية الغالية الثمن، والمنسوجات القطنية وهي أنواع كثيرة والغزل بأنواعه

(١) كتب هذه المقالة السيد محمد شخاشيرو.

والموسى والسكاكين المعروفة بالإنكليزية وسرر النوم على اختلاف أنواعها المعمولة من الحديد والنحاس وسرر السفر وبعض مطبوعات علمية وأدبية وأسلحة الصيد والمسدسات وما يتبعها وكثير من العقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة والأسلاك النحاسية والمركبات ولوازمها. وأهم ما يرد على الشام من إيطاليا ألبسة الصوف على اختلاف أنواعها وأكسية القطن كالمدام واليمني والأجواخ الرخيصة الثمن والرخام المرمر الملون وبعض مطبوعات علمية وأدبية وقسم من السيارات والمركبات. وأهم ما يردنا من ألمانيا المطبوعات العلمية والأدبية وورق الكتابة وأدوات النجارة على تعدد أنواعها وأشكالها من مناشير ومطارق وأدوات الأبواب والنوافذ الحديدية وسرر النوم من النيكل والحديد والنحاس وسرر السفر والمسامير وأسلحة الصيد والمسدسات وتوابعها والرصاص والقصدير والأواني الخزفية وآلات الجراحة والعقاقير والمستحضرات الطبية والأواني النحاسية من طسوت وأباريق وأواني الحديد المدهون المستعمل في المطابخ والأصباغ على أنواعها والأدوات الكهربائية على تنوع ضروبها والآلات الرافعة للماء وأدوات الزراعة الحديثة والجوخ.

وأهم ما يرد من النمسا صناديق الحديد والمقاعد والكراسي الخشبية المعروفة الخيزران والورق، ومن المجر الكبريت والفاصوليا، ومن روسيا سخانات بشاي الفاخرة (السماورات) منها الأبيض ومنها الأصفر، وخيطان الفضة المموهة وتدخل في الصناعة الشامية لوشي الحرير، والبترول والطنافس والبسط الغاليا الثمن، والفراء الفاخرة والأحذية المطاطة، وأهم ما تصدر إلينا بلجيكة بلور المرايا وزجاج النوافذ وأسلحة الصيد والمسدسات وحديد البناء وحديد الصناعة ولوازم حافلات الكهرباء وآلات الزراعة، وثياب وأجواخ كثيرة والصودا والسلك والورق.

ومن بولونيا الخشب والمسامير، ومن إسبانيا القمصان والجوارب والفلين والزئبق وبعض الأدهان، ومن سويسرا الساعات الذهبية والفضية للنساء والرجال والمطرزات الصيفية من الأكسية والدنتلا والشوكولاته والجبن واللبن المعقم والزبدة وأدوات النسيج والأحذية، ومن هولاندة الجبن والغليسرين والسبيرتو والجة والشمع والملبس (درويس) والبسكوت والدهان والأواني الخزفية والحليب المعقم والكتب العربية الجيدة.

وأهم ما يردنا من السويد الكبريت والمقوى، ومن النروج زيت السمك والقطران وزيت النفط (التربتين)، ومن الدانيمارك الحليب المعقم والسمك المقدد والمغموس بالزيت والجة، ومن البرتقال سمك السردين، ومن التشيكوسلوفاكيا السكر والبلور والمالقي والجوخ العربي والجوخ العادي والأززار والطرايش والحرامات الصوف والأواني الزجاجية، ومن بلغاريا الجبن البلغاري، ومن رومانيا الأخشاب وتعرف بالقطراني والشوح وقليل من البترول، ومن اليونان التبغ والزيوت والكونياك، ومن أميركا الشمالية والجنوبية آلات الخياطة والسيارات وما ينبغي لها والدراجات والمركبات والزيوت المعدنية والبترول والألكحول والبنزين والأحذية والقهوة والخشب المعروف بالأميركاني والساعات الأميركية وآلات الهاتف والبرق والمطاط وأدوات الكتابة، ومن أستراليا الدقيق الأسترالي وغير ذلك.

وأهم ما يرد علينا من اليابان والصين الخزف الصيني والياباني، وهو أشكال متعددة والحصر المنقوشة والحرير الياباني والصيني والغزل والشاي الصيني والخام من اليابان والصين والحرير من شنغاي. ومن جاوة بطريق الحجاز الشاي والقهوة وثياب الحرير الصفيق المعروفة بالاستكروزة، ومن طرابلس الغرب وتونس والجزائر والغرب الأقصى نسيج صوف فاخر يعرف بالحرام وهو دثار الشتاء وحرير للصناعة هو

أحسن أنواع الحرير، ومن الجزائر النيذ الفاخر، ومن السودان الفول السوداني وبعض البهارات والصمغ والريش والعاج، ومن الحبشة القهوة، ومن مصر الثياب الصوفية يخطونها عباءات في فلسطين والشال الحريري والأرز والسكر والمطبوعات العربية في مختلف العلوم والفنون.

ويردنا من تركيا الأحجار الكريمة وبعض مصنوعات الصياغ من الأواني الفضية الدقيقة الصنع، والبسط الأورفلية نسبة إلى أورفة والطنافس، وغالبها تعرف بأسماء البلدان التي تعمل فيها فيقال لها الرشواني والقيصري والكرداسي، وتستورد الشام من بلاد الكرد الغنم والخيل المعروفة بالجلب وهي لحمل الأثقال والحرث والبسط والطنافس واللبد المعروفة بالكردية.

وأكثر ما تبعث العراق البسط المعروفة بالبغدادي والعباءات المعروفة بالجيلانية نسبةً إلى جيلان والملاءات الحريرية وتعرف بالبغدادية يتخذها نساء القرى الشامية غطاءً. وأهم ما نتاوله من اليمن والحجاز البن أو القهوة المعروفة بالعدنية، ومن المدينة المنورة بعض الطيوب والمراوح والتمر والحناء، ومن نجد الإبل والخيل العربية المشهورة.

وأهم ما يرد من بخارى الطنافس والبسط المفتخرة، وتعرف بأسماء حواضرها. ويرد من الأفغان الطنافس والبسط الجيدة وتعرف بالأفغاني، ومن الخليج الفارسي اللؤلؤ ومصنوعات يدوية من بسط وطنافس وخراج وأعبئة، ومن فارس الشال الثمين والبسط والطنافس وعباءات الوبر وتعرف بأسماء حواضرها فيقال: الشيرازي، التبريزي، الهمداني، الخراساني من حواضر فارس، ومن أهم مجلوياتنا التنباك الأصبهاني وهو كثير المقطوعة في الديار الشامية والأسلحة البيضاء من مدى وخناجر وسيوف وتعرف بالعجمية، والخاويار يجلب الآن من بحر الخزر.

وأهم الوارد من بلاد الهند الطيوب من مسك وعنبر وعود وكافور والنيل والشاي على اختلاف أنواعه ومصنوعات النحاس من أباريق وطسوت وطاسات وأقداح صغيرة وكبيرة وصحاف تعرف بالهندي والبهارات والأفاويه بأنواعها. والشال البديع من صناعة كشمير ولاهور، ويساوي الثوب منه وطوله ثلاثة أمتار بعرض متر ونصف من أربعين إلى خمسين دينارًا.

هذا مجمل ما يأتينا من الأرجاء المختلفة من ضروب الحاجيات والكماليات، عدا أصناف المأكولات من شوكلاته وثمار محفوظة وبقول وحبوب ودقيق وفاكهة ولحوم مقددة وأنواع السكاكر الإفرنجية، مما يصدر إلينا بحسب اللزوم ورواج سوقه إذا أصيب القطر بأفة في نواتجه، وهذه الأصناف المجلوبة تدل على دقة نظر تجارها وحسن انتقائهم، وضربهم في طول الأرض وعرضها، حتى لا تكاد ترى فيما نعلم بلدًا في الأرض لم ينزله شامي يبيع أو يشتري. ويقال في الأمثال العامة: «أعرج الشام وصل الهند»، وإذا تأملت هذه المجلوبات الصناعية وجدتها مثال الجمال والمثانة مما يدل على ذكاء مستهلكيها ورسوخ قدومهم في الحضارة والترف. وقطر كهذا بينه وبين الغرب صلات مستحكمة في التجارة منذ أكثر من ألفي عام وبينه وبين الشرق صلات مثلها منذ عرف التاريخ هو عميل قديم أمين جدير بأن ينظر إليه بعين العطف ويهتم بشأنه أهل الغرب اهـ.

رأي في ازدياد الثروة والتجارة

بعد أن عرفنا بالفصول السالفة تاريخ التجارة في هذا القطر، وعلايقة مع الأمم في القديم، ووقفنا على حالة تجارته اليوم، وصلاته الاقتصادية مع الشرق والغرب، ورأينا العجز الظاهر في موازنته واختلال مجاريه

الاقتصادية وأن دخله أقل من خرجه في الجملة، يجدر بنا أن نلفت نظر أرباب الشأن في الأمة، إلى أن الشام باعتدال أهويته وجميل طبيعته، وتوسطه بين أقطار الشرق والغرب، وما في تاريخه وآثاره من البدائع والروائع، يستطيع أهله أن يجعلوه محط رحال معظم المسلمين في آسيا وإفريقية، وأقرب السبل إلى ذلك في نظر المفكرين، أن يصلح ما تخرب في الثورة العربية من خط السكة الحجازية الممتد من دمشق إلى المدينة المنورة، ويتم مد الخط الحديدي إلى مكة المكرمة وجدة، وعندها يستطيع حجاج العراق وفارس وأفغانستان وبلوچستان والهند والصين وغيرها أن يسلكوا إلى الأرض الطاهرة عن طريق الشام من العراق على السيارات ريثما يمد خط حديدي عريض، وتكون دمشق المحطة المهمة للصادرين والواردين، ودمشق هي المدينة الإسلامية الرابعة بقدرسيته، بين أكثر أقطار الشرق الإسلامي وبين الحجاز، فإذا تمّ ذلك لا يقل عدد الحجاج الذين يؤمون دمشق عن ثلاثمائة ألف كل سنة، فإذا صرف الفرد عشرة دنانير، واصطاف في الشام من العراقيين والمصريين عشرون ألفاً كل سنة على أقل تعديل، وزارها عشرون ألفاً من سياح الإفرنج، لا يقل ربح الشاميين كل سنة عن أربعة إلى خمسة ملايين دينار من هذه الطرق التجارية. ومما يسهل الوصول إليه عقد معاهدة بين حكومة الشام والحكومات المجاورة. حينئذ يعمر الحجاز وتتم للشام سعادتها؛ لأنها بالسكة الحجازية كانت تمون الحجاز قبل الحرب الكبرى فيسافر كل يوم من دمشق سبع مركبات تحمل من الطعام والبضائع ما لا يقل وزنه عن مائة ألف كيلو، وناهيك بذلك من تبادل المنافع بين هذه الأقطار والممالك، وما في ذلك من تيسير سبل الحج على شعوب لا تقل عن مائة وثلاثين مليوناً في العدّ، كانت ترحل الأشهر لتحج واليوم تكفيها الأسابيع القليلة مهما بعدت عليها الشقة إذا امتطت هذه السيارات وهذه القطارات، ثم إذا تم إنشاء الخط الحديدي بين طرابلس وحيفا تتصل كالة

في فرنسا بالقاهرة عن طريق أوروبا وتركيا وتصبح الشام نقطة الاتصال بين أوروبا وآسيا وإفريقية، وفي ذلك من الفوائد لتجارة الشام ما لا ينكر.

obeyikandi.com

obeikandi.com

فهرس

| | |
|---------|---|
| ٣..... | التاريخ المدني |
| ٣..... | العلم والأدب |
| ٣..... | ما يُراد بالعلم والأدب |
| ١٠..... | العلم والأدب عند أقدم شعوب الشام |
| ١٣..... | مواطن العلم في القطر قديمًا |
| ١٦..... | ما حمل العرب من العلم إلى الشام |
| ١٧..... | جمع القرآن ونشره في الشام |
| ٢٠..... | العلم والأدب في القرن الأول |
| ٢٣..... | عناية خالد بن يزيد بالنقل وأوائل التدوين |
| ٢٦..... | علماء القرن الثاني والأدب والنقلة والمنشئون فيه |
| ٣٠..... | العلم والأدب في القرن الثالث |
| | الأدب في القرن الرابع ونهضته |
| ٣٣..... | على عهد سيف الدولة وأبي العلاء المعري |
| ٣٨..... | الآداب في القرن الخامس |
| ٤٠..... | العلم والأدب في القرن السادس |
| ٤٥..... | العلم والأدب في القرن السابع |
| ٥٣..... | الإمام ابن تيمية والإصلاح الديني والأدب والعلوم في القرن الثامن |
| ٥٨..... | العلوم في القرن التاسع |

- انحطاط العلم والأدب في القرن العاشر ٦١
- الآداب في القرن الحادي عشر ٦٤
- العلوم والآداب في القرن الثاني عشر ٦٩
- العلم والأدب في القرن الثالث عشر ٧٣
- العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر ٧٥
- العلوم والآداب في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ٧٦
- المعاصرون من العلماء والأدباء ٨٠
- تأثيرات الأجانب في التربية ٨٤
- الآداب في القرن الرابع عشر ٨٦
- الجامعات والكليات ٩٢
- الإحصاء ٩٥
- الصحافة العربية ٩٧
- الطباعة والكتب ١٠٤
- الفنون الجميلة ١٠٩
- تعريف الفنون الجميلة ١٠٩
- الموسيقى والغناء ١٠٩
- التصوير ١٢٣
- النقش ١٣٩
- البناء ١٤٤
- الشعر والفصاحة ١٥٠
- الرقص ١٥٣

- التمثيل ١٥٦
- متى ترتقي الفنون الجميلة؟ ١٥٩
- الزراعة الشامية ١٦١
- العامر والغامر ١٦١
- قلة العناية بالأنهار ١٦٣
- خراب الزراعة والمزارع ١٦٤
- عوامل الخراب ١٦٦
- آفة الهجرة على الزراعة ١٦٨
- خصب الأراضي ومعالجتها وما يزرع فيها ١٧٠
- تقسيم السهول والجبال ١٧٢
- من الذين أدخلوا الطرق الجديدة ١٧٣
- درس الزراعة ١٧٤
- نقص كبير ١٧٥
- التحسين الأخير ١٧٦
- عناية الأقدمين بالزراعة ١٧٩
- أصناف الزروع والأشجار ١٨١
- الأشجار غير المثمرة ١٨٧
- الأشجار المثمرة وغيرها ١٩١
- الصناعات الزراعية القديمة ١٩٢
- معادن الشام وحماتها ١٩٧
- الحبات الشامية ٢٠٣

| | |
|----------|---|
| ٢٠٦..... | نظرة في الفلاحة الشامية الحديثة |
| ٢٠٦..... | أقاليم الشام |
| ٢١٠..... | أتربة الشام |
| ٢١٣..... | حراج الشام |
| ٢١٦..... | الري في الشام |
| ٢١٨..... | زروع الشام وأشجارها |
| ٢٢١..... | الأشجار المثمرة |
| ٢٢٧..... | الحيوانات الدواجن في الشام |
| ٢٣٤..... | الصناعات الزراعية في الشام |
| ٢٣٩..... | زراعة الشام من الوجهتين المالية والاقتصادية |
| ٢٤٠..... | الضرائب الزراعية |
| ٢٤١..... | طرائق استثمار الأرض |
| ٢٤٥..... | إقراض الزراع |
| ٢٤٦..... | الخلاصة |
| ٢٤٧..... | الصناعات الشامية |
| ٢٤٧..... | مواد الصناعات |
| ٢٤٨..... | الغزل والحياكة والنساجة |
| ٢٥٥..... | الدباغة وصناعات الجلود |
| ٢٥٧..... | تربية دود الحرير |
| ٢٥٧..... | التجارة |
| ٢٦٤..... | القيانة والحدادة والنحاسية |

| | |
|----------|---|
| ٢٦٩..... | الزجاجة |
| ٢٧١..... | الدهان |
| ٢٧٣..... | الفخارة والقيشاني |
| ٢٧٥..... | الوراقة |
| ٢٧٧..... | المرايا |
| ٢٧٨..... | الصياغة |
| ٢٨١..... | صناعة الصدف والرخام |
| ٢٨٢..... | السجاد والحصير |
| ٢٨٣..... | الصناعات المحدثه |
| ٢٨٥..... | تأثير الصناعات في الماديات والأخلاق |
| ٢٨٩..... | التجارة الشاميه |
| ٢٨٩..... | موقع الشام من التجارة وتجارة القدماء |
| ٢٩٦..... | تجارة العرب |
| ٣٠٢..... | التجارة في القرون الوسطى |
| ٣٠٦..... | التجارة في القرون الحديثه |
| ٣١٤..... | التجارة والاقتصاديات في العهد الحديث ^٥ |
| ٣١٧..... | الورق النقدي والعوامل في تدني الاقتصاديات |
| ٣١٩..... | الحواجز الجمركية |
| ٣٢١..... | العامل الاقتصادي |
| ٣٢٣..... | الواردات والصادرات |
| ٣٢٥..... | صناعة البلاد في سنة ١٩٢٥ |

- ٣٢٦..... ما يجب للنجاح في الاقتصاديات
- ٣٢٨..... تجارة فلسطين في الدور الجديد
- ٣٣١..... تجارات الأمم المختلفة في الشام
- ٣٣٥..... رأي في ازدياد الثروة والتجارة
- ٣٣٩..... فهرس